

يوسف يونس

سيرة الراهب

قصة

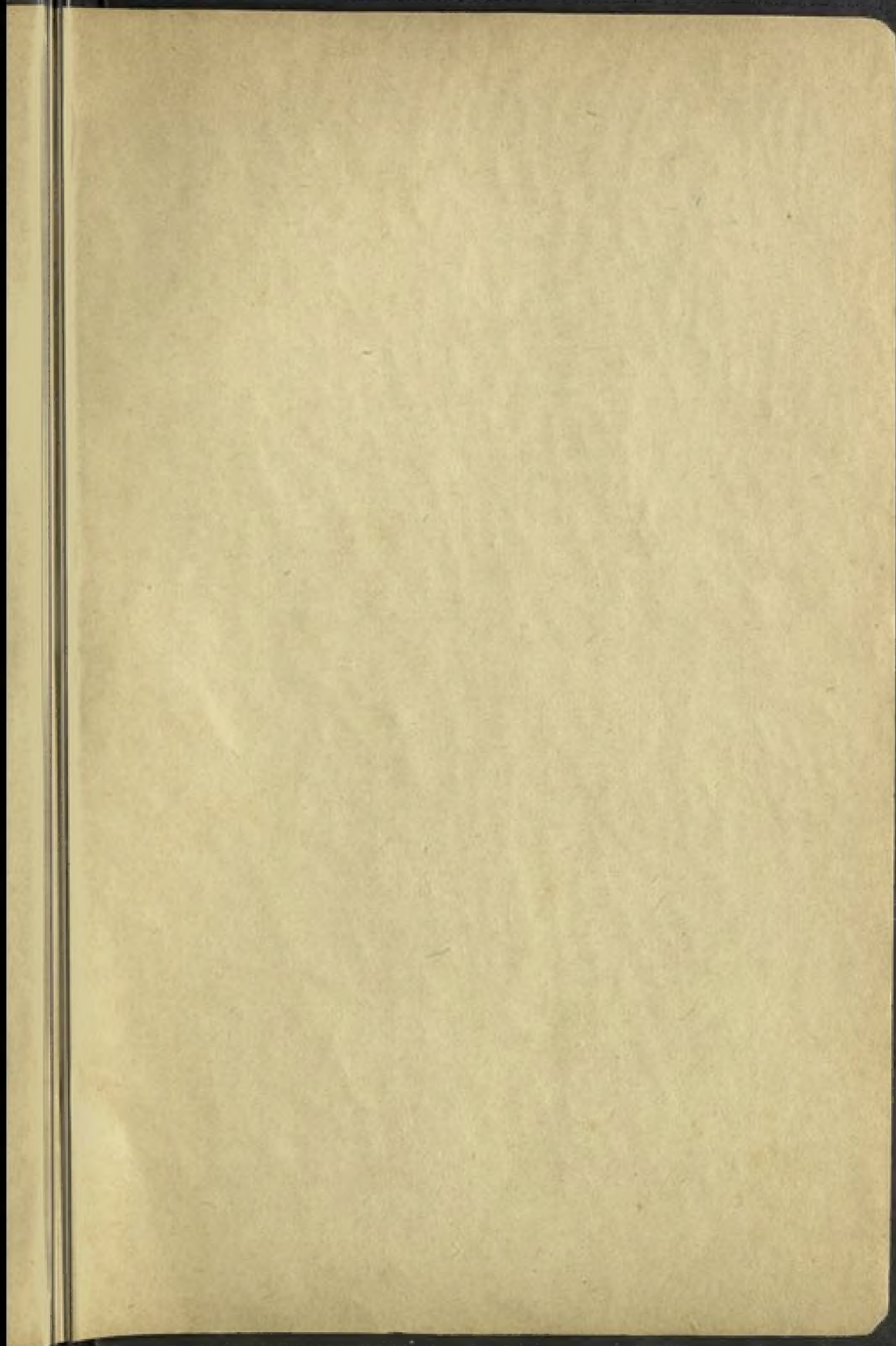
١٩٥٣

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY





يوسف يونس

892.78

Y956mH

مسبحة الرقيق

قصة

١٩٥٣ / ١٢ / ١٥

حقوق الطبع والاقتباس والتشيل محفوظة للمؤلف

لمن اقدم كتابي ؟

الى اليد التي شقت طريق قلبي
الى القلم الذي الحب الوطنية في نفسي
الى النفس التي جوهرت المحبة في قلبي
الى القلب الذي زرع التسامح في روحي
الى الروح التي نورت اتفاق العالم في مسيري
البك وحدك يا روح يوسف اسكندر نصر اقدم كتابي !...

يوسف بونس

الفردوس

أملأت القنينة زيتاً يا حنا ؟

— ملأتها ، وهيات لك الشموع ، ولففت علب الكبريت ،
وتراني مستعداً لكل خدمة في سبيل هذا القديس !..

— عافاك الله يا حنا ! ان شفاعة القديسين تسهل لك طرق
النجاح . كم بلغ الثمن ؟.

— خمسة وسبعين قرشاً .

— فقط ؟! ان بركة القديسين بين يديك !..

— انا اتساهل جداً في طريق البر .



لقد دفع الشاري ، وجمع ما اشترى في «سلة» صغيرة ، وذهب .
اما حنا صاحب الدكان ، فظل واقفاً يراقبه حتى توارى ..

وكان حنا ساخراً ، وسخريه حنا تبدو بليغة في هذه الابتسامة
المنحرفة المرتسمة على فمه . بل تبدو في نظراته الغريبة التي رافق
بها الشاري ، فمن يكون هذا الشاري ؟

لم استغرب حنا ساخرآ، فالشاري غريب الشكل شاذ الطباع،
وغرابته ليست بالفقر البادي على ثيابه، ولا بالبله، الناطق في
اساريه، ولا في نظراته الكثيرة الفضول، الجريئة الانجاء. بل
غرابته بهذه القلادة المدلاة من عنقه حتى وسطه، وقد رصفت رصفاً
بالايقونات والتماثيل الصغيرة التي تمثل القديسين، فمن يكون هذا؟
ومن هو القديس الذي ذكر في الحوار؟.. ولمن الزيت والشموع
والكبيريت؟..

ورأيت نفسي فضولياً خلافاً لعادتي، أسأل صاحب الدكان؟
أر كض وراء الابله الغريب الشكل، الشاذ الطباع؟ ولكن ما
الغرض من هذه «الحشوية» المستهجنة؟ وماذا يهمني من ابله ثرثار؟
ورضيت عن هذه النهاية. وسرت مع الجماهير المحتشدة.

نحن في عام ١٩٣٩.

كان الصباح جميلاً، وساحات «بشري» تغص بالوفود، من
بيروت وطرابلس، ومن انحاء الشمال كلها. ومن يدري؟ فقد
يكون السوري والفلسطيني والعراقي والمصري بين هذه الجماهير،
فالصباح صباح عيد، وصاحب العيد ليس قديساً من قديسي
الكنيسة، ولا شهيداً من شهداء «السنكسار»، وانما هو رجل
من الرجال الذين يقدسون كل مذهب لانهم يقدسون الدين!. بل
اديب عالمي كبير، ترك لبنان غلاماً مجهولاً، وحل في اميركا بلاد
السحر الحلال، فصار ساحراً.

قد يستعبد القاري بالله، وينكر وجود السحر في لبنان بقعة

الايمان الحي ، ولكنني استمبح قارئ عذراً ، واسأله اصغاء ،
لاجل له سحر الرجل الذي يدعى اليوم نبياً ..
ليس السحر يا اخي في ان يتحول التراب ذهباً بين يديك ثم
يعود تراباً ، بل السحر في ان ترى العالم كله في مثل ، وتلمس
غرائب الحياة في رسم .

وليس السحر في ان ترى «طاولة» خشبية تتحرك كأن فيها
حياة ، وانما السحر كل السحر ان تجد حركة النواميس الخفية في
نفسك ، كأنك كل المخلوقات :

اذن فالاول تدجيل العلم على البسطاء ، اما الثاني فوحي الله
على العباقرة الموهوبين ..

وصاحب العيد عبقرى موهوب .

صاحب العيد ساخر الروح والقلب والوجدان .

واني افضل الف مرة ان يدعى ساحراً ، على ان يدعى نبياً ،
وذلك خوفاً من ان يكون من اولئك الذين تحدث عنهم الناصري ،
الذي الهه روح السحر الروحي !..



ان المناسك والصوامع المسيحية في الشرق قماثيل خالدة تعترض
ملتقى الجبل بالجبل ، فتودع الزاهب بعبرة ، وتستقبل الآتي
بعظة ، وتجمع بين العابرين ايمانها البكر الذي كانت يلهب نفوس
ابناء الصوامع ، فتتقد بجمرة الدين !.. وقد نثرت هذه المناسك في
اعماق الاودية ، وفي سفوح الجبال ، وعلى قمم الروابي ، وقلما وجدنا

منسكاً في سهل ، او صومعة في قرية . فكان رجال الزهد
اختاروا الوحدة القصية ليلزموا اليها قيادة نفوسهم فتبلغهم وجه
الحق ، ومن عرف الحق ، رأى الله وجهاً لوجه ..

ومن هذه المناسك دير قديم ، قامت دعائه الطبيعية على رابية
خضراء ، في السفح الشمالي الشرقي المطل على بشري . ولهذا الدير
كهف مستطيل ، نحته الزمن بمرور الاجيال ، فجاء الانسان ونم
ما عجز عنه الزمن ، اذ جعل من الكهف معبداً صغيراً بوحى
الحشوع لانه بعيد عن الزخرف شأن الذين ارادوه مرجعاً لنجوى
نفوسهم ، وهيكلاً لفروضهم الروحية !. ولسر في التاريخ ، تفرق
ساكنو هذا الدير ، وظل هذا المنسك مهجوراً الا من الرهبة
والحشوع المرفرفين في هاتيك الغابة السحرية المحيطة به .

وفي هذا الدير ثمنى جبران ان يقيم لو عاد الى لبنان حياً ، على
ان جبران عاد ميتاً ، فابن يقيم ؟.

« كل ما تشاقه الارواح تبلغه الارواح . »

والروح التي اشتاقت هذا الدير قد بلغت ، وهذا ضريح جبران
يتألق بنحبه المصقول . وبشع ببلوره الصافي . وهذا تابوته الرصاصي
يعرض في هذه الواجهة الواجبة ! وعلى هذه الواجهة وضع مقدسو
جبران شموعهم ، واثاروا سرجههم المتدفقة بالزيت . أياكون جبران
ذلك القديس الذي تحدث عنه صاحب الدكان ؟ أياكون الابله
ناذراً زيته وشمعه لجبران ؟.

وهزرت برأسي متأسفاً ، كأنني لم ارض بأن يكون عبد

جبران العفري ، عيداً وشحه الوهم يوشاح الاساطير ، واخفى
عليه التثبيت الالافى ، جلال القداسة !.

نعم لم ارض . لان الذي تخفل بشري بعبدته هو مصلع انسانى
زرع في العالم نواة المحبة البرية التي لا تسكن في سوى اكواخ
الفقراء ، ولا توافى الا خطوات البائسين !.

انتهت الحلقة الادبية وانفضت الجماهير . وتحدثت الى اصدقائى
عما سمعت وعما رايت . فتأسف الاصدقاء ايضاً على ان تجمع
عبقريه جبران - رسماً وشعراً وفلسفة - في كلمة قدسية ... وكان
بين الذين حدثتهم صديق بشراوى صادق القلب والقشور .
فضحك هذا الصديق وقال : اتبعني ! ومشى امامي . ولما وصلنا
الى دكان حنا سألته : من اشترى منك في هذا الصباح زيتاً وشموعاً
وكبريتاً ؟

فقال : فزحياً .

- فزحياً ؟! ذلك الابله الذي لا يتحدث الا عن الثواب
والعقاب ، وعن القديسين والساك ، والرهبان والكهنة ...
- هو نفسه .

- ولمن اشترى ذلك ؟

- للحبس الذي يسكن الدير الكبير في الوادي .

- الارب وفائيل ؟

- نعم صاحب المعائب والمعجزات . ولكن لماذا تسألني

هكذا ، أفي ذلك غرابة ؟

- لا وانا وجدت على قبر جبران شموعاً وزيئاً ، وهذه
تحدث اوساخاً على الحشب الابهام انصفول .



تركتنا هنا ، وصديقي يربيت . ككتفي قالاً : اطفئ بالاهجيران
ليس هديساً . . ثم سألني اذهب الى الارز ؟
فقلت : لا .

- لماذا لا انك لشرف من قمة الارز على هذه الاعماق الساحرة ،
وملأ صدرك بالنسيم المعطر ، وروحك بالخشوع الدالب عينه بين
اجنحة الارز . .

قلت : بل اريد انك لشرف من هذه الاعماق على الاعالي .
واملاً صدري بمسيلة بليغة ، وروحي بالخشوع الصامت في ظلمات
المناسك والصوامع .
- وابن تجد هذا ؟

- في الوادي ، حيث ارى الاب وفائيل القرد ، عالماً في وحدته !
- لا بأس يا زبارة . انك ستجد نفسك امام شيخ ، خج بخمرة
السنين ، موهج بشعلة الايمان ، محال بالمهاينة والاحترام ! فتقرأ
على اساريره البواعة ، وفي غيبية الاستسلام . ثم اسمع في صوته
اصداً الأبدية الصارخة في نفسه !
- أنعرفه انت ؟

- لقد زوته مراراً ، وفي كل مرة لجد لوناً جديداً في حياته .
فطوداً أراه مكهراً كالخاء يهرب من الزاقرين ، ونارة اراه اشوشاً

يحدث غابر الطريق .

-- أنعلم شيئاً عن أهدافه الخاصة في انغزاله عن الناس ؟

-- لم يحدث معه هذه الناحية ، وإنما عرفت من بعض مجاوريه
الفلاحين ، انه قد بس حقاً ، وان عجائبه تحدث عشرات المرات
في السنة !..

-- لقد ردتني تشويقاً ، فإذا ما ذهبت ، والاصحاب الى الارض
قل لهم اني في الوادي .

-- فضحك صديقي وقال : سنصعد نحن وتبعد انت !
فاجبته : شئت المكفة الرجعة !.. وهكذا اترقب
ضاحكين .

أما قزحيا

من يذهب معي إلى الوادي ؟ لا أدري . وسألت عن قزحيا كثيراً فلم أجده ، وبحثت البحث عن يرافقتي ويدلني على طريق الوادي . وبينما أنا أسأل هذا وذاك ، إذا بقزحيا يصل إلى الساحة والعرق يتصب من وجهه .

وتعالت الأصوات : هذا قزحيا ! أما قزحيا فقد قطبت حاجبيه وسأل أحد الذين ارتفعت أصواتهم : ماذا تريد ؟

فقال الرجل : لا أريد شيئاً يا ابن الوادي ! وضحك هذا ، وضحك كل من في الساحة ، أما أنا فقد اقتربت من قزحيا وسألته بلطف : أتريد أن تدلني على طريق وادي القديسين ؟

فقال : كيفما اتجهت تصل إلى وادي القديسين !

- ولكنني أرغب في زيارة الأب رفائيل !

فغضب قزحيا وقال : الأب رفائيل ؟ الأب رفائيل ؟ .

ولم لا تقول قديس الوادي ! ؟ ألم تعلم أن روح الله في هذا

الواهب ؟ ما أخل البشر ، وما أسهل طريق الكفر ! ..

- أنا لم أكفر يا قزحيا ، وإنما جئت إليك أن تذهب معي

إلى القديس ، لأملاً نفسي إيماناً ... فضحك قزحيا ضحكة يلهو ،

وقال : إذا كانت نفسك فارغة فاحذر أن تقابل القديس ، لأنه لا

يقابل فارغاً النفوس ! ..

— اذن فراعبك لبس قديساً والا لكان يبحث عن النفوس
الفارغة فيملأها ...

فانتفض فزحياً غاضباً ، ومسح وجهه بكفه ، ثم رفع زنده
المرنجف وقال : أنكفر ؟ . أتجحدف ؟ . أنكسر قداسة الراهب
الاهي ؟ ..

وتجمهر الناس على جدالنا . وانطلق فزحياً يعظ في هذه
الجامير والعرق يحرق الاوساخ عن وجهه جرفاً ... ولما انتهت
من عظته قلت له : اذن انا ذاهب وحدي الى الوادي . وسأخبر
القديس عنك فبحرمك من بركته فتموت هالكاً ! ..

ومشيت مسرعاً لا التفث ورائي ، فاذا بفزحياً يتبعني ،
وفلادة الايقونات والتابيل تترجع على صدره كأنها الجلائل .
على اني لم التفث اليه بل ظلمت مسرعاً في مسيري . وما كدت
اخطو بضع عشرة خطوة ، حتى اوقفني برجاء خاص ، وقال
منوسلاً : لا نحرمني بركة القديس ياسيدي . انني خاطيء وخطيئي
عظيمة جداً . فهلا سمحت لي بالذهاب معك ؟ انني استجلفك
بالعدراء القديسة ، والطوباويين والطوباوبات ، بل استجلفك
«تار» سابا هذا القديس العظيم !.

ولما سمعت له بالذهاب معي ، انفرجت ملامحه وبدأ وجهه
الاحمر كمرجة ينعكس عليها هيب المشاعل . ومشى امامي في
الطريق المنحدر . وكان سريعاً في سيره ، اما لسانه فكان اطلق
من قدميه . فهو يتكلم بدوت انقطاع عن التقوى وعن الفضيلة

والندامة الكاملة ، واستحقاق القديسين ، ومجد الشهداء . وروعة
السياء ، الى كل ما في علم الكنيسة من روح وإيمان .. اما انا
فكنت ساكناً تحت العترة في ذلك المنحدر الخفيف ، محدقاً الى
جمال الوادي السحري .

وما كنت نبتعد عن بشري فرسخاً او أقل ، حتى اشرفنا على
الروعة ، على الشعر ، على الرؤيا ! بل اشرفنا على الحلم النهاري ،
هذا الحلم الذي يحول حواس الناظر كلها خيالاً صافياً واضحاً ...
فماذا اري ؟ اعماقاً سحيقة تنكسر اشعة الشمس على فجواتها .
فتولد الواناً رفاضة . ومياهاً رفاضة تتلألأ بين الصخور والاعشاب
كزبد الامواج . واحداً السكينة تتعاني مديراً لطيفاً كالفيضة .
وصخور الجبلين مشرقة على المهاوي من هنا وهناك كأنها رؤوس
جبابرة الاساطير نحرس عتبة الوادي ، وابواب الكهوف ، تطل
فاغرة اشداً فيها كالوقاب المتلحج .

أهذا هو الوادي ؟ والمنحدر أيضاً . فبدت الخصى على جانبي
المسيل بيضاء ملباء ، هذه الخصى التي مساحت برحت منحدر بدماء
الابرياء ، حانة بروائح البخور ، مصغبة الى وقع خطوات النساء .
وانجلي المكان عن قدسية تستولي على النفس ، ورهة تلك
نبضات الفؤاد ، فشعرت بما يشبه الانخطاف ، وخيل الي اني اسمع
خرايب الصوامع تنهس بذل النساء ، وانزواء البطاريخ الحائضين
من المظالم ، افاربين من الاضطهاد . بل خيل الي اني ذو جناحين
خفيفين يحملاني حملاً الى قدس الوادي ..

ولكن من دعا هذا المكان وادياً ؟ ..

من حفره بهذا الاسم ؟

من أطلق عليه هذه اللفظة الحقيقة الجافة ؟

أما كان الأجدر أن يطلق عليه هيكل الأزمنة ؟ !

نعم انه هيكل الأزمنة ! بل هيكل الأجيال الروحية منذ بدء
العالم ! منذ تفجرت السدم الاثرية براكين ، وسالت البراكين
أنهاراً من نار ، وجد السائل ، جبلاً سهولاً وحزناً وعطبات !
في ذلك اليوم ! مر محرات البسمة الغزوم ، وشق وادي
قديشاً عميقاً واسعاً ، لتنبث فيه نفوس الناسك متجوهرة ،
وتتألق بخشوع يزدهري مغربات العالم ، ومجنقراً لألاء الدنيا
الرائية !

وقد انبت النلم البدني ، نفوساً متجوهرة ، لقد انبت الانسان ،
الانسان وحده !

وهل مكان الوجود الا في الانسان ؟ فمن اخفى الروعة على
هذا الوادي ؟

من رسم كهوفه ؟

من جعل مغاوره مناسك وجوامع ؟

من شق هذه الطرقات المنسعبة كالفكار الجاحدين ؟

الانسان ! الانسان ! ..

ومن هو البطريرك الشيد ؟

ومن الناسك المذبح ؟

ومن الراهب الذي مات جوعاً في ظلمة هذا الكهف ؟
الانسان ! الانسان !..

ومن انا ؟ ومن فرحياً وفيقي ؟ ومن الاب رفائيل ؟
الانسان ! الانسان !..

ومن هو الانسان !؟

ووقفت امام هذا السؤال لا اجد جواباً ، وقفت جاعلاً نفسي
من انا ، وكيف وجدت ولم وجدت ؟

أبكون الخشوع الذائب نوراً والرائاً جعل مني غريباً عن
نفسى ، بعيداً عن انماي ، جديداً في تساؤلي ؟..

ورن في اذني صوت فرحياً ، كأنه صياح الديك ينبه هاجع
الصباح . فعدت الى نفسي . عدت كأنني جديد في الحياة ، حديث
في المعرفة ، بعيد عن العالم !..

وعاد فرحياً يناديني وانا ذاهل !

— ما بالك واقفاً يا سيدي ! لقد وصلنا الا بضع عشرة خطوة .
انك تحاول عبثاً ان ترى مغارة القديس . تعال . تقدم . قبل ان
يبدأ بصلاة المساء وعندئذ ينعذر عليك مرآه .

ورددت في نفسي : ه صلاة المساء !

وشعرت بنشوع جديد . شعرت بأني أضو رأسي امام انعام
الصلاة الصارخة . عاتيك الصلاة الشعرية التي اختصرت في رأسي
يعقوب وافرار ، الراهبين القديسين !..

وعبطت مسرعاً ، ولما وصلنا الى الوادي وسمعت لحن
شيء ، صدى ، نبيذ ، وشعرت بان جسدي انفصل عن روحي ،

ونظرت الى الجهات الأربع حينئذ اذ لم يأتني الوحي الخبيث
الساحر ، وزخرقة الدهور المقدسة ، ولما رفعت عيني الى السماء ،
وجدت الوادي مسقوفاً بالامق . بالزرقة الابدية المظلمة .
بهائيك الزرقة الحافظة بين دقاتها ، خجيج العالم وصديقه ،
وصلوات السالك وقدياتهم . . . ووقفت مشدوعاً . مسجوراً ،
ضائعاً . وفنت روحاً وخيالاً ، بل وفنت نبضات سريعة ، وفي
كل لحظة الف سؤال . وفي كل سؤال الف حيرة . وفي كل حيرة
سريعة معلقة على المعروفة الغسارية من الجهل . . . ونكلم قزحياً .
فاحفظ عندما سمعت كلاماً ، لأنني كنت معتقداً اني وحيد
في هيكل الدهور . . .

— من هنا طريق المغارة يا سيدي . يجب ان صعدت لـ
مائة خطوة لا اكثر ولا اقل . حسبها عشرات المرات ، اذا هي
مائة . مائة فقط . .

ومشي قزحياً امامي . على اني استعربت امره لما رأته
بخطوة الخطوة وبعدها ، ولما قل مائة هتف قارحاً : هذا هو
باب الكهف . . .

قال هذا ، ومشى . . . واذا بنا امام غار مستدير الفتحة ،
قليل الاخواء . غيبق ، منسع ، فقات : وابن القديس لا اجاب :
انتظر عنا لأعنه بقدمك ، ما اسمك ؟ . فقات : مؤمن . . .
فحدق الي قزحياً بعينين أحده من عيني الضفر ، وقال : ونحن
في العالم كله من لا يؤمن . . . ثم ضحك ضحكة مباشرة الصوت ،
وغاب في ظلام الكهف . .

وخللت وحدي أبعت نظري حول الكهف : هنا مريحة
صغيرة معشوشبة . وهنا جنيذة أحمر مزروعة بقولاً ، وهنا دالية
معرشة على أطراف الكهف مثقلة بالعناقيد اللبابة ، وهناك عين
نقر من قلب صخري تحارب ، وهناك « خيمة » مكسوة
بالغار والدقلى والداب .. ورجت ادور حول الحية ، ولما وجدت
بابها ، وأيت داخلها شيخاً ثعباناً ، يغط غطيظاً بطيئاً كلبات
الطفل ، فرأته من القش ، ووسادته حجر أملس من حجارة
الوادي . وحدقت الى هذا الشيخ . الى هذا الراهب الحالم
بالابدسية . أليكون هذا هو القديس ؟ ..

كان نائماً على ظهره ويداه المبرقتان تقبضان على كتاب
قديم ، دفناه من الجلد ، الضائع اللون ، لكثرة الاستعمال .
وكان اسكبيه يغطي جبينه كأي فتيدو عباء المغمضتان اغماضة
مطمأنة ، كأنهما أمثلة بكل ما في العالم والطبيعة من مشاهد
ورؤى .. أما حيته البيضاء الكثة ، فكانت ترتعش على صدره ،
تبعاً لتنفسه الهادي ..

ووقفت منهيماً ، وقمت ارقب اسارير وجهه . واقراً فيها
اسرار نفسه ، بل وقفت ادرس هذه الاسارير الناطقة بصمتها ،
المستيقظة بنومها ، الطامحة بانمزاجها وفناعتها . واقتربت من
الراهب محاولاً ايقاظه دون قصد ، ولكنه غارق في احلامه ،
فبأي شيء يحلم بتوى . هل يحلم من يقم في هذا الوادي ؟ ومن
كان الحلم أجمل من هذه الحياة المقنونة بالوحدة ، والجمال والسحر
والخيال ؟ ..

أنحلم هذا الشيخ وقد انقضت الحياة بدها من ميعان جسده ؟
وماذا يرى الشيخ في احلامهم ؟ هل غير الموت جزاء الحياة ؟ .
وكدت انسى اني في خيمة امام قائم ، له حرمة وله هيبة .
وكدت استرسل في صوراني واقف بين الحياة والموت شئت
المشائين . على ان الراهب استيقظ ، كأن ضجة افكاره ملأت
اذنيه ، فوثب وثوباً جعلني افرك عيني لئلا اكون حائماً . ولا
ما هذه الرسافة في هذا الجسد الغزيل ؟ .

ووقف امامي وجهاً لوجه ، ولما التفت عيناه عيني ، قرأت
في حدقبه تاريخ المسيحية منذ بدءها . اما عندما تكلم ، فقد
سمعت في صوته عاصفة من الترابيل ! . .

نعم تكلم ! وباهول ما قال : أقسم عليك باسم ربي ان
تتواري !! .

فاجبته : اتواري ؟ ولماذا ؟

— لعنك شيطان جاء بعدني بالشباب بدل نفسي . أغرب !
دعني ! أنا خاطيء والخطية لها عدواها كالامراض الفتاكة ! .
— ألسن الارب وفائيل ؟ .

— اني وفائيل الضعيف . وفائيل الخارب من الانسان دعني
في وحدتي أثبتك الله الرحمة ! .

— ولكنك يا اوت قديس مشهور ، تجتمع العجائب
والمعجزات امام الخطاة فيرعوون عن غيهم . وأنا منهم ، من
اولئك الجائعين الى الزعر . الى المذات . فهل تسبح نفسي بقداستك
لتجوع الى المعرفة والحق ؟ .

- اني اقسم عليك باسم ربي من تكون ؟
 - رجلاً ملّ ضجيج المجتمع فجاء يتزوّد من هذه السكبنة
 المقدسة ! ضائعاً في ظلام العالم جاء يستنير بأشعة عينك !
 - ان من يتوكّس على الله يستنير بالنعمة التي ابهاه
 ضال لم يحسد نفسه بعد . أندري من أنا ؟
 - انك لرجل الله . ورجال الله يظنون مجهولين حتى يعملوا
 الى الله . . .
 - تتكلم مؤمناً ، وتنتظر محسباً ، فهلا اريتني نفسك طفلاً
 يطلب ارشاداً ؟ . . .
 - الطفولة با ايت تنوارى بالشباب ، وتفتخر بالشيوخوخة ،
 فلا تطلب مني خلق انسان ، لاني لست إلهاً .
 - انك لست إلهاً ، ولكن الاله مستقر في نفس كل انسان
 فهلا زجرت الانسان انساني عليك لا ابعث فيه كلام الله ؟
 - أستطيع الانسان ان يزجر من نفسه الانسان ؟
 - انه يستطيع !
 وكيف ؟
 - بان لا يغير بالخير الانسان ! وما انت إلا ساخر الآن ،
 تتكلم مؤمناً وتنتظر محسباً . . .
 - ايت ؟ ! اني لست كما تظن . انا فادم الآن من بشري
 لاراك خاصة ، واسمع صوتك ، واحمل حكمتك زاداً لمعادي !
 - من بشري ؟ أو كنت في حلقه الرجل الذي كان يبحث
 عن الحق ؟

- نعم كنت في العبد السنوي الذي تقيمه بشري لك هو
الكبير ! ..

- الكافر الكبير ؟ ..

قال هذا واتسم ابنة وادعة انتشرت على بحيد وتابع :
والكن كثيراً ما يكون الكافر الكبير قديساً صغيراً . انالم
أعني كافر ك ، وانما اطلقها كلمة عامة . كلمة شاملة . كلمة ينسوي
عندها من جعلهم الناس كفرة لانهم مجهولون ، من الناس .

وقبل ان أسأله تفسيراً لنظريته ، وحل قزحيا ، وانحنى على
يد الراهب ليقبلها فسحب الراهب يده وتراجع مذعوراً ، كأنه
يخاف ان يضع يده في كنف انسان ..

اما قزحيا فقد انتصب خبطاً وقال : كنت في المغارة البحث
عذك يا ابانا .

- لم تبعت عني ؟

لأن هذا الرجل جاء يتبرك بمرآك ! ..

فقال الراهب : أتعرف هذا الرجل قبل اليوم ؟

- لا يا ابانا ..

فنظر الراهب الى قزحيا نظرة تأنيب وقال : بعد اليوم لا

تردني إلا مرة في الاسبوع . أسمع ؟

فخجل قزحيا وذهب باكياً منتحباً لا يلتفت الى ورائه ..

اما الراهب فكان يرافقه ابنة شاملة مثقلة انارت حينه البيضاء

وانطفأت بين شعورها المشابكة . . . ولما اختفى قزحيا . قال

الراهب :

ان قزحيا مسا برح طفلاً . وما اكثر الاخطار التي نحقق
بالاطفال .

قلت : ولكنه شديد الايمان .

فاجاب : ادعو الاسلام ايماناً ؟ ان قزحيا مستسلم للمؤمنين
أما الله مؤمن قلاً . لا انا الايمان لا يكون بدون فكر .
والفكر لا يكون بدون عقل . وماذا نطلب من رجل كقزحيا
اكثر من الاسلام ؟ ..

ورأيت الراهب ميلاً الى التخليل ، فشئت ان اعود الى
شخصه ، فسألته : كم لك هنا في هذا الوادي يا أبت ؟ ..

- مذ رأيتني !

- مذ رأيتك ؟ وابن كنت قبل الآن ؟

- في صلافي !

- وابن كنت تعالي ؟

- في نفسي !

- وابن نفسك ؟

- في جسدي !

- وابن جسديك ؟

- لا ادري ! ..

وبدا لي هذا الراهب يعتمد الى الابهام ، وهو المختصر بالحكمة ،
فهل تبدلت اطوارهم ؟ وتذكرت ما قاله لي صديقي البشراوي ،
على انني سررت بكونه مبهماً . وسرني ان يحدثني بهذه المعينات
التي تنزل منها صراحة قلبه . بل سرني ان يتنطع في هذا الموقف

والا ما جئت الا لاسهر غور نفسه ألم يقل الناس انه قدس ؟

فقلت : اخذت جسديك ، ولماذا ؟

فقال : اخذت جسدي لاجد نفسي ، اخذت جسدي لاجسد

ربي . ومن لا يضيع جسده في العالم ، لن يعرف شيئا عن العالم !

اذن ما شأن الذين يمشون بجسادهم اهتمامهم بأغلى مما في

العالم . انهم يمشون نفوسهم ؟ أينفقدون ربيهم ؟

الامر بخسارة الحياة ، والحياة وحدها تفرق ربيع العالم عن

خيارته . لقد قلت لك منذ عشرين سنة انك لن تكلم مؤمرا ، وتظهر

شعيرا ، فهلا تركت عزائي لعزائي ؟ . .

- لن تركك قبل ان ابدأ نفسي من حكمتك . .

- ليس لي حكمة خاصة ، ان شأني شأن الناس !

لم تركت الدبر اذن ؟ لم احييت هذا الكهف المظلم العفن

ما صنعت مثل الناس ؟ اما كان الاتقع للجمع ان تكون

معلم تلقى عظامك على الشعوب شأن المصاحبي ؟ .

- هذا شأنى يا هذا ! هذا شأنى .

- ان شأنك شأن الجميع على الاطلاق . أينسطيع الانسان

ان يقطع جذور حياته من حياة اخيه ؟ أوجد الانسان ليترأى

في الكهف بينا الانسان نفسه جاد في بناء المجتمع ؟ أينفق هذا

والغاية المنوية من وجود الانسان ؟

- ان ما يبيته الانسان في جيب ، يدمه الانسان في لحظة ! . .

- أليس القدم والبناء برهان على وجود الانسان ؟

- ما كان الوجود ليحتاج الى برهان . .

أليس يحتاج الوجود إذن ؟ إلى الغزوة ؟ إلى السلك ؟
فإذا كان السلك غاية الأيمان فكيف بوجوده ؟ وعيبه أنت ؟
رجال العالم أرادوا السلك ، فمن يبقى للعمل ؟ من يبقى للعمران ؟
من يبقى للعلم ؟ من يبقى للتأمل .

أنا لم ادع العالم للسلك ، وإنما سألت العالم ان لا يدعوني اليه .
ان لكل قاعدة شواذ كما يقال ، فلم لا نجسسون السالك شواذات
العالم ؟ أيقدر العالم على حصبه الى رجل مثلي ؟ ومن لا ؟ وما هو
شأني . لقد زلوني كثيرون قبلك . واظهروا من الايمان والتقوى
اختلاف ما أنت مظهر ، ومع ذلك فلم أجدهم سوى طفايع طافية
على شطآن الحياة تطفئهم الطيف النحات ، وتكونهم أرق الموجات .
فهم ضائعون جاعلون لا يعرفون من أمورهم إلا ان يأكلوا
ويشربوا ويأمنوا ، ثم يموتوا . حيوانية شرهة هذه الصفات ، بل
غباوة عمياء تحسب حديث النور خرافة ، ووصف جمال الطبيعة
استطورة .

وإذا يا أبت ، ماذا وجدت في ؟ افقاعة طافية معرضة للانطفاء
أم انساناً يحس ويشعر ويدرك ؟ . أرجلاً في كلامه الايمان وفي
نظرانه الاختبار ، أم زائراً يغذي نفسه بتقواك وبسالك عظمة
حكيمه ؟ ..

- عظة ؟ لو انني استطيع لقاء العظاات لما تركت العالم ! .
بل لما تركت الدير ! ..

- لماذا تضرع العالم والدير في مستوى واحد ؟ أليسهما نقيضين ؟
- نقيضين ؟ .. ! قال هذا وسبحت عيناه في الآفاق كأنهما

تستلهمان الزرقعة الصافية سلاماً . ثم اودف : لا ليس العالم والدير
نقيضين ، وانما حبيبتان وقت يدهما الذر رفياً ..

— اريد اجني ان يرضح ؟ ..

— انجهل ما اقصد يا اخي ؟ .

قال اخي ، بركة واستسلام ما عهدتها فيه قبلي . هبل وثق
بصدفي ؟ هل اعتقد شرف مقصدي ؟ فقلت : نعم انني اجهل
هاساك ايضاحاً ..

فجدق اخي طويلاً ، وانفجرت شفتاه عن ابتسامة ظاهرة
وقال : اجلس . اجلس هنا على القش . على حرير الطبيعة .
على عياكل الاشجار والاعشاب ! فجلست . وجلس فرني .
ووضع كتابه في حضنه بعث باورافه ويشكلم . قال :

— لا بالخالك تجهل ان ابناء العالم يحنون في اعماقهم الى حياة
الدير ، موهمين ان في حجراته طريق السماء . ولو عرفوا ان
ابناء الدير يتوقفون الى العالم معتقدين ان في رحابه عذوبة الحياة ،
لوقفوا مضامين لماذا ؟ اما انا فاني اقول للعالم والاديرة ، ان
السماء ليست في حجرات الدير ، وعذوبة الحياة ليست في العالم ،
ما دامت النفس تتوكل على عصاوين احدهما اطول من الثانية .
فالسماء في النفس وعذوبة الحياة في القلب . وهنبشاً لمن افترت
نفسه بقلبه بجمارة الايمان . .

فالدير يا اخي قفص الجسد ، ولكنه مسرح الروح . ومن لا
يسجن جسده لن يستطيع ان يطلق روحه . والدير ليس ديراً مني

كانت الغاية من جذرائه الخلال ، ومن مآكمه المنة . ومن السرته
منعة الاحلام ..

لقد كنت في الدير يوم كنت اري في كل راعب اطلونيوس
الكبير ، ونعاليه . فاري اوجس من وآشعيا ويعقوب واهرام
وشربل وغيرهم من الذين احبوا في الوحدة فقرها ، وفي الدير
النذر ، وفي الراحب تقشفه ! . اما اليوم ، هان الراحب الفقير ؟
وابن النذر الصحيح ؟ اني منذ نصف قرن لم اجد راحباً نذر
الفقر الا ليكون غنياً ! ..

فلت دعماً : الرعبان اغنياء ؟ ..

فاجاب وفي صوته رنة التيهكم : ما الغنى في معرفتكم معشر
خلقي الاجساد ؟ الذهب ؟ فالغنى ليس دعماً ، وانما الاستمتاع
بالذهب ! وما اكثر الذين ضاقت حناياهم بالذهب ، واجسادهم
عارية ، وبطونهم طاوية ! . وهل كان الغنى الا في انت لك
جسدك بالخير والصوف ، وتاكل شهي الماء كل . وتشرب
عذب الاثربة ، وتنام في سرير وليد ؟ ..

لقد كان معنى الفقر في النذر الرعباني امانة الجسد لاجياء
النفس ، فان هذه النذور ؟ .. وابن من يبيت جسده ! وابن الفقر ؟
وابن النسك والاعتزال ؟

انكون الامانة في اكل اللحوم ؟

ايكون الفقر في ارتداء الصوف والخير والاحذية الماعية ؟
اتحبا النفس في شرب الخمر ؟

أفنى الأفكار الداسة في سرير وثير ؟ ..

أيتقى النك والقصور الشاهقة المحاطة بجدران الأزهار ؟

المرحرفة بفسقيات المياه ؟

أعذا هو الراهب ؟ أعذا هو الناسك ؟ ، أعذه هي القدوة التي

أورثها أنطونيوس لرهبانه ؟

فإن الروعة في الأديرة ؟ وإن الخشوع ؟ أي الاطناف

المنحوتة ؟ . أي الغرف الموشاة ؟ أي الممرات المصفولة الاعمى ؟ .

قال هذا وغطى وجهه بيديه كأنه خجل مما عرض أمامي من

المشاهد التي لا ثروة ولما رفع يده رأيت دمة حائرة تفرق

من مقبسه . وتتفاعل في شعوره البيضاء . . ثم عقب ذلك فترة

صمت كان خرب العين مشدأ خلفاً .

فقلت : لقد اجهدت نفسك كثيراً يا ابت . وما هذا الاجهاد

إلا غيب القوى والفضيلة المضطرم في نفسك . على ان ما رويت

لم يكن بالأمر المتكر مسادام الراهب انساناً . وهل يمكن

الراهب ان يكون غير انسان ؟ أينجرد الراهب من ميوله ودمنا

دمه وميولنا ميوله ، وشعورنا شعوره ، وما ينعكس في

نظرننا ينعكس في نظره ؟

فقال : من دعاه لينجرد ؟ من دفع بينه لينذر ؟ أما كانت

خيراً عندما وقف امام مذبح الرب يعلن انه امام الرب ؟

من دعاه ليقتدي بالنساك ثم يندم ؟ من قال له انت يلبس

المسوح ثم ينزعها ليلبس الحرير ؟

من وحب له اكل البقول ليدوسها ويمسح بها بالبحوم ؟ .
أم الخور ؟ أم القصور ؟ أم الخدائق ؟ كل ذلك رغاء ! كل
ذلك غرور ! بل زوغان يحاسب عليه ، ومخالفة امام الله يدان
لأجلها . . .

وماذا تريد ان يعمل الرهبان وقد تطور العصر . ومتى
الابان في نفوس الناس ؟ أليس لكل زمان ربي ؟
ومن حمار الرهبان غواني شياناً وشوقهم الازياء ونخل
الباهيم الدنيويات ؟ .

وماذا تريد ان يعمل أبناء الاديرة ؟ أيستجدون وارزاق
الاديرة طافحة بالخيرات ؟ أيجوعون ويحازنهم ملأى بالماكل ؟
أليس من الحكمة ان نكرم الجسد ليكون عبيداً لا لثأ
بالنفس ؟

- لقد وضعت النفس في تراب لتظل احى من عيكم أوهى
لعباد الله ، ان يعدلوا صنع الله ؟
وماذا تفضل ان يفعلوا ، أيقفلون اديرتهم ويسكنون
مشلك في المغاور والكهوف ؟

- أنا افضل ان يحولوا هذه الاديرة مدارس للاطفال وملاجئ
للمعجزة . ثم ينبت العالمون من الرهبان بين الناس يعظون
ويعلمون ، نحن في زمن فتحت فيه النفوس على المعرفة . وجاءت
القلوب الى تذوق العلم . وما الغاية الاخيرة من هذه الاديرة اذا
كانت لا تفيد البلاد من خيراتها .

- وما دمت ذا رأي سديد هكذا فلم لا تعلن افكارك في

الآخرة نفسها ، وتكون مثلاً لربعان !

... ان ...

- ومن سواك اذن ؟ لقد قلت في منسك عبيبة ، والعمر فخره

الحياة ، فلم لا تتأجر بهذه الحياة فتكون في العالم مثلاً ؟

فضعك ضحكة مقهقة وقال : من تريد ان اكون في العالم ؟

زعيماً يعني بحده يخفض الآخرين ؟ حاكماً يحول القانون يداً خفية

لسلب الصغفاء ؟ محامياً يسمعك الترتة حقاً ويربك الحق جريئة ؟

ثانياً يبيع امته وبلاده بقبضة من الذهب - كاهناً يسطر عن نفسه

باسم المسيح ؟ اماماً يتكلم عن الحق باسم محمد ... فمن تريد ان

اكون من هؤلاء ، وابن تريد ان اكون ؟

- ومنى كان العالم يقوم على هؤلاء ؟

- على من يقوم العالم اذن ؟ ... على التناجر الذي يسخر الله

لاقسامه ؟ على الماراي الذي يسلخ الدرهم سلخاً من قلب الفقير

والاحتاج ؟ على صاحب القينة الذي يزين الله بالكذب والهاوئة ...

على الاتكالي الذي يقيس خطوات المجاهدين باهداب عبيبه ؟

- ومن تراه في العالم صالحاً اذا كان هؤلاء كلهم كما وصفتهم ؟

وما العالم ؟

- العالم هاوية سحيقة مظلمة ، تعيب في انفاقها كل من نورها

في غرور العالم ؟ . العالم مريض ! العالم انويء ! العالم جالس لا

يشبع . والويل للضعيف في العالم !

- ومن الضعيف !

- العامل والفلاح ! هما الضعيفان في نظر الجائعين ، اما في

نظري . فهما سيذا الارض وسيذا الارض . سيذا العالم ! ..
- سيذا العالم ؟ أليست السيادة في العالم هي التي يلبث
العالم ؟

- اقول سيذا العالم وان اندم ! فمن اخرج الذهب من قلب
الارض ؟ ومن اذاب الحديد ؟ ومن صنع الفحم ؟ ومن استغيت
الارض الغذاء ؟ ومن حاك الالبسة ؟ انبطلون بالسيادة على هذين
الكاشفين المخلصين ؟ وما السيادة ؟ . أ ان تكون شديداً خالياً من
الشفقة ؟ أ ان تكون اقلية بعيداً عن الانسانية ؟ أ ان تكون ذا
رجال ونعمت رجالك يعيشون الفساد بين القانعين ؟ لا هذه ليست
سيادة وانما هو تحجر !

- اذن انت زعم يا ايت ، وتفمنك هي التي جعلت منك
معتزلاً ، فاسكناً ، وحيداً في هذا الكهف . وهذا الذي يجعلني
ان انأسف لديك قائلاً لبتك عامل لبتك فلاح . بل لبتك خطيب
يقف في سوارع المدن وفي ازقة القرى فيري الناس ما هم عنه
منعامون ويسمعهم ما لا طاقة لاذاتهم ان استوعب ! ..
قلت هذا ونظرت اليه متفحفاً ، فاذا به يقف بحقة الشباب
ويتجه نحو الكهف قائلاً :

القد جان وقت الصلاة ، ولم يبق سوى ساعة للغروب فالاجدر
بك ان تعود ، ولا تنسى ان تروني متى سيجت لك الفرصة ..
فانظرت الى ساعتى فوجدته مصيباً . انه لم يسبق سوى ساعة
للمغرب فكيف عرف ولا ساعة لديه ؟
وسألته : اديك ساعة ؟

فأبستم وقال : ان لدي ساعة الاقنى . تلك الساعة التي
تدبرنا ! .

- أتعني الشمس ؟

- وهل هناك اثبت منها مثمناً للوقت ؟

- وكيف تعرف اوقاتك من الشمس ؟

- هذا بحث يحتاج الى وقت طويل على كل حال ان ظن

الجيل اننا على باب كهفي . وهذا وقت خلاقي . ايمباركك

الرب ان كنت مؤمناً . وليلهمك انه ان كنت ملحدآ ! ..

قال هذا ودعب ..

عظام امرأة

كان يسير وعيناهي عالقتان في اعتراف جسده الانسان هذا ،
ام روح البسبا ونهي هيويل الانسان . . .
ونلاري عني في الكهف . شعرت بالوحدة الفضية التي توشي
الوادي بغرايتها . فصررت اسبح في ضريح العيين بكاء نفسي . وفي
عينة السيم زفير فؤادي ، واستولت علي كآبة لمحة حولتي الي
شخصية جديدة ، فاحسنت الفلك . وتنبت لو استطيع البقاء مع
الاب رفاثيل !

ثم شعرت برغبة ملحة في ان اتبعه . فدخلت الكهف ، ولم
كان استغرابي جديداً عندما رأيت دوا ، ابر حمراته وممراته
ودها ليزه ، ومنعطفاته ، والولا الظلام المسيطر على الدور في
اعرافه ، اظننته بناء جديداً .

على انه لم يخفى من الدور هناك لغرات في جوانبه يدفق منها
النور دفق الامل على القلب المشرق على اليأس . بدأت هذا
النور الضئيل ليس كلها خربة العين .

لقد مشيت في هذه الدعايز كالضائع في مهمة . فاذا في امام
حجرة ينفتح بابها قليلا ويبدو من خلال الفتحة عظام نعال مسن
الحجر عتيقن الفرفة وعثلات . كانت الحجرة منورة قليلا .

والكنها لم تحنو على أي شيء من الآلات ، ووقفت أمام التمثال
المحطم ، فإذا به تمثال امرأة . وهذه قطعة من زبد ، واضبع من
كف ، وشاحية من صدغ . ورشح من قدم . فما شئت هذا
التمثال ؟ . ولم يحطم ؟ . . . أليكون تمثال إلهة من آلهة الأساطير ؟
وادرت نظري كافي اطلب جواباً من الزوايا العارية ، وإذا
بنظري يقع على الآت للثعب . مطرقة من حديد ، وإزاعيل
ومبارد ، ومثاقب ، ومناشير ، وبيكار ، وزاوية ، وكل ما يلزم
هذه المهنة الفنية الجليلة .

وعدت إلى التمثال أسأل وأجيب أمام حطامه ، ولم أجِد
جواباً . ثم خرجت ودخلت حجرة ثانية فثالثة ، وفي الرابعة رأيت
كومة من القش مهددة للنوم . ووسادة من جذوع الأشجار ،
وغطاء من الشعر ، أهذا مهد الرابع ؟ واقتربت لتفحص المهد ،
فوجدت سبعة مدلاحيث يضع الرابع رأسه ، على أن السبعة كانت
غريبة الشكل ، مذهشة الصنع ! إذ رأيت جانبها الكبيرة الكروية ،
مصنوعة من حتى الوادي . أما سلاسلها ، فكانت خيوطاً من
الشعر معقدة تعقيداً ، يوم أنها من زرد الحديد ! . .

ومددت يدي إلى هذه السبعة الأسمها وأروز أفلها ، فشعرت
بقشعريرة في يدي كأن سلكاً من الكهرباء صعقتني ! لماذا ؟ لم أدر
لماذا ، وأنا أجفلت عنها متهيبة ، ونبضات قلبي تتسارع كأنني
خائف . .

ثم رأيت كتاباً مطروحاً على حافة المهد . كتاباً قديماً ، كل

مظاهره تدعو للبحث فيه . وعلى غير انتباه مني مددت يدي اليه ،
وفتحته فاذا به « كرسوفي » اي سرهاني الحروف ، عربي اللفظ ،
وقرات في الصفحة المبسطة امام عيني ..

« ولما غلبني العالم تركت العالم ! »

« انا العالم كله في السكان العجيب الغامض . »

« في السكان المتلون المتحول ، الضاحك من البكاء ، الباكي
من الضحك »

« في هذا السكان المدهود بذوب النفوس . السائر على خفتان
القلوب ، الجاثم في منافذ الاحداق ! »

« يا للعالم ! ايها المجرم الذي لا نبض في قلبه . ولا خطيئة في
نفسه ! »

« ايها السكان الضعيف المسيطر على قوى البشر ! »

« يا وميض الشكوك ! يا غافل الامل . يا ذابح الشباب ! »
هذا ما قرأت .

وفي هذا غرابة اوقفني مشدوهاً خائفاً غريباً عن نفسي وعن
المكان ؟ فمن هو السكان العجيب الغامض ؟ من هو السائر على
خفتان القلوب ؟ وقبل ان اسمع جواباً في اعماقي ، سمعت حركة
ورائي فندعرت ووقفت خائفاً ظاناً ان الراحب فاجأني مستيحياً
قدسياته . على ان خوفي تبدد لما رايت فاراً كبيراً ينب في
الحجرة ، ويتغلغل في كومة القش الممهدة فرائشاً الاب رغائيل ..
ولما اطأنت نفسي الى خلوتي ، عدت الى الكتاب اعلي انعرف الى

« السكائن المتلون المتحول » وفراث في حفرة اخرى ! ..

« ايه ثعبان فرعون ! .. »

« اينها الضالة المضللة »

« اينها الافعى التي تنفث السم في الحناجر لتضع فيها انشاد الحطيطه »

« ان نشيداً هاته السم ، لوباء يعذب الاحياء باللذة ، ويطيبل الحياة بالالم ، ويوزع الامل للبكاء ! »

« ايه ثعبان فرعون ! من علمك قيادة القلوب ؟ ومن وضع في لغرك شصاً لاصطياد المتكبرين ؟ . ومن اطبق كفك على صولجان العالم ؟ »

« تكلمي ! انني افهم لغة الصمت . ولو كنت إلهاً ، لايت ان اخضع فيك روحاً . . . تكلمي ! ما بالك تسخرين في بدون فقهه ؟ . »
« إذن ظلي هكذا : ساكنة كالمذلة . باردة كالعدم ، منتصبه كالتجربة »

« عبثاً تحاولين اغرائي ! »

« ان حرارة الحياة لن تصل بك ، لان لا طريق للفراغ في احشائك »

« سنظاين هكذا الى الابد ! لانني است إلهاً لأوقد فيك الشوق المحرق ، وافهوى المذنب »

« تكلمي يا وحي وحدني ! ان في سكونك ضجة تملأ حياتي حيرة ونسباً . »

« تكلمي ! تكلمي ! والا متى كان الرجل منكماً والمرأة مصغية اليه ؟ أو عيني الثرثرة لتصمني ؟ . »

« خلي ساكنة لللا العنك ! واطردك باسم يسوع ربي ! »
 « إني أرى افتراة بعيدة تكاد تشرق بين شفتيك ، أوامه ان ! »
 « أكون الفن لها ينطق الحجارة ! »
 « ان لم أجبتك من تراب ، وانما فددتك من حذر لمصكون
 جسدك وقلبك منساويين ! »
 انتهت الصفحة ، ولكن قلبي ظل عالقا بنجواه . وسكنت
 أفرا صفحة ثانية ، فثالثة حتى النهائية ، لو لم أختل انت بدركي
 الرابع وانا مكب على كتابه « عابثا بتدسياته . فاطبقت الكتاب
 وقرأت على صفحته الاولى :

اعترافي

« بقلم الفقير الى رحمة ربه الاب طوبيا »
 وسألت نفسي ، الاب طوبيا ؟ فما شأن المرأة في كتابه ؟ على
 اني استدللت من النجوى ان المرأة التي ينادي هذا الاب ، انما
 هي نثال . فهل يكون هذا النثال ذلك الذي وجدته محطما في
 الحجرة الاولى ؟ ..
 رعب ان النجوى لذلك النثال ، فما شأن المرأة في كتاب
 ناسك قديس ؟ التجربة هذه مسجلة على ابهاء الكهوف ؟ لقد شعرت
 بموقف جديد تجاه هذا الكتاب ، انني جئت لالتحدث الى الاب
 رفايل فاذا بي امام الاب طوبيا ، فمن هو الاب طوبيا ؟ أكون
 الاسمان ، اشخص واحد ؟
 وخرجت من الحجرة وقلبي يخفق خفقان الشوق الى هذا

الكتاب . فكيف استطيع ان اقرأه ؟ اطلبه من الاب رفاً
عند عودته ؟ وماذا يكون موقفى لديه عندما يسألني عن معرفتي
بالكتاب ؟ .. أأسرقه وأذهب به حتى اذا ما انتهيت منه اعيدته ؟
والكن كيف اعيدته واخسر ثقة هذا الراهب المرتاب في ؟ الم
يقول لي : انك تتكلم مؤمناً ، وتتنظر مخبراً ؟ ثم اليس السرقه
تبعناها البعيد تحويل صوت الضمير الى هاوية المطامع ؟ ..

وعلى غير انتباه مني ، رأيت نفسي هائلاً في اعماق الكهف
مستعيناً بذلك النور الضئيل المنبعث من الثغرات الخارجية ، وفي
منتهى هذه الاعماق المظلمة ، العابقة بمفومة الارض ، ووراء
منعطف لا يصل اليه نور ، وفي دهليز ينحدر عن مستوى الكهف
بعدة دركات ، رأيت الراهب راكعاً مصلياً ، ورأسه على صدره
دون حراك . وامامه مذبح مبني بالصخور الطبيعية ، وعلى المذبح
صليب من عيدان الخفل ، مربوطاً فوق عود وركيز بين
حجرين من حجارة الوادي ، وقد انبرت عدة سرج على المذبح ،
امام الصليب فانتشرت اشعة السرج تحاول اختراق الظلام ،
ووقف الظلام غشاً كثيفاً لا يدرك ولا ينقشع ، ..

امام هذا المشهد الروحي ، وقفت صامتاً خاشعاً
كان الراهب جامداً كالصم ، مسلماً كاليت ، مخوراً كالشمعة
امام اللهب !

ووقفت ارقبه . مصغياً ، وارقبه خاشعاً . وارقبه منسحق
القلب ذائب الروح .. بل وقفت وراء جدار مظلم ألا يراني .

وبعد بضع دقائق تحرك كميث عادت اليه الحياة ، ثم وقف يبطء
وانحنى على حافة المذبح فقبلها ، ثم فتح كتاباً سريانياً وانشد
موشحاً للقديس يعقوب :

« لا تنظر الى العلاء لئلا تكون وقيماً ! »

« أطرق باكياً ليرتفع نسيج الكتابة في صوتك »

« غط وجهك خجلاً واكتف يديك ذليلاً ، ليصكون صوت
الالم في صراخك »

« صل ! ولكن لا ترفع صوتك عندما تطلب ، لان صلاة
الحاطي تحقت صوت الاستغفار »

« الانسحاق صدى البكاء العميق . ونعمة الالم التي نستعمل
المراحم الى الرضوان »

وبعد ان اتم نشيده ، انحنى واتجه مطرقاً نحو امامي الا فقد
اسرعت جداً ألا يراني . وجلست خارجاً قرب باب الكهف .
ولما خرج ورآني ، تبسم وقال : أباق هنا حتى الآن ؟ .
قلت : نعم ..

— ان الشمس أوشكت ان تتوارى وراء دورة الارض فلم
لا نذهب قبل ان يدركك الظلام ؟

— ان من يستنير بشمس الايمان لا يخشى ظلام الليل ..
— وبعد ذلك ماذا تريد ؟

— اريد حكمة انقلها من هذا الوادي فاوشي بها السهل . اريد
ان تقومني ما الغيبة من النسيك ؟ ما جوهر قتل النفس لا ما الفائدة

من ان يلجم الانسان في صدره كل مبل ، وكل عطف ، وكل شعور . ليستحيل هيكلاً عظيماً ؟ فان كانت السماء لا تعطى إلا لاهل المغاور والكهوف ، فما فضل الوالدين اذن ؟ وان كان قتل الغرائز الطبيعية فضيلة فليم وجدت هذه الغرائز ؟ أنا اؤمن بانك قدس ، ولكني لا اؤمن بانك وضعت في كفة ميزان الحياة قيراطاً واحداً لأفاداة المجتمع ، والاثمان لم يوجد لنفسه فقط . وانما وجد ليكون عضواً في الانسانية . ليكون آية محركة ، او محرك . ليكون معطياً وآخذاً . ليكون دافعاً وجاذباً . وهذا انت ايها القديس لم تشترك في جهاد العالم . فثانك شأن البخيل الذي يجمع المال للدفن فمن يستفيد من هذا المال ؟ ..

فنظر اليّ نظرة نافذة وابتم ، ثم قطب جبينه متبرهاً وقال : ماذا تريد ان اقول ؟ لقد علمتني الوحدة ان اقول : لا اعرف شيئاً . - ولكنك غاص بالمعرفة يا ابر . انك كالتسقيم الذي يلا الى فوق . فاذا ما شئت افراغه ، ظهر لك السائل جماداً .. - وماذا تعني بالسائل ؟

- المعرفة يا ابر المعرفة . هذه الاشعة التي ترسل دوائرها علماً وعظماً . هذا البنيوع الذي يتدفق ارشاداً وهدى ! ..

- اني لا خشاك يا هذا ! لقد باحتت كثيرين - وارك . وجادلني كثيرون غيرك . ولكني لم أجد احداً جاء ليفجر نفسي ويفرغها ، ويفتح اليّ فيدرك اسرارها !

لقد اعتزلت لأبقي ما في صدري لصدري ، فإذا بك تهاجني
عنوة كأنك لا تريد أن أظلم بعيداً عن الناس فمن نكون ؟ لقد
امسيت أخشى أن نكون فكراً متجسداً جاء يجرب نفسي ويذو
في فناعتها بذور العالم الطموح فيميتها ! ..

- ولكنني لم اطلب منك سرّاً حرم على الناسك التصريح به .
وعهدي بك قديماً . والتديسون لا يضنون بجواهر نفوسهم على
المؤمنين !

- أمؤمن أنت ؟ وما مقدار إيمانك ؟ أتستطيع أن تنقل
هذا الجبل ؟

قال هذا ومشى بضع خطوات ، فاحتقن وجهه بالدم
واستدارت عيناه نحوى باستخفاف ، وبإشارة خاضعة أو ما إلى
بالانصراف قائلاً :

إن في الأديرة رهباناً كثيرين ، وكلهم متفرغ للبحث متأهب
للجدال ، مستعد لأعطاء المعرفة ...

إن رهبان الأديرة غير رهبان الصوامع . إن في مكانهم
أدراجاً للفلسفة ، وكتباً للجدل . فاذهب اليهم تجد ما تود . قال
هذا ، واتجه نحو الحيمة .

كانت الشمس وشبكة الغروب . وكانت أشعتها الصفراء
مشرقة على قمة الجبل فقط ، أما الوادي فقد بدت الأقياء تسقط
على أعماقه ، إذ نصب ذلك السيلال الذي كان يندفق بين القجوتين ،

ونوارت تلك الاسلاك التي كانت تنساب من خلال الاغصان
وترسم لكل شيء ظلاً على الارض . وهكذا امسى كل مسافر في
الوادي دون ظلال ! ..

اما الراهب ، فكان الوحيد الذي يرسم جسده ظل ، لانني
كنت اتبعه كظله ، وكان يسير امامي كهنا في مهبه ...

ولما دخل الحجرة ، دخلت وراءه . فالتفت إلي مستغرباً ولما
حدقت في عيونه ، رأيت اشعة جديدة تنالق في نظراته ، فظننت
ان سبال النور عاد يوشى الوادي وخيل إلي ، أن لكل شيء ظلال .

قال : اخرج ! ان وحدتي تأباك ! .

فحنوت رأسي متهيأ وسأله : أغاضب أنت ؟ ..

فقال : انما الغضب من صفات المتقين بالمال ! الغضب صوت
الطمع الضاري الذي لا يشبع . فأني سأن للغضب في حياتي انا
الذي ترك العالم ؟ ..

.. وعب اني سأترك أمراً او اعترف لذيك بـ ذنب ، الا

تغضب ؟

— اود ان تتركني

— ولكنني بحاجة اليك .

— ما حاجتك ؟

— كتاب !

— كتاب ؟ ! ..

— نعم ان لديك كتاباً ذا شأن . كتاباً وضع لتبر الحقائق

في حقول الاوهام . انه مذكرات رجل خاضع في مجامل نفسه ،
ليجذل الى معالمها . ولما اطل على هذه المعالم ، وقف لامعاً يلتفت
الى ورائه ليقبس المسافات التي قطعها ، وينظر الى قدميه وقد
ادماهما الطريق ..

قال : من وثى اليك بهذه الارجيف ؟ من افلق نفسك
بالكذب عن الآخرين ؟

قلت : لا خفي إلا سيظهر ، ولا مكتوم إلا سيعلم .
أتشك في القائل هذا ؟ أتشك في الذي وقف جيلاً على الجبل وعلم
الناس مشيئة السماء ؟ فالكتاب الذي لديك يحتوي على الكثير من
مشيئة السماء ، لانه حرب بين الجسد والروح . وصراع بين العالم
والانسان !

قال : وما دمت تعرف ما في الكتاب ، فاية حاجة لك اليه ؟
فقلت : الحاجة جسر نعبر عليه المعرفة . والمعرفة شمس لا
تخجب بسحابة غابرة . وكتابتك معرفة يا ابي . لانه قصة كل
رجل يريد معرفة نفسه .

قال : ان كتابي خاص بصاحبه ، وصاحب كتابي مات ولا
وارث له ، فهل يجوز ان اطرح الكتاب في اسواق طلاب الوراثة ؟
قلت : كلنا وارث وكلنا مودود ، وما ترك شيء إلا كان
ملكاً لما لك .

قال : اذن فالكتاب ملكي ان .

قلت : وانت ملك الانسانية . والانسانية تطالبك بنفسك
لتكون منارة لكل نفس

قال : عب أني اعطيتك هذا الكتاب ، أنعيده إليّ سليماً من
حقدك وصفحك ؟

قلت : ان كتابك لا يترك سبيلاً للحقد ، ولا يفتح باباً للصنع ،
لأنه قصة وليس سفرأ ، ولأنه صورة نفس وليس ترويض زمن .
قال : عد إليّ اذن بعد شهر رينا نسخه لئلا يفنى في تداول
قارئينه ..

قلت : رضيت بالوعد والموعود بأبت . حفظ الله حيالك
من الفناء .

وقد عدت بعد شهر ولكني حسبت الأيام الثلاثين الوفاً من
المرات قبل ان تمر . ولما أقبلت عليه ، رأيته ينثر الحب الحامئة
بيضاء ، ويرقب حركاتها كيف تنقد الحبة بعد الحبة . ولما وصلت
إليه حذق إليّ بنظرة نفذت إلى اعماقي ، فاذا بهذه الاعماق تفتح
للمناسك القديس على أطرافها لتلايض في مناهلها وتنقف الرية
حاجزاً بيني وبينه ..

ولما استعاد نظره النفاذ ، قال : أجيئ لتأخذ الكتاب ؟
قلت : نعم . قال : اذن لا تقتله اذا لم تره فصيلتك . ولا ترديه
اذا لم نجده من ذات نفسك .

قال هذا ، وتوارى في الكهف ثم عاد إليّ بحمل الكتاب
نفسه فاقولا : لم نسخه ، وإنما تركته كي يكتب لتظل كالماتة تضج
بشعور كاتبه . فكن انساناً ، واعده إليّ بعد شهر ، وإليك
والكذب ..

الكتاب

لم اجد كالزمن كاهنا ! ولم اذ كأطبيعة منبراً للاعتراف ! ولم
انق يسوى الوحدة تفرع بوابة الضيق لتفتح عن الاسرار ! ..
اني لاجتو واعترف . اللهم خمد جراح نفسي ! ..
ليس من المستحسن ان اقول انا خاطيء . ، فرأيت ان اقول
هو ! . وعل انا وهو ، غير الراهب الذي يريد ان يكون راهباً
حقاً ؟

ان في الراهب شخصيتين ! الانسان بما فيه من ميول واهواء ،
والراهب بما يختار من زهد وتقشف . الاول بلأل الدنيا ، والثاني
باسم داد التقوى . وها هو مجرد نفسه لنظّل له شخصية واحدة ، فاية
الشخصيتين تكون فسمه ؟ هو يريد ان يكون راهباً حقاً .
والراهب الحق يبيت انسانه في جسده لتندمل جراحات نفسه ..
أيها الاله اغفر خطاياهم !! ..

الحقائق

نعم يا بني . إني أريدك كاهناً ! أريد أن أرفعك عن مستوى
البشر لتحمل إلى العالم نور السماء . أريد أن أثقل نواقد نفسك
لأن نجاحها عواصف الأهواء ، أريدك كاهناً ! .. هكذا أراد
منه الله فنزل على مشيئة أبيه ، ودخل المدرسة الكاثوليكية ،
الكبرى ! ليتلقن العلوم العالية لغة وفلسفة ولاهوتاً ..
وكان طويلاً شاباً ذكياً نبهاً ، يتم بريق عينيه العاصي على نجابة
ونضج والتزان . وكان فدوة لأفرانه في كل شيء ، إن طاعة وتبذيراً ،
وإن نجاحاً واحترافاً في النجاح ..
وكان مبالاً إلى القنون بكل ما يؤمله ذكاؤه واستعداده ،
فمن رسم . ومن نحت . ومن موسيقى .

ومضى عليه خمس سنوات في المدرسة الكاثوليكية كانت في
خلالها يسير صعوداً نحو التبرع . وقبل أن تبدأ السادسة ، دعت
أباه خدمة تجارية شديدة ، فقضت على ثروته بجمعها فزعزعت
مركزه الاجتماعي الدعيم . فانسحب الأصدقاء على يفت فيصير
الحلي ينهار إلى الخضمض بعد أن كان رفيعاً قائماً على الاستقامة
والضمير الحلي ! وفيصير الحلي نفسه ، هو الذي شاء أن يكون
ولده كاهناً . أما اليوم ؟ أما وقد صار إلى الأفلاس وهبطت
منزلته إلى الدرك السحيق ، فلن يرضى بأن يكون ولده كاهناً ..

ودعا ولده طوبيا ، ولما وقف لديه اغرورقت عيناه الوالد
بالدموع وقال :

كانت اراضي امس غير اراضي اليوم يا ولدي ..
فقال طوبيا : ابي اليك كيف اردت ومعها شئت ...
- لن ارضى بعد اليوم ان تصير كاهناً !
- لماذا يا ابي .
- لاني اصبحت فقيراً .
- وما شأن الغنى بقضيتي ؟
- على الكاهن ان يكون بغنى عن الناس لينال احترام
الناس ...

- ولكن الكهنوت دعوة يا ابي وانما مدعو كما تعلم .
- دعوة لمن يلي .
- أتريد ان اسد اذني عن صوت الله ؟ ..
- بل افتحها جيداً لتجيب انك فقير !!! ..
- وهذه العلوم التي جمعتها ؟
- انها رأس مالك الموحيد بعد افلاس ابيك ...
وسكت الاثنان هنيهة . كأن ذكر الافلاس ضغطها بشدة
فلم يستطيعا كلاماً ..

ونظر طوبيا الى ابيه فرأى الكنازة حطمت فواه واذهبت
ما بقي في وجهه من نظارة الحياة ، فشاء ان يعود الى الحديث
ليسمع اياه من التفكير في زكاته . فقال

وماذا تريد ان اكون يا ابي ؟
فرفع الاب رأسه وقال مناجاجاً : الى مَ قيل ؟
- الى الكهنوت .
- انا اريد مهنة لا درجة .
- اذن سافكر يا ابي سافكر . قال هذا وقبل يد ابيه
مودعاً وخرج ...

قايين

عاد طويبا الى المدرسة حزينا مهتدا باليأس ، وغسلاً حاول
تهنئة خفقان قلبه الملح ، ووقف في الطريق بحرق الى عنا وهناك ،
ويرقب المارة والعمال . وكان . شئت الفكر مضطرب الجوارح .
ولكنه عصي الانبيار . وسأل نفسه :

ما الغنى وما الفقر ؟ ..

ما شأن المال في مصير النفس ؟

من وضع في الدرهم قوة القوى ؟

اي شأن للغني في طريق السكاهن ؟

أليس للكهنوت مجرداً من حطام الارض ؟

ياهي ! ان كنت تراني صاعداً للكهنوت فلا تعجب عني دعوتك .

والا فاعلمي كيف اجيب ابي ! ..

ولما وصل الى المدرسة قابله التلاميذ هازجين فرحين وقالوا :

انعلم ان محاضرة فنية ستلقى علينا هذا المساء ؟ اما طويبا فلم يجيب

بل ظل سائراً محنواً كأنه يشبع نوح اماله ..

وما كاد يتخطى الردهة الرئيسية في المدرسة حتى قابله الرئيس

مرحياً . وريث كتفه قائلاً : انعلم ماذا توي هذا المساء ؟ فقال :

أرى لم اسمع ؟

- ترى وتسمع . ترى مثالا للنحات الايطالي جوزيف برونو
وتسمع كلمة عن الفن .
وترايت كلمة الفن على تفكيره نزول حصاة تلقى في بحيرة
صافية ، فتولد الدوائر المتتابعة ، مراراً وتكراراً . فشكر
بالخفاء رأسه ، وفبع في غرفته مفكراً .
الفن ؟ ! ما هو الفن ؟ اني اميل اليه واحبه ، انه كالكهنوت .
الكاهن والفنان صنوان . كلاهما يجعل اللاشيء شيئاً . ان في
الفنان من الالوهة اكثر مما في سائر البشر . انه يعيش كإنسان .
ولكنه ينج كلمة . الفنان خالد ومخلد . انه اقوى من الفناء ، لان
اثاره لن يموت ! . .

في المساء كانت القاعة الكبرى مكتظة بالطلاب وعلى مرتفع
من الحشد ستار مسدول وامام الستار كرسي وطاولة .
وكانت الانوار تتألق في أرجاء القاعة كشمس الظهيرة . رفع
الستار فاذا هناك مثال من الرخام يمثل مقتل هابيل ! .
قايين يرفع هراوة غاضباً ، وهابيل ينقي الضربة بيديه وبروز
عينيه يعان خوفاً وجزعاً ، والنحات الايطالي واقف امام مثاله
متأهباً للكلام . وما ان بدا النحات حتى دوت القاعة بالتصفيق
وارتفعت الاصوات نهتف بتقدير العبقرية ! .
ولما تلاشت الضجة تكلم النحات فقال :
هذان اول قاتل ومقتول . قايين الذي اكتشف الموت
وهابيل الذي ترك الحياة بكراً .

أولى الممارك في غير الحياة ! فمن علم قاين أن يستفي هذه
العصا العجاء فيقتل أخاه ؟

ومن أخبر هابيل أن الضرب يؤلم فسميت ؟ أنها لا حاسب
توجد مع الوجود فتوافق الأحياء من إنسان وحيوان ، وتستولي
على النفس الجاهلة . وعلى القلب الغبي . وعلى الضمير الخاف .
فيولد الظلم ! !

هذا ما بدا لي وأنا أخلق هذه الرجلين . بل هذا ما رأيت
إمام أول صراع ، ولدى أول حسد ، ونجاة أول غيبة ! فثلث
أن أسجل على الله ضرر مخلوقاته الناطقة . لا قابليها بخلافاتي الصماء ! !
لقد خلق الله القنان مثلما خلق الأبله . وخلق الأبله مثلما خلق
المجرم . وخلق المجرم مثلما خلق القديس . إن الله ابتدع الإنسان .
ولم يزد فيما بعد ولم ينقص . بيد أن الأحاسيس التي توجد مع
الوجود ، هي التي تكيف كل امرئ بكيفيتها مع البيئة وأطرادها
في رحاب الحياة .

فلو لم يقدم هابيل الذبيحة ليهوه ، وقبلها بيوه برأي الهيب ،
لما عرف قاين الحسد . ولما شعر بالغضب . ولما اكتشف الموت
بعصاه . . ومات هابيل ! وتبعه قاين ! ولكن هل أصبح العالم
بعدمهم خلواً من قاين وهابيل . ؟

إن في كل منعطف قاتلاً ومقتولاً . بل في كل بيت وزاوية
وشارع وفي كل دير وكنيسة وجامع . .

إنني أرى الصراحة تؤذي بعضاً منكم ، فهاذا ! أما شتم إن
الذي عليكم كلمة عن النبي . . فهذا هو النبي الظروء ! ! ألم تروه

تأماً حرياً بالاعجاب ؟ فليهم نستعينون بالله من قايين الله ،
وتتفنون مشدوهين أمام قايين الفنان ؟ أتعلمون لماذا ؟ لأن
مخلوقات الله خاتمة فانية . أما مخلوقات الفنان ، فناقة وخالدة ..
ضج الطلاب « الا كايون يكون » مستهجنين الكفر في كلام
الفنان . وانكروا عليه ان يفضل هذه الصخور الضياء ، على هذه
الارواح الشاعرة الحساسة ، المباركة المقدسة .
ووقف الرئيس الروحي راجياً من الايطالي ان يسكت ،
فسكت ...

ونكلم الرئيس فقال : يا اولادي ! ان فلسفة الفن غير فلسفة
الدين . وحياة الفنان غير حياة الكاهن . فلا تجمعنوا من هذه
السطوات تؤثر بعقولكم وقلوبكم فتعبدوا المخلوقات التي هي عنها
رسول المسيح ... انكم مناهيون لتكونوا كهنة تركزون باسم
الله . والكهنوت دعوة عليا لمن يلبي الدعوة كما قالت لكم مراراً .
فلا تؤخذوا بالوشى والتزويق . بل فاعملوا ان يد الله فوق كل يد
وما الانسان . وما الفنان . الا امانة من هذه اليد التي تدير
الوجود وابتداء الوجود ! ..

فصفق الطلاب للرئيس . ونظروا الى الفنان نظرات منجدة
نحو الاستخفاف والسخرية ، فغضب ورفض قتاله برجله ،
وخرج حائفاً ...

وهكذا انتصر فن الكلام على فن العمل ، وراح طويلاً يفكر
في كل ما سمع ، وكل ما رأى ...

عبارة

في اليوم التالي، قابل طوبيا اياه وقال له : ان شئت فاني احب ان اصير نحاتاً . على ان الوالد كان مريضاً فلم يجبه بسوى اشارة على القبول ...

وبعد اسبوع توفي قيصر الحلبي ، تاركاً طوبيا وامه وتوراً من المال ، وبيتاً صغيراً .. وعز على طوبيا فراق ابيه فبكاه ولم يرد ان يقبل تعزية من احد ...

الطاهر نفسه

عينا حاولت ام طوبيا ان تشي ولدها عن رغبته في علم النحت . وعينا برهنت له ان الكهنوت هبة من الله ، لا يستحقها الا الذين صفت قلوبهم ، واستنارت عقولهم ، ثم قالت : ما نفع الفن في بلاد لا تأبه بسوى المادة ! فكان طوبيا يهدي روعها . ويعلمها ان اياه هكذا اراد وارادة ابيه فوق كل ارادة في نفسه . .

وبكت ام طوبيا ، اما لماذا فلا احد يدري . فقد تكونت ذكورت زوجها ولطفه ومحبتة لها ، وند كرت مركزها الاجتماعي الماضي الزاهر . وقد تكون عجوزت عن اقناع ولدها ليكون

كاهناً . فيعيد مركز أبيه ، ونثال احترام الناس مثلاً كانت
في عهد الذهب والبرجوحة ... على أنها بكت ! وبكاؤها كان
مبكياً أيضاً . اذ كان بكاء اليماء عميقاً ، بكاءً خارجاً من فؤادها
الدامي ! فان شئت تترق الشبهة حنجرتها . وان نشئت يحز
التشيع شفاف قلبها . وهكذا وقفت امام ولدها نعصر قلبها وتريق
ما بقي فيه من دموع ! ..

اما طوبيا فكان حائراً مشدوهاً ، اذ نسب لنفعال امه الى
مخالفة اباها . وجثا طوبيا لدى امه . وسألها غفراًناً . ورجا منها
ان تزوده برضاها ، لينسم ارادة ابيه الذي اصبح في عالم الارواح .
ثم نهض ليذهب ! ..

وغنميت الام ضالعة الجواب : ورفعت عينها الى ولدها .
فبدت مسافة الحزن العميقة الغور في حداثتها ، وتكسرت اهدايا
كجناحي طائر قدفته الموجة الى البابسة مائلاً ، وصرخت
الكآبة في دموعها صوتاً احمر لا يسمعه الا الشعراء ذوو
الاحساس المرهف المستيقظ ... فيبكي طوبيا ، وكأنه شعر
بجثمان ابيه مسجى امامه . وقال : امي ارحمي نفسك ، عذبي انيبار
جسدك ! حافظي على توازن الحياة في عقلك الرجيع . ليس
الكهنوت دعوتي . لقد كنت غافلاً عما يدعوني . فقد رأيت فيما
مضى سرايباً اما اليوم فاني ارى معبناً وقرافاً .. اننا الكاهن
لنفسه فقط يا امي . اما الفنان فله تاريخ مخلود للمثل ...

ونكمت ام طوبيا . نسكمت بصوت مذبح كصوت الشاة
التي مورت مدية الجزار على عنقها وقالت :
النفس يا طوبيا النفس ! هذه وذبعة الله فينا . بل هذه سراج
الحياة في اجسادنا . فاذا فقدناها فقدنا كل شيء . فما قيمة الصخر
ان يثقل جسداً اذا كان هذا الجسد خالياً من النفس . وما قيمة
الالوان مثل قاربخا اذا كان هذا القاربخ فارغاً من اعمال النفس !
تقول ان الكاهن نفسه فقط ، وهذا الذي اطلب . ان من يحافظ
على نفسه وينتشلها من ورطات العالم ، اغنايك كل ما حوت الحياة
من فنون ومهن . فانا اريدك كاهناً . اريدك كاهناً ! اريدك كاهناً !..
— ساكون كاهناً يا امي ، ولكن بقلبي لا بشوي ! يسيري .
لا بطوايري . ساحمص على نفسي . سأنجد واباها في كل عمل
ثريف . سخصص ازميلي وبركاري ومنقي لارادة الله . ساكرز
بالمسيح بتياويل غائيلي ، لا بلاهوتي ونعاليمي . ساكون كاهناً
يا امي ساكون . ولكن كاهن الفن !.. ثم جثا ثانياً ولتم يدا امه
وقال : الى المساء ...

مربى الفن

دخل طوبيا محترف النحات جوزيف بابيشو ، فدهش وتبب .
لقد رأى في ذلك المكان عالماً صامناً ، ولكنه فطلق بلغة الاجيال
مفصح بها في خير الخلود ، مشير الى الالهة التي تتزوج بيوتى
الانسان ! .

وكان النحات اهان عمله . فاستقبله مرحباً ، وغبار الصخور
برشي وجهه ويديه ، ورداهم التهنى اللون ، الذي كانت يلبسه في
ساعات العمل . .

ومد طوبيا يده مسلماً . وحنأ رأسه امام الفن ومحدث الفن .
فتقبل الفنان هذه الانحناء بشيء من الاحترام وأشار بيده الى
كرسي طويل ان اجلس . . . ولكن طوبيا ظل واقفاً . يحسق
الى مثال شيوخ هرم يدير بيديه المعرفتين ساعة رملية ، ويضعك
هازئاً من ذريبات الزمال المتقلبة من فوق الى تحت . ثم من تحت
الى فوق . . ونظر النحات الى طوبيا وقال : هذا مثال الزمن !
ثم أشار بازيميله الى السجينة البارزة في قم الثمنال وراح
يتحدث :

عياً ينقم الانسان على الزمن ! فالزمن ساخر ابداً بصير
الانسان ، لانه مصير لا ارادة فيه ولا قدر . فلانسان ذريعة من
رمال الساعة الابدية التي نصب رمالها اخذاً ورداً ، فلا يمكن

ذريعة أن تستقر في مكان واحد ، ما دام سيال الانهيار متواتراً
في يد الزمن ...

فقال طويبا والاعجاب يستضيء في عينيه : سيدي ! كم عدو
والفن الذي يقضي على الفلسفة بدون كلام . وكم هو عظيم ذلك
الإنسان الذي يحدو حدو الآله فيبدع ويخلق ..

فتضاحك الفنان وقال : أليس الفنان شيئاً إذا خلت أذنان
الناس من التقدير . فعظمة الفن فائقة على العين والأذن اللتين
تعرفان الجمال ونحسه ! ..

- ولكن الفنان يا سيدي يهذب العين والأذن وضمه جمالاً
محسوساً ! ..

أفنان أنت ؟

- لا ولكنني جئت اليك لاصير ..

- أنا الضيورة في نفسك أولاً . فهل سألت هذه النفس
استعداداً للصير ؟

- لم أسأل نفسي يا سيدي ، ولكنني سمعت نداءها .

- سمعت نداء نفسك ؟ ! انك شاعر أذن ...

- ليس الشعر خالداً كالفن ؟

- بل الشعر حدي الخلود . ويحد الأبداء ...

- انك فنان حتى في تعبيرك يا سيدي . فهل تروعي في تعبيرك

يقدم يديه بغير الصخور وتراب الأرض ؟

- عليك أن تتردد الى هذا المحترف أولاً لتروض يديك على

العمال . وفرن عينيك على النسيبة . وتطلق خيالك في سبيل
الابداع ...

— اشكرك يا سيدي !

— على م ؟ دع هذين المجتمع للذين تعودوا العيش من حطام
التقاليد ، وكن بكراً حتى في كلامك . فما الشكر ؟ انها كلمة
اوجدها قاصرو التعبير ليدوا عجز نطقهم . فعلى م تشكرني ؟
ألا في رغبتي ان اريك بما وهبت ؟ ام لاني قتعت لك باب محترفي
لتكون رفيقي في الابداع ؟ على الانسان يا اخي ان يكون
مستعداً للعطاء بقدر ما يرى في نفسه استعداداً للاخذ . ألم نقرأ
حياة الفنانين القدماء ؟ . فاولئك الذين بنوا صروح الفن بتفوقهم
لم يقبلوا شكراً ولا مدحاً . وانما مطلبهم كان واحداً فقط .
عيناً ترى فتجس . واذناً تصغي وتشعر .. ومع ذلك فقد اخذوا
اكثر مما اعطوا ..

فماذا تعرف عن ميكال انجلو وعن موساه الذي كاد يشكلم لو
لم تحطم المفارقة ذراعه ؟ ، وماذا تعرف عن دافشي وعسن
وجو كانوا اطلالة البسمة . الطافية العينية في حوض من العفاف ؟
ورفايل ؟ انعرف شيئاً عن ذلك الفنى الذي اشغل سنه التي لم
يبلغها ؟ ارايت عذراءه المصغية الى يسوع الطفل يمس في اذن
روحنا الفنى !

ان هؤلاء الثلاثة رفعوا مجد روما الى الذروة التي يلتمها السحاب
نقياً . بل وضعوا في حناجر الامم نهاليل الاعجاب ، وفي صفحات
التواريخ شهادة الاجيال ! ...

فقال طوبيا: لم يتيسر لي أن أعمق نظرياً في الفن والاصنعة
بعض القليل من الطين . ورحمت عدة صور ، بالثباشير ، الملوقة . .

- أين دوست ؟

- في مدرسة اكليزيكية !

- ناهياً لكهنوت ، اليس كذلك ؟ لا بأس أن السكهن له
مكانته في المجتمع وله اثره في العالم . ولكن ألم تلاحظ أن الازياء
السوداء تقتل المواهب غالباً ؟ ..

- لست محترماً بهذا المقدار . على اني ارى بعض الصواب
في استغرائك ..

- الصواب كله باعززي . لانني كنت مثلك معداً لكهنوت
ولكنني عدلت الخيراً اذ رأيت نفسي اميل الى العمل - مني الى
الارشاد ، واقدّر على الابداع مني في الوعظ عن الواعظ الاكبر . .
وفكر طوبيا ، متني !

وشعر بالغبطة . بل شعر بعدوبة اضمخت عليه شيئاً من الفخر .
أبشّر هذا الفنان الكبير نفسه بنفسه ؟ .. ونورد خداه طوبيا ،
وبوقت عبادة بدمعة فرح خفية . ثم امس انكماشاً في صدفيه .
فالقى بنفسه على الكرسي . بينما كانت ازميل الفنان يعمل عمداً ،
والطريقة تنهال عليه بوقع موزون . . .

وراح يحدق الى رشاقة الايطالي وحذفه . انه يتلاعب بالصخر ،
كأنه يتلاعب بقطعة شمع لينة . واذا بذراع تنهياً للوضوح . واذا
بالكوع الثاني ، يخنلج كلها وضح كأنه يحس وفسع الضربات ،
فبستغيت ! ..

وابتعد الفنان قليلاً عن مثاله . وصدق طويلاً . وزوى ما بين
عينيه ، مؤكداً صدق عمله . ثم اقترب الى حيث كان ، واخذ فلماً
فجسماً ورسم خطوطاً على الصخر . فبدأ الزند ثامناً من الكوع
حتى الكف ...

ونغمم الفنان ، فظن طويلاً انه يكتمه . فقال : ماذا يريد
سبدي ؟

- لا شيء . ولكنني بحاجة الى « مثال » ، اذ لا غنى للفنان عن
حقيقة يسترشد بها :

فقال طويلاً : مثال حي طبعاً ..

- ومتى كان الميت يؤخذ مثلاً ؟ ان لدي عدة اشخاص
يقفون امامي كلما احتجت اليهم . رجال ونساء واولاد ...
- لقاء اجور ؟

- اجور باعظة جداً ، ثلاثة « مجيديات » عن كل اسبوع
- ثلاثة مجيديات ! فكم ينقضي للمثال من الاسبوع ومن
المجيديات اذن ؟ ان مثل هذه الاجور ليست مشروعة فاللاهوت
ينص جلياً عن الاجور ويفرض كل المواقف ولكنني لم اذكر
اني وقعت على مثل هذا ...

- اللاهوت في الكنيسة والكنيسة غير المحترف ..

- ولكن المثال من ابناء الكنيسة ، اما ذلك ؟ ..

- الفن لا ينقيد بقانون ، بطويلاً - اسحق لي ان ازيل التكلف

من الكلام -

المرأة

فخرج الباب فذهب الفنان ليقفح . واذا بالمرأة قد دخل . امرأة ولكنها ليست ككل النساء . ان جفاتها منحوتة نحاً . بشرة كضوء القمر ووجهه تحيط بهالة من الشعر الفاحم ، وحدقتان تسبحان في مقلتين اصفى من غنجة الام لوحيدها . اما فمها ، فكانه يعم الورد انشق في هدئة الفجر . وبدأ في تبليج الصباح .. فظن طوبيا انها « مثال » جاءت تقف امامه . ومما كانت تقرب منه حتى وقف قسراً . فقدمها النحات فائلاً لزوجتي . فحضت رأسها . وحنا طوبيا رأسه وقال : طوبيا الحبيبي .. وتابع النحات : تلميذ جديد عرب من سجن الجسد قبلي نداء الروح ..

فتيسمت المرأة بهدوء ، وقالت : الجسد والروح نداء واحد في سجن واحد . فالشعر والفلسفة يفصلانها ، اما الفن فيوحدهما .. فقال الزوج : ان تحديديك بالتحلاء ما يروح يحتاج الى كنه ذهن واعمال فربحة ليكون حريماً ..

— ألسنت زوجة فنان ؟ فانا غامضة كزوجي !
قالت هذا وتولت زوجها جريدة وقالت : اقرأ ...
— ماذا ؟

وكانت الجريدة ما يعرف بالنشرة الرسمية التي كانت تصدر

في عهد رسم باشا متصرف لبنان سنة ١٨٧٥ . متوجة بالدعاء الصادر
الأعظم ، ومكتوبة باللغتين التركية والعربية . وكرر الزوج
ماذا ؟ اني لم ار شيئاً يستحق اهتمامك . لماذا يعني من تعديل
ضريبة « الويروكو » ومماذا استفيد اذا كانت السلطان منك
دنانير ذهبية .

ومدت الزوجة اصبعها بحركة لطيفة وقالت عناءا .
وقرات عالياً .

الفردوس

انتهت الحكومة من غرس الحديقة العامة وقد اطلقت عليها
اسم « الفردوس » وستعبد الى الفنان الايطالي الشهير « جوزيف
باينيتو » بان ينحت لها تمثالين يمثلان آدم وحواء قبل الخطيئة ،
ليوضعا في باحة الحديقة امام القسفة الرخامية الجميلة . وسيكون
الفنان محيراً بهوقف الابوين البدائيين ، على ان يكونا قامين خلال
عام واحد ..

وقبهه الفنان قهوة طوبية اجشة . ورسم بالمطرقة بترق ،
ونكلم باستخفاف : ما برح رسم باشا بجن الى وطنه الاول فينظاظر
بحب الايطاليين . وها هو يفضلني على ما في اوريا من النحاتين ...

فقال طوبيا : المتصرف ايطالي ؟

— اصلاً لا وطناً . على أنه لم يرم من وراء هذا الفردوس إلا
الى ملء صندوقه بالطغراوات الذهبية الزخانة . ولكنني ساعرف

كيف الخيف ووعاته التركي . وتسلية بعقلاء يهوت . وعاء
أروي لكها ما سيحدث غدا ..

فقلت الزوجة : فنان وني أيضا ؟

فاجاب : ومتى كانت النبوة غير انقاد الذعن ، وصفاء الخيال ؟
ان الفنانين النبلاء دون ان يتكلموا !

فقلت مازحة : نعم النبوة تخرج من غيار الصخور ! ..

فاسكتها برزق : اسكني يا نجلاء . انا ما تزوجت بشرقية
مثلك الا لا تكون مرثعا من تدخلات الغربيات بشؤون الزواجهن !
- ولكنني مازحة يا جوزيف فلا تغضب .

- ان مزاحك فحج بالنسبة الى وجود هذا التلميذ الجديد ! ان
قريبة الا كايروكية لم تضع في نفسه استحياء لميعان النساء ...

تورد خذا نجلاء ، والمخرفة عن الموقف لتجلس الى المكتب
بعيدة عن دائرة العمل ..

فإذا عساه يتخذ هذا الرجل الغريب من مزج القوية
الا كايروكية بالنساء ..

وبدا الطوبيا انه غيور فحمد الله على انه عرف طوابه في بداية
دخوله الى محترفه ، يستدرك الامر في المستقبل ...

واحب طوبيا ان يبدد ما ادفعه على الموقف من غيوم ، فقال :
ولكنك لم توري لنا شيئا عما سيحدث غدا .

فقال الفنان : لقد انستني نجلاء كل شيء . بل انستني اني فنان ،
لي شهر في حتى في ديوان رسم باشا متصرف البلاد والفت نحو
نجلاء قائلاً :

أليس كذلك يا لبنانيتي الصغيرة ؟ وغدا منها ، وراح يهقهه
حتى وصل إليها . فجلس على حافة المكتب محاولاً توضيحها . أما
لجلاء فقد حذجته مستغربة هذه القهقهة وقالت : ما اضح هذه
الضحكة الشاذة بالنسبة الى وجود التلميذ الجديد !

فصاح غاضباً : نحن الايطاليين لسنا على شيء من التهذيب
فهلا القيت عليّ درساً يا ابنة الجبل الثقيل !!!
فقالت : الجبل لم يدع احداً اليه . فليهم جنته ، ما دام لا
ثقافة فيه .

- اراك لا توضين بكلمة الجبل ، فعذراً كنت لود ان
اقول لبنان ..

- ما شأن ايطاليا ولبنان في بحثنا ومزاحنا يا جوزيف ؟
يجب ان تعلم ان لبنان ما كان يوماً موضوع سخرية ...
- حتى كلمة لبنان لم تزدك فعقراً يا شرقيني المنجمسة ...
- شرفنا لنا . وما دمننا قانعين به فهو بثابة غريبكم باجمعه .
افهمت ؟ اني لا استغرب مناهجكم معشر الغربيين ، فبدلاً منى افدى
امانيكم ان تكونوا في الشرق ولا سيما في لبنان ، فاذا بهكم
تسخرون بنا متوهمين اننا دونكم ثقافة ومدنية وفناً . ولو شئنا
البحث معكم ولو قليلاً ، لاثبتنا لكم انكم الخدم تواتنا الطبيعي
وذورهم عليه شيئاً من كيمياء غريبكم ، واعترفوا لنا غريباً غداً .
فهنا فاقكم اننا فاهمون ولكننا محكومون ، وقد دونوا ولكننا
مقيدون ؟

هل فاتكم اننا نرى ونسمع ، ولكننا لا نجيب ؟ واذا اجبت ،
واذا احتججت . واذا اتولنا اللغات ، وحينئذ الشتام فهل يسلم
كبارنا وعقلاؤنا من جحيم هذا الطوفان النفسي الذي يتفجر في
صدور الفاهمين فينا والوطنيين منا ؟

- خفني يا نجلاء خفني ! انا است من الذين يرغبون في نبش
التاريخ . فان شئت ان تحاضري عن تاريخك الشرقي ، فحدثيني
عن خرائب تدمر وبعلبك وعرفيني باسم الذي نحت عمدها وتيجانها ،
بل حدثيني عن الخالق هاتيك الالهة الاسطورية بين تلك الاروقة ،
لانحت له مثالا ...

- لا حاجة الى المحاضرة ما دمت فاهما ان لنا آثراً قديمة
حيرت عقولكم . واذهلت علومكم . واوقفكم صغارا بالنسبة الى
العظمة المهيمنة في هذه الآثار !

لقد قلت لي مراراً انك ما استشرفت . ولا طلبت القيام في
بلادنا ، الا لانك معجب بجمالنا وجمالنا وآثارنا .

فتنظر اليها نظرة تراهي فيها المزارع بالجد وقال :
كل هذا لم يكن شيئاً لدى اجدائي فيك يا مثال الجمال البستاني ،
والوحي الشرقي ! ..

وعاد يقهقه ! وعاد يمزح ، كان الغضبة التي بدت منه باحت
ولم يبد لها اثر في نفسه ..

أتكون هذه عقول الفنانين ؟ أم هذه هي اطوارهم
انهم بالحقيقة لغرباء عن البشر ! ..

أما طوبيا فقد كان حديث العهد بالنقاش الذي يدور غالباً بين رجل وامرأة . فالمدرسة الأكاديمية شبيهة بالمناسك البعداء عن المجتمع الطليق . ومراعتها القائلة إبدأ بالحشمة والتقوى . والتحذير من اغراء النساء خير شاعد على تهذيب هذه المدرسة .

إن رئيس المدرسة كان يشبه طلاب الحكيموت باصحاب النفوس الجميلة . ولما سأله أحد الطلاب : وبينة النفوس البست جميلة ؟

اجاب كل النفوس جميلة اذا لم تشوهها الخطيئة ، فالخطيئة للنفس بمثابة حرح في الوجه ، وبقدر ما تكثر الجراح ، بقدر ذلك ما يشوه الوجه . ومن منكم يرى وجهاً مشوهاً ويستأذ التحديق اليه ؟ . وهكذا فإن الله لا يحب النفوس المشوهة . فاحرصوا على نفوسكم لتظل جميلة ! .

إن رئيس المدرسة كان ملفناً قوي الحجة طليق اللسان وقاب الخيال . وكان شاعراً لا يرى صعباً في أن يحول آيات الانجيل ابياتاً شعرية للمثل والتأثر .

قرعت الساعة المعلقة على جدار المحترف اثنتي عشرة قرعة . فقطعت على طوبيا استرساله في هذه الافكار ، وما كانت لتنبهه لو انها قرعت سناً بدلاً من الاثنتي عشرة . إذ كان الوقت ظهراً . وسأل الفنان : ما بال الشمس غابت في ساعتك يا سيدي ؟ فضحك الفنان وقال : بل غابت الشمس في ظهركم . ألم ندر أنني أسير ساعتني على ساعة بلادي ؟

ولكنك في لبنان وفي لبنان تغيب الشمس اليوم أمام
الثانية عشرة ! .

- ان الشمس لا تأبه بساعات العالم .

- ولكنك مضطر ان تجاري البلاد التي تقيم فيها

- نحن لا نجاري بل نتخبط فلو وجدت ان توقيتكم موافقاً
لأبعتهم . انتم سألون على ما تسنه لكم الارادة العثمانية . والارادة
هذه لا شأن لها في اصطلاحاتنا لذلك انما ما جئت الشرق لا يكون
شرقياً بلغتي وزواجي الا لا تخبط الجبل في شرقكم . النسيب في
ثوانكم ، الساحر في جوكم ! .

ثم التفت الى زوجته قائلاً : اليس كذلك يا نجلاء ؟

ان محاضرتك أثرت في ، لذلك رأيت ان آتيت فوالك امام
طوبيا التلميذ الذاهب ! . .

وسر طوبيا ان يكون ثانياً في نظر الفنان . ان شهادة العباقرة
صوت المقررة نفسها . .

اما نجلاء فلم تنال ، بل اودعت : حان المدا يا جوزيف على
توقيت بلادكم . فهيا بنا . ثم كلمت طوبيا : أريد حضرة السيد ان
ينغدى معنا ؟

فقال الفنان : طبعاً ! اني لا اقبل رفضاً . على طوبيا ان يتزوج
بنا فنياً واجتماعياً ، والا يظل غريباً عنا . ثم قبض على يده وفاده
قائلاً : اني احب ان اكون شرفياً بدعوتي امش ! .

اسرار تزيين

بيت الفنان ذو طابقين. المحترف في الطابق الاول . والسكن
في الثاني . فالمحترف قاعة كبيرة طولها ضعفا عرضها . يدخل اليها
النور من نوافذ عالية صغيرة . وتنتشر فيها النماثيل منها وهناك
بدون نظام ، وتجم فيها الصخور استعداداً للعمل . وفي زاوية من
زوايا القاعة ستار جميل ، يتدفق مغطىاً نغضيباً قنياً ، يتربع وراء
مكتب الفنان وكتبه ، ومعدات تصاميمه التخطيطية . وقد بالغ
الفنان باتقان دائرة المكتب . فهناك كرسي وثور جميل الصنع .
ومكتب من خشب الجوز المصقول ، ومجبرة نحاسية مثل الذئبة
الاسطورية التي ارضعت رجلي روما . ووراء المكتب نافذة تنبثق
عليها السجف الخشبية الخضراء ، ترفع وتسدل تبعاً للحاجة
الى النور .

اما الطابق الثاني ، فذو اربع غرف وهو فسيح ، مزين
بشجيرات الازهار الجميلة ، من زنباق وورود وقرنفل وقل ،
وبنفسج ، وكل ما يمكن غرسه في احواض خزفية صغيرة .
واما قاعة الاستقبال فانها اشبه بتعرض تحف شرقية من سجاد
وزخارف نحاسية وكراسي وطاولات مرصعة بالؤلؤ والحبوط
الفضية الدقيقة . وسجف حريرية بموهة بالذهب مزر كشة بالرسوم
الغريبة . . وفي زاوية القاعة ينصب تمثال تصفي لنجلا زوجة الفنان

خشن الثعب ، ناعم المعاني ، بعيد الملامح ، قريب الحياة .
هذا معظم ما شاهد طوبيا فور دخوله ، ان في المحترف او
في البيت .

ولما جلس طوبيا الى مائدة الغداء ، لم يستغرب الصبغة الشرقية
في غرفة الطعام ، اذ وجدها بحسبة في قاعة الاستقبال .

كانت نجلاء تملأ الصحن بيدها ، وترتب الوان الطعام ترتيباً
ذا ذوق ، اما الفنان فكان ساكناً لا يلتفت الى شيء ، بل كانت
يلتهم طعامه بشهية تبلغ حد النهم . وكان الاكل شرقياً محضاً .
ما عدا بعض افاديه ومقدمات محفوظة بالعلب .

وبعد ان قدمت الفاكهة ، جاءت الخادوم بالقهوة ، فنلمظ
الفنان واخذ فنجان به برغبة وقال :

اذا لم يكن شرقكم محتويّاً على سوى القهوة فقط ، جدير به
ان يعرّينا نحن الغربيين على القيام به ..

وبعد الغداء ذهبت نجلاء لتنام ، وبقي طوبيا والفنان يتحدثان
عن الفن . وراح الفنان يتوغل في عالم الفن ، فعرض الفن ، الفن
الاغريقي ومجده ، والفن البيزنطي وغرابته . والفن الروماني
ومخلوده . والفن الشرقي وقوته . ثم جاء بجهد ضخم يجمع نماذج
للقنون باجمعها ، وانواعها . احاط منها والمشهور ، والنافع بينها
وذي المقام . ثم فتح صفحات تخطيطية وراح يشرح لطوبيا كيف
يجب ان يقبض على المطرقة . وعلى الازميل . وكيف ينبغي نحو
الوجه ، ونحو الصدر ، فالذراع ، فالبطن . فالفخذان فالردف ،

فما ظهر فالكشف . ثم يشرح له معدل النسبة القياسية في الأجساد
الجميلة المنسقة .

ثم راح يشرح شروحاتاً خافية عن الأسرار التي من شأنها
تحويل معنويات الوجه . من غضب إلى حلم . ومن بكاء إلى ضحك ،
ثم أبان له مواضع الشراسة ، ونعومة النفث ، وثقل الظل ، وخفة
الروح . إلى كل ما في الانساق من عوامل ، وكل ما في العلم
من فرائد .

ثم بدأ يشرح أوضاع التكوين ، وجمال الائتلاف . فتحدث
عن وضع الشفاه من غليظة ورقيقة . ومستقيمة ومنحرفة ، وتأثير
الأنف على الفهم ، وتأثير الفم على الذقن ، وتأثير العنق على التورم
وكان يتدفق بشروحه فصيحاً بليغاً ، بلغة عربية صرف لا أثر
فيها للارطاعة ، ولا مزلق فيها للفتنة .

وكان غنياً بالكلمات ، سليم الذوق بانتقائها ، فيضع الكلمة
موضعها والتشبيه محله ..

وما كاد بسكت ، حتى كان طوبيا مشدوهاً إذ غناه مدرس
لامعوت في مدرسة الكابريكية ، فكان طلاب الكهنوت أوفر
حظاً من أولئك الشرايح الذين ينعدون الغموض ، فتأتي شروحيهم
بحاجة إلى شروح ! ...

مضى على طوبيا ثلاث ساعات ظنّها ثلاث دقائق . ولما نهض
ليودع استاذَه ، رأى نفسه بحبه حبساً شديداً . ولما مد يده
لإصافحه شعر بالندفاع لتقبيل هذه اليد ، كأنه انتهى من درس
لاهوتي موفق ، لدى كاهن جليل عالم ...

وقبل أن يخرج طوبيا اوقفه الفنان ، واعطاه كتاباً يحوي
على تصاميم وزخارف ، وآلات نحت ، وقال : يمكنك ان تفعل
في هذا الكتاب ، وتدرس محتوياته ، فانها تساعدك على العمل ...
فأخذ طوبيا الكتاب شاكراً وانصرف ...

صوت الضمير

دخل طوبيا على امه ، فراكها مطرقة ، وامامها حجرة ، بدأ من
نغضينها انها تحتوي على قطع نقدية . . فالتفت على يد هذه النقية
واخذ يدها وقبلها ، فعانقه وعبناها نذر فان الدمع السجين . .
وسأل طوبيا امه ، مشيراً الى الحجرة . .
ما هذه يا امي ؟ . .

فتهدت الام وقالت : لم يجل العالم من ذوي الضمائر يا طوبيا ،
ولم تخلص الضمائر من الامانة التي نجوهر الروح ونضج القلب لتوان
الهناء والسعادة ! . فبعد ان تركتني ، دخل علي رجل فلاح ،
وعزائي وحاول ان يقبل يدي فمانعت ورأيت دموعه الصادقة
ناطقة بصفاء سريره ، وكان يشق كأن اباك اخوه ، واستقر في
شبهه للبكاء فبكيت . وكانت مناحة . .

لم ادري كم ظللنا هكذا يا طوبيا . ولكنني شعرت بانني افرغت
قلبي من الدموع المحترقة في سويدائه . الدموع الجسامدة العصبية
الانهيار . هذه الدموع التي تريني حياتي لا شيء ، بعد ايدي ! . .
ولما سكنت الرجل يا طوبيا . ونشف دموعه ، بوقت عبناها
بريقاً لم أراه قط الا في عيون الاطفال ، على ان اهدابه ما برحت
متهدلة تحت وفر الحزن السليغ الذي رأته في انفراس شفتيه . .

وراح يتكلم بأولادي . وراح يعلن مسا في قلبه بخزنة خيفة لم
ترض بسوى قلبي يردده صداها . فقال :

سيدتي ! . وعظام سيدي المرحوم فيصير اني تثبت ان اموت
انا ، ويظل سيدي حياً . . فلما نفع رجل مثلي فجاءه مر كثر سيدي
واستقامته ، وشرف اسمه ؟ . فمن يسعف المحتاج ؟ ومن يحسن
الى الفقير ؟ ومن يدين الفلاح ؟ لقد عرفت ان سيدي فيصير مات
يأساً على ماله الذي ذهب هدراً في سبيل الانسانية . والانسانية
ظالة يا سيدي . وظلمها يبدو في المواقف الهامة مثل موقف
زوجك . .

لقد مرت إشاعة ان سيدي أفلس ، فيفس . فمات ! . ولكي
أقسم بالله ! وبالف نبي ! وبالف ضم ! على أن أفلسه ما كان
إلا من تغاضيه عن الذين استدانوا منه وما وفوه ، فاحتاج ان
يفي ما عليه ، ويعجز عن ان يسوفي ماله ! .

وقد كان رحمه الله ، شديد الثقة بالناس ، ولا سيما ابناؤه الجبال .
فقد كان يعطي دون ان يأخذ وحلاً بما يعطي . ولما سألته يوماً
لماذا يفعل هكذا ، قال : ان المال ثقيل على الضائر يا . . ثم : فلا
تصدق ان أحداً يستطيع ان يفي وينخلف ! .

لذلك كوفي على ثقة يا سيدي ان المرحوم ناجر بورزانه الخمس
وربح السماء . وبولس يقول : ان الذين يتوتون بالرب لا ينبغي
ان نحزنوا عليهم كمن لا وجاء لهم ! .

كان يتكلم بأطويبا ، والصدق بشيع في صوته وجر كانه
والسرير وجهه . بل كان يتقد بالشور والاحساس والوفاء ،

كانه لم يعرف الرب ، ولا الخلاص ، ولا الزلفى . . .
وكانت غيظته الجبالية تريد كلامه قوة وفخامة . . . وكم كنت
حبيلاً ان يستشهد بالانجيل . ويرسل وليس كانه كاهن متطلع من
علوم الكهنوت . . .

واشاح طوبيا وجهه ، وخاف ان تعود امه الى حديث الكاهن .
على انه استدرك وقال : واخيراً ماذا حدث يا امي ؟
فاجابت : ان ما حدث اخيراً ، هو اعظم من كل ما سمعت .
فبعد ان عزاني بحديثه العذب . واتلاجه النادر ، قال : منذ
عام يا سيدي ، استندت من المرحوم شة ربال مجيدي ، لمرور
سنة اشهر . على ان الموسم كان ملحلاً فلم استطع ان افي سيدي ،
واصبحت حبيلاً ان وجدت نفسي كاذباً دون قصد ، اما بعد ان
عرفت ان سيدي توفي ، رأيت من واجبي ان افي ما علي ، فبعثت
قطعة ارض من املاكى وجئت اليك بالمال . وهذا كيس يحتوي
على مئة وتسعة ربالات مع الفائدة القانونية .

قال هذا يا طوبيا بلهجة الاستعطاف كانه قادم ليوستدين ، لا
ليفي ، ولما شاء ان يودعني اقسمت عليه بروح ابيك ان يقبل مني
خمسة وعشرين ربالاً . فقبل المبلغ واخذ يدي ليقبها فلم امانع لثلا
اجرح عن حلقته النبيلة . وقبل ان يخرج سألته عن اسمه ، فقال :
« عبدك الياس امين الحوري » . ولما توارى وقفت انصلي الى
خطواته ، فكنت اسمع صوت الصيبر الحلي في خفي تعليه . . .
فقال طوبيا لامه : تعزي اذن يا امي بان لاني اصدقاء اوفياء
كهذا الفلاح الامين . . .

فقلت : لا اعرف للعرزاء لولاً إلا يوم ترجع عن عنادك وتصير
كاهناً ..

- عنادي ؟ اتريدن ان اعق والذي الذي اراد مني ما
تريته عناداً ؟

- وماذا فعلت اليوم ؟

- ذهبت الى محترف النحات الايطالي وحادثت اليه ان افرق
لديه على ابراز مواهبى الفنية !

- ابدل ما تحسبه مواهب ، بالدعوة السماوية ؟

- كل ميل شريف دعوة سماوية يا امي ! فعلى الانسان ان
يكون عاملاً وعلى العمل ان يكون مقيداً .

- وماذا قال لك النحات ؟

- لقد كان لطيفاً جداً ، ولا سباً زوجته نجلاء ، تلك اللبنانية
العصيمة التي تحب بلادها محبتها لزوجها ..

- وابن تغديت ؟

- عنده ، عند النحات ..

- هكذا دون تكليف ؟ ايليق بشاب مثلك ان يطوح بنفسه
دفعاً واحدة ؟ فابن تهذيبك الكهنوتي ، وابن علومك العالية ؟ وابن
ثقافتك الرفيعة ؟

- غفراً يا امي ! اأكون انبت بنا لا يتفق والتهذيب ؟

- طوبيا ! انت خلقت الكهنوت ، فلا تجادف بشبابك ،
وتريق ماء صباك على اقدام الفتن ! ..

- ان الفن يا امي ، يحفظ الشباب ويرفع اسمه الى الارجح
الاسمى !..

- أهناك ارجح اسمى من السماء ؟

- السماء وراه الحياة يا امي ! اما الفن فعلى وضوحها ، السماء
غاية ، اما الفن فواسطة .

.. وماذا يفيد الانسان اذا خسر السماء ؟..

- لم تنشأين هكذا بصيري ؟ فكيف خسر السماء ؟ فهل
أعدت السماء للكهنة وحدهم ؟

ألا يحق لي ان اربيع مواعي واربيع نفسي ؟ .

ألا استطيع ان اكون ابن الفن وابن السماء ؟

امي ؟! وعظام ابي لا تقفي لي حاجلاً دون بلوغ امنيتي . دعيني
اكمل طريقي الجديد بامارت . دعيني ابلغ المرتقى الذي اراد في
خيالي ! آه لو تستطيعين ان تفهمي الفن ، بل لينتك تفهمينه . انه
الوميض الباهر الذي يسير زواجا النفس المظلمة . انه المهييع الرحب
الذي عبرت عليه مواكب الخالدين . انه همس الله !..

خذني هذا الكتاب ! تصفحه . حذقي جيداً فيما يحوي عليه
من خلود ومجد ، وانظر ان تموت .

انك تجهلين القراءة الغربية ، ولكنك غنية بالذوق ، وبقوة
الاستنتاج اقرأي بخيالك ، واستوعبي ببصيرتك ، انك امام الفن ،
والفن وحده يجعل الناس كلهم امامه سواء ..

اجلسي في معاني هذه النابل ، ألا تجدن ان الانسان يشترك
في اعمال الله ؟ .

ماذا ترين بهذا الجسد المديد، وبهذه العضلات التي تكاد تختفي؟
ولكنها تختفي، واختلاجها يريك الذعر البارز في عاتق العبيد...
وماذا ترين في هذه المرأة الخائبة على هذا الطفل الأبلع الجبين؟
ألا ترين الاطشتان منجسداً في ابتسامتها؟
انها الامومة يا امي! الامومة التي تفقد شريعة السماء
بأخلاص!...

ألا يحق لهذا النحات الذي استخرج من فكره الحياة ووضعها
في الصخر الميت، ان يكون ابن السماء؟..
ألا يستطيع الكاهن ان يجاري عذبا اورثه لعالم ولثقافة
وللاجيال؟.. فلما هو عمل الكاهن؟ الوعظ عن السماء؟ وماذا
يقول اكثر من الانجيل؟ انا لم اسمع كاهناً استطاع ان يحرك
قلبي بخلجة واحدة بحب المسيح. ولم ار كاهناً بدا على وجهه ظل
واحد من العذوبة التي كانت منطبعة على وجه المسيح!
فالكاهن اعتاد ان يتخذ لعظاته طريقين لا يجبد عنهما، فاما
بصور المسيح امرأة مائعة وبسبي هذا الميعان، ودائمة، او
يظهره غصوباً عائياً ويدعو هذا الغضب جيرون. مع ان
المسيح لم يغضب ولم يبع. ولا كان عائياً ولا كان ودعياً. بل
كان فلاحاً ماهرأ يعلم الارض والنبات، فيضع في كل تربة ما
يرافقها من الاغراس والبزور. وما هذا ذلك، فهل كان المسيح
الا سفينة اقوى من العواصف، وبحراً لا انواء في اعماقه؟..
فتنهدت الأم متأسفة، وعركت يداً بيد وقالت: أعذا الذي
تعلمت بأخوينا في مدرسة الروح والذمة؟..

فانتفض طويها وقال : أفي كلامي الحاد يا أمي ؟
فقلت : وهل هناك الحاد أشد وأبلغ من أن تشبه المسيح
بشيء أرضي ؟ .

كان طويها يتكلم ويبعث بصفحات المجد الفني . وعندما غضبت
أمه من تشبيهه للمسيح بالسفينة والبحر ، بدت أمامه صفحة تجمع
عدة غائيل للمسيح . فقال : هذا مسيح الفنانين فقابليه واحكمي !
ألم تري مسافة الأبدية في هذه النظرات ؟ .

ألم تسمعي سكوت السماء في هذا الاصغاء ؟ .

ألم يبد لك مجد أبيه في ارتفاع هذه اليد ؟ .

حدقي جيداً . اغرزي حدقتيك في الصخر ! فإن الغضب ؟
وإن الميعان في قوة ابن السماء ؟ .

فحضت الأم رأسها ، وقيلت الغائيل قائلة : يا سيدي يسوع
المسيح أتر طريق ولدي ! ..

فاجفل طويها للدعاء . ودكع لدى أمه قائلاً : أمي إن في
دعائك الصادق قوة تنقل جبال العالم إلى أيمانك . فسيكون
طريقي مناراً بصلواتك ، وسأظل ابنك البار ! ..

في هذا الوقت المهيّب ، دخل نفر من الناس ليعزوا الأرملة
ووجدها ! ..

التجربة الاولى

لم تلامس اجفان طوبيا عفة واحدة مع كونه الليل عادياً
فأغمضت العيون ، فالعوامل التي مرت عليه في نهاره ، أوقفته جديداً
في طريقه الجديد ! .

وذكر مدرسته وقانونها ، وتقواها وحملاتها . ثم فكر في أبيه ،
في ذلك الرجل النقي الضمير ، الصادق الانجاد في رحاب العالم ! .
وتنهى طوبيا . ولأول مرة يحس عملاً يغشي صدره الحر
الظليق . ألا يكفيه عملاً أنه أصبح فقيراً والفقر بحيلة المشاق ؟
ألم يحرمه الفقر الكهنوت ؟ .

انه كان زمعاً انت يتحدث عن المسيح . عن تلك الدائرة
التي جمعت السماء بالأرض . عن ذلك المعين العذب الذي أروى
التوبة العفراء في نفوس البشر ! . عن السفينة التي لا تقوى عليها
العناصر . والبحر الذي لا انواء في انماقه ! . .

وتنهى ثانية في انماق روحه وقال صاحك الله يا ابي ! . ان
ادارتك وارادتك خسرتني الكهنوت !

وظهرت لطوبيا صورة أبيه ! ظهرت كما رواها لباس امين
الجوري الفلاح الامين . كما هو يحس على الفقراء باسمياً . ويقرض
الفلاحين مشجعاً . ويبيع زيتاً بريئاً . اكان والده كاهناً ؟ وهل
ينال الكاهن مركزاً اسنى من مركز أبيه في السماء ؟ . . !

وعذر أمه على الطاحوسا عليه . ونسب رغبته في كهنوته إلى
دينها القويم ، وإيمانها الحلي ! وماذا يجب أن ينطلي الامهات بأكثر
من ذلك ؟ .. اما كان رئيس المدرسة يردد على مسامعهم دائماً ،
أن لا إيمان بدون دين ولا آداب بدون إيمان ؟ . إذن فامه حاصلة
على كل المميزات التي يجب أن تكون في الكاهن ، حتى المعرفة .
أن أم طوبيا متعلمة ذكية تحفظ أكثر آيات الكتاب المقدس
غيباً عن العهدين العتيق والجديد . وتروي لحدثاتها قصص الانبياء
والاستشهاد القديسين .

والسف طوبيا أن لا تكون أمه تحب الظهور ، فكم كانت
فخوراً لو يراها واقفة موقف نجلاء زوجة معلمة تعرف من نجلاء عن
عظمة شرفها ! ..

وسره أن يستعيد كلام نجلاء . فوقف عن التفكير منذ كراً .
ولكنه لم يستطع إعادة جملة واحدة كما سيكنها هي . وفرك
صدفيه بكفيه . وخطت جيبته كأنه يعتصر دماغه ليعود إليه ما سمعه
من فم نجلاء ، ولكنه عاد مخذولاً واستقط يدبه على فراشه بارئخاء
كأنه استسلم أضعف ذاكرته العصبية . . ولما أراد أن يعرف
السبب في احجامه عن المذاكرة تراءت له نجلاء بوجهها الصبيح
وقوامها المديد الأمد .

فوجهم أمام الرؤيا والسلس القياداً ثرور الصور في رأسه . ثم
ضحك من نفسه إذ رآها أول مرة فدخل المحترف ، وظنها مثلاً
للذات ، وفكر في ثنائها فوجدته يحجب كل جمال ، من افروثيت .

الى الزهرة . الى عشقوت . الى العذراء . وشاء ان يقول العذراء
فشعر بسوط الخطيئة يلسع نفسه ، وشعر بجرح نفسه ينزف دماً
ابيض من عيبيه ! . فاستوى جالساً ورسم اشارة الصليب على
صدره ، وندم في اعماقه ..

ولما اتم صلاة الندامة تنهد وقال : ما اخطر العالم ! .. وعاد
يحاول النوم ..

ولكن النوم لا يدنو من ذوي الافكار البعيدة المرامي
العميقة الغور ، انما الندم جود التلافيف في الرأس عن عرض
الصور ، واعادة الاصوات . وكيف ينام طربيا وهذا صوت
صريح النبرات يقول له معنفاً :

ابنه طوبيا ! ان الطريق طويل . وفراسخ الوصول لا عداد
لها . فما بالك تتخاذل في الخطوة الاولى ؟ .

عد الى مدرستك ! انك لضعيف عن اللحاق بمواكب الخائدين
من ابناء الفن . ولثوب الكهنوتي سياج يحفظ الضعفاء ، فكيف
كاهناً ، ان يدريك احري بحسد الفادي ! وانتفض طوبيا اذ كان
يسمع صوت ضيمره واضحاً كأنه صوت شخص منفصل عن شعوره
فقبل يكون النعاس ملك ادراكه ، فرأى حلاً في غفوة عابرة ..
وتزل عن سريره وراح يفصل وجهه بالماء ليزيل النعاس الوهمي
عن عيبيه ..

ثم عاد الى فراشه واخذ سبعة يصلي ..

وتلا قانون الايمان بورد وحرارة . وكانت مغمضاً مطرفاً ،
خاشعاً . بل كان منخطفاً منفصلاً عن الارض عالقاً بجبال السماوات

ولما لفظ « ونترجى قيامة الموتى » وقف عن الصلاة وسأل نفسه :
أيقوم الموتى ؟ « وكيف يقومون » ؟ « وبأي جسد يأتون » ؟
وهل أرى أبي في اليوم الأخير ؟ وإذا رأيته على معرفتي ؟ .

وشاء أن يرسل بسؤاله ، وإذا بذلك الوثني المؤمن يبدو
امام عليه بلحيته الشقراء المرفوعة ، وقامته الطويلة المنتسفة . وإذا
بصوته النحاسي الرنين يزغق في أذنيه : « أيا الجاهل ! إن الزرع
الذي تزرع إن لم يميت لا يعيش ! .. »

واحس طوبيا سوط الخطيئة يلسع نفسه للمرة الثانية . ولمس
ثم نفسه يخرج من صدره تهديدات دامية . فارتجف . وخاف .
وتصب من وجهه عرق بارد كمقبض الموت . ملهب كالفج الجحيم !
فجأ في فراشه . ورفع عينيه في ظلمة الليل وقال :

أستغي واشك في ليلة واحدة ؟ .

أشوه جمال نفسي بمرحجين ناشرين ؟

أتهاجني الخطيئة وسبحتي في يدي ؟ .

وذكر ابتهاج أمه فرده : « يا سيدي يسوع المسيح أنظر طريقتي !
ثم رمى السبحة من يده ، وأدار أنظره في أرجاء الغرفة وقال :
اللهم شدد قواي واحمر ضعفي . اللهم ساعطني واعص عن سبأتي .
وإن كنت ترى أن يدي أحرى بحسد القادي فساكون كاهناً ! .
ونام طوبيا حتى دخلت الشمس نوافظه .

نماذج الامم

نهض طوبيا متعباً منهو كآء. ولما قابل امه في غرفتها ، وجدها غارقة في ندمه الجلود الفنى ، مدققة في كل مثال على حدة .
- صباح الخير يا ماما !

انعمت صباحاً يا حبيبي ! تعال واجلس قربي . ان كتابك هذا الجميل ، ملأ نفسي وقلبي بالسوى والعزاء . لقد سهوت مساء امس حتى منتصف الليل ، وها انا منذ ساعتين لحدق في جهنم ! .
بالحقيقة يا طوبيا ان الفنانين اسى من البشر ! وان من يستطيع ان يخلق جسداً ، لا يخشى عليه من اضاءة نفسه . . لقد لفتك يوم قلت ان الكاهن لنفسه فقط ، اما الفنان فلا مثل والتاريخ والجلود . فاي كاهن يستطيع ان يلا قلبي بالعزاء مثلاً مثلاً هذا الكتاب ؟

نعم املاً قلبي عزاء ! وهل هناك عزاء اكمل من ان اكون امماً افنان ؟ . ساحمل اميك يا ولدي . واعتبط بشيرتك العالمية . ستكون شيخوختي مكافئة بشيب السعادة الوعيد !
ستوقع نفسي الى المجد ، يوم اراك تحت شتات اميك ، واجدادك . . وشال الام اسزينة .

هجرني طوبيا بريقه . ونهياً يقول لها : انى عدلت يا امي عن علم النحت ، ولكن نظرات امه الجديدة للماعة بالغبطة والفرح

أوقفته فخل ساكناً .. اما أمه فظلت تنكمر :

ليتني استطعت القراءة العربية يا ولدي ! لكنت اعرف اسم
كل شئال وقصة ناحته . وسيره الساريجي . ولكن ليس انذب
ذني . فالذنب ذنب هذه الامة المراجعة التي لا تنقف الامهات
ليفتحن طرقاً صالحة لاولادهن ! .

فقال طوبيسا وفي صوته بحمة الندم : إن تقوى الام يا امي ،
خير من ثقافتها . وإنت أماً تهب وحيدها للرب ، لأحمى من ام
تعرف لغات العالم !

- ولكن الرب لم يقبل هبتي . فرأيت ان اهبك للاجيال !
ان مواهبك الفنية حرة بان تنتشر في العالم . اما الكهنة فكثيرون
و كثيرهم يقاتل احترامهم . ما داموا يحكم الاجتماع يحملون جميعاً
تبعة فرد منهم .
- لم افهم ما تفصدين يا أمي .

- أيذا المقداد ترى كلامي غامضاً ؟ . لنفرض ان في بيروت
خمين كهناً . ولنفرض ان كهناً واحداً عثر ، ألا ترى الناس
يظلمون الكهنة كلهم و يدينونهم دينونة افتراء ؟ ..

- ولم يعثر الكاهن ؟ .

- لانه بشر يا ولدي . والبشر ضعفاء ولو اكنسوا بانجينة
الملائكة ...

- ولكن الثوب الكهنوتي - ياج للضعفاء

- ايقف السباح بوجه النار ؟

- انه يقف ! فلو لبس الكاعن مسوحاً مثلاً ؟

- اتعني الراهب ؟

- نعم الراهب ! ذلك السجين القديس الذي يغوب جسده
تقشفاً ، ليفذي نفسه نعمة وحقاً . ألا تذكر قصة اب الرهبان
الاكبر انطونيوس الكبير ؟ . لقد قاوم بشو به قوة الخطيئة ودحر
جنود الشيطان وظفر الى الابد ..

- مالنا وللبحث في هذه الامور باطوبيا ما دمت قوت
مصيرك ..

- لا بالمي ! اني لم اقرر مصيري بعد . لقد سمعت دعوة اني
في هذا الليل ، ورأيت نفسي عاجزاً عن اللحاق بنواكب الخالدين .
فحزمت عزماً ثابتاً على ان اكون راهباً فاسير على الطريق الذي
يرسه لي اخواني الرهبان . وهناك في احد الاديرة البعيدة عن
ضجيج العالم ، انشد خلود روعي في سعادتها ! اما اسمي ! اما
شهرتي ! اما مجدي . فان هذا كله كالرعد يقصف وينواري .

- و ارادة اميك ؟

- نحاول ارادة اني عندما رآني أصبحت فقيراً لعلمه ان الفقر
يقتل في الانسان مواهبه ومؤهلاته . ويوقفه غريباً بين ابناء جنسه ،
وان اني لعلى حق . فهل رأيت فقيراً له كرامة في محيطه ؟ رأيت
فقيراً يضعبك ضحكة صافية لا اسرار فيها ولا آلام ؟ رأيت
كلهنأ فقيراً ، ولو مهما كان عالماً وفاضلاً ، إلا محتقراً بالنسبة الى
درجة المقدسة ؟ .

كل هذا تراهي لاني . واني كنت مختبراً فاضحاً ، حبيبتك
الابام ، وحفظته التجارب ، فكان بعيد النظر ، كثير التفكير ،
صادق الاستنتاج ! .

لذلك يا امي . ولاجل ارادة ابي الاولى ، سأكون راعياً .
والواهب والفقر صنوان ...

ارنيت صوت الام ، وتلجج الكلام في حلقها ، وهي تقول :
راعب ؟ سجين في دير ؟ بعيد عن امك ؟ وكيف تعظ ؟ ومن
يسمع من قبلك كلام الله . ومن يستفيد من علومك ؟ ومن
يكون مثلاً للشعب ؟ ومن يصير جبراً فخوراً لديه الهام ؟ .

لا يا ولدي اكمل طريقك في طلب مواهبك الفنية ، لئلا
توت . ان الرهبنة مقبوضة المواهب يا طوبيا . فلا تخسر بلادك
رجلاً غليماً . وتخسر امك غبطتها وعناصها . فتضطرب روح ابيك
في سجاها ! .

سافكر يا امي ، سافكر ! قال هذا ونهض مستنجحاً امه
بالذهاب الى محترف الفنان البعيد اليه كتابه .

فأعطته الكتاب ، وقد تحوالت دموع الحزن الالامعة في
عينها جفافاً ، واستقرار رأيا دحشة ، فتمت : ليرافقك الله في
الحجاءك ، ويحول ترددك بنهاية مباركة ! .



لم يجد طوبيا معلمه في محترفه ، فصدد الى مسكنه وفرع بابه
وخطوق قلبه يتراعى على وجنتيه شغفاً بعيد المدى ، غامض الحقيقة . .

ولما فتح الباب ، اطلت نجلاء مكشوفة الوجه ، كثيفة . وما
كادت ترى طويبا ، حتى استضاء وجهها بالترحاب وانجلى كتابها
حتى صارت فتحة ناعمة ، تستوي على القلب فيطمئن ، وتنظم فيه
الحفقات الملحة . اما وجهها ، فقد نورته ابتاغته ، ووشته بحصب
الشباب ، حتى بدا يانعا كالشجرة التي تنادي اليد القاططة ...
فتعسس طويبا شقيقه بلسانه ، كأنه يتذوق ظلال الجمال
المنعكس عليها ، او يرطب الجفاف الذي احده عطر العناب ..
وسأها طويبا عن زوجها . سأها بنغمة مخنقة ضاع نصفها في
حنجرته ، اما النصف الثاني ، فقد انطلق عن لسانه ككرة الصنج
الذي تقف ، وقبض عليه ، فقضت الكف على طريق الارحاج ...
ولما اجابته نجلاء ، كان صوتها ووشتها ناعمة كعفيف الجراح .
ان زوجي دعي منذ ساعتين الى ديوان المتصرف ، ولا يلبث
ان يعود ...

ودعته للجلوس في الردهة المزينة بالازاهير والرياحين . وفدمت
له المرحطبات وقطع الخلوى بيدها . ثم جلست تتحدث اليه ،
بطلاقة وزلافة لم يعهد لها بامرأة . ولكن أنى لطويبا ان يعرف
النساء وبجالة النساء ؟ ان تلامذة الاديرة غريبون عن المجتمع .
ولا سيما طلاب الكهنوت منهم ، فكثيرا ما يحملون على وجنائهم
حياء العذارى المطلات حديثا على البلوغ . وسألته عن استعداد
الفن . وابن تعلم مبادئه . وعمل له ثمانين ولوحات ؟ فكان يجيبها
بالجواز . والحياء يخضب وجهه بالبرامة ، ويعلم حدة عهده
بالاجتماع ...

وطابت اليه ان يصحبها الى غرفة الرسم ، حيث يشتغل زوجها
مصوراً ايضاً . فتبعها . وادخلته الى قاعة فسبحه كثيرة النوافذ .
ولكن نوافذها جميعها محلاة بالسجف الجميلة . وفتحت احدى هذه
النوافذ ، فانسكب النور على مجموعة لوحات فنية . وكأها تفرحي
ورمزي . كلها يفيض بالحياة وينكم بالاسرار . . . ووقفه امام
لوحة كبرى . لوحة فانت اكثر اجادة الفنان . وقالت : ان هذه
اللوحة احب الي من كل ما تحت جويزف وما رسم ، لانها تمثل
لي ضعف الرجل وجمال المرأة . بل تمثل لي جبروت الرجل وامثال
المرأة . . . رأيت هذا الرجل المطلق من قمة قصره ؟ انه داود . داود
الموسيقار والشاعر والمالك . ثم رأيت هذه المرأة التي تغسل
وجمال جسدها بخسف بريق الماء على جسدها ؟ انها زوجة اوربا
القائد في معسكر داود ، لا حاجة الى شرح القصة ، فانت ادري
بها مني ، على اني اشرح لك بعضاً مما حببها الي :

الجرأة في الرجل هي كل ما تصبو اليه المرأة ، وداود كانت
جريئاً ، وجرأة داود وحدها كافية لان نفسهم اليه زوجة اوربا
البارعة الجمال . على ان داود شوه جراته بالخدعة التي اودت
بالقائد الزوج ، لتصبح هذه التي نيمت فزاده سائقة له . . .

ولكن ليس هذا الذي يجيني بالصورة وحده . فهناك حالة
معنوية ثانية غير الجرأة . ان هذه العارية المغتسلة جاهلة كل الجهل
ان عيني رجل واقبائها . ولو عرفت ذلك فربت غير حاقلة بالملك . .
افاهم ما اقصد ؟ اني اراك خجراً من هذه الشرور . واكني
اعذرك ، لان النساء ما خلقن لمثل هذه البحوث النفسية .

فذكرت طوبيا الجواب وقال: لا بأس يا سيدتي . فالمرأة كثيراً
ما تكون أدهف حساً من الرجل ، ويقدر ما يكون الاحساس
مرحفاً ، يقدر ذلك ما تكون المرأة عميقة مفكرة ...

فقلت ودة الفرح تزن كلماتها :

اذن لست ضحيراً مني !

- حاشا يا سيدتي .

- أتعرف لماذا ترفض المرأة ان يراها الرجال غاربه ؟

- واي شأن لي يا سيدتي بهذه المعرفة .

- شأنك انك ستكون ضالاً وكثيراً ما تحتاج الى مثال غار

- المسافة بعيدة بيني وبين هذه الحاجة ...

- على كل حال ستحل يوماً ..

فيعرض طوبيا بريقه وحاول ان يعبر الحديث . ولكنها
تابعت : المرأة الثانية الدرجة الاستئثار يا طوبيا . والانتها علمها
ان الرجل يرمي بالمرأة لا لتكونها انسى والانتى تسمه الرجل . ولا
لانها جميلة والجمال نشوة الحس . بل لانها متبعة ، مجهولة ، خجول
لطيفة . فاذا ما رأى الرجل عريها كرهها انسى . وكرهها حميئة ،
واحت من شئاله تلك الصورة البعيدة التي تخفي جوهراً ..

- اني احترم كل امرأة هذا شأنها . بل اقدسها والنظ احبها
كتمسكة صلالة .

- صحيح يا طوبيا ؟ صحيح . كانت شريف وريء . ولكن

انفرض انك ستحتاج يوماً الى مثال ؟

- ألم اقل لك ان المسافة بعيدة بيني وبين هذه الحاجة

- على حبل القرض !

- لا تستطيع الجواب يا سيدتي لانني ما برحت احبا بنفسية

كهن ..

فرغ الباب ، فذهبت نجلاء لتفتح ، وجلس طوبيا في الردهة المزدحمة . ودخل الثناث متهللا كأنه حامل بشري سعيدة . ولما رأى طوبيا هتب مرحبا وجلس اليه يخبره عن نتيجة الاجتاع ، وهي انه قنع ان يتقاضى عن الثناثين الثلاثة ابرة عثمانية ذهباً . على ان يكونا جاهزين خلال سنة ..

فدعش طوبيا ، وردد في نفسه : الثلاثة ذهباً ؟ خلال سنة ؟ انه ليلعب باهظ ...

وتبع الثناث : وغداً سأذهب الى الجبال فابحث عن رجل متوفرة فيه تقاطيع المثال الذي اود .. فقال طوبيا : ألا تجد عنا ؟

- هنا في بيروت ؟ قال هذا وراح يقفه حتى الاستلقاء على ظهره . ولما عاد الى استوائه ، قطب حاجبيه ونكلم جاداً : ان مثال آدم يجب ان يكون رمزاً لنواة الوجود . قوة ولا مبعان ! عظمة ولا دناءة ! انفة ولا تهتك !

ان مثال آدم يجب ان يكون من لوائك الذين تعاهدوا والارض على الاخلاص ، فبادلتهم الارض القوة والمناة والاباء .

مثال آدم مثال المجتمع كله . بل مثال الخليقة بالجمعها . مثال السر الذي لم نعرفه اكثر مما قرأنا في رواية موسى : وكانت

الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلام ، وروح الله يرف
على وجه المياه ...

ان موسى الذي أراه روح الله يرف على وجه الغمر ، راسماً
على تلك الصفحات الغلامية رسوم الأزال والآباد السكينة في خبير
الله ، لا يرضى بان يكون أول إنسان ، خائراً ضعيفاً ، ضائعاً في
مهبه الوجود ! ان الروح القوية الجبارة التي رفعت على وجه الغمر ،
أوجدت انساناً قوياً كالارض . أما قال موسى : « ان الله جبيل
الانسان تراباً من الارض » ، ونفخ في انفه نسمة حياة فصار
الانسان نفساً حية ؟ ..

لذلك ، فاني صانع آدمي كما صنع الله آدمه . ساجدت عن
رجل من أبناء الارض . في عضلاته قوة الطبيعة . وفي اساريه
عزم الفصول .

سأري أبناء هذه المدينة آدم لا يخالف ، وحواء لا تستهي .
سأبرهن للمتصرف ان الثلاثة ذهبية لا تساوي بسمة بريئة
من شفتي حواء التي سأخلقها انا !!

قال النحات انا ، ودقق بعظمة وثقة لم يرها حلوبيا في الانسان ،
فهل يكون توهم نفسه لها ، زمعاً ان يخلق عالماً جديداً لا ...
ومشى الفشار ذهباً وجبة ، وشفتاه ترتعشان كأنه يسكك
في سره ...

وحدث اليه حلوبيا يرفح حركاته العربية الشاذة ، تلك الحركات
التي لا أنت بصلة لا الى الفن ولا الى الثقافة .

وحديثه نجلاء بنظرة غريبه مرقحة ، هذه الطفرة النفسية ، ثم
أقتربت من طوييما تحدثه وتصرف نظره عن فنانها الغريب الاطوار
الكثير الاوطار ..

ولكن الفنان لم يدع انجلاء فرصة للمحادثة ، وانما اتهمها
اتهاماً : نجلاء ! دعينا نتم حديث مشروعنا الجديد . ان احاديث
النساء اللواتي ، لا نهاية لها الا بالرجوع اليه .. فابن القهوه ؟
أنسبت انني لم اتناول في هذا الصباح سوى قطعتين من الحلوى ؟
ألم تعرفي أن من كانت روحه طليقة وثابة مثل زوجك يحتاج
الى تغذية حقيقية لينوى جسده على مطالب روحه ؟
فإنسبت نجلاء وتهضت نهوضاً مسرحياً موهماً بالغنج والخيلاء
ونوارت ...

وجلس الفنان يحدث طوييما : غسداً تبدأ بالعمل . اني اتوسم
فيك نشاطاً ودكاء مفرطاً .

- شكرآ يا سيدي ، حسبي ان انال رخصاك .

- ماذا رأيت في الكتاب ؟

- لقد اعدته معي . واليكه !

- لم لم تبقه عندك بعد .

- لاني ... وكاد طوييما يقول عدلت عن علم النحت ، ولكنه
لم يقو على الفظ كاملته لان ذكر الذهب ما يروح عائلته في قلبه ،
هذا فضلا عن شوقه الى مرأى المثال الذي سيأتي به سيده من
الخيال . فاردف لاني نصفته كله مساء أمس ..

فضحك الفنان ضحكاً مسجلاً وقال : أظننت أنه نموذج
لخياطين ؟ أم خرائط بناء للمهندسين ؟

إن في هذا المجلد أجيالاً لا تضاهى . وتارة فرائح إن تنضب .
فعليك إن تدرسه بامعان إن شئت إن تكون إله الصخور ..

ارتعش طوبيا كأن سلكاً مكهرباً منه . واستعاذ بالله من
جنوح معناه وأنبياءه في التعبير . وإلا ما بالله يقسم الخليفة ويفوز
حامداً عن نيابته ، وأحياءها عن طبائعها ليضع لكل عنصر إلهاً ؟
وامنعش الأكليريكي في نفسه ، ورأى نفسه جريئاً فقال :

إن زمن تعذاء الألهة نوارى مع الجهل . فإفنا واحد فقط .
وما الصخر ، وفاحت الصخر إلا أرادة الزليخة كانت في ضمير الله
منذ الأزل ، وسبقني إلى الأبد الأبد ..

فنهيب الفنان . في مجلسه ، واجاب : حتى الفلسفة اللاهوتية
ضرب من القنون . أنها ترضي ولكنها لا تشبع ! وتقع ولكنها
لا تسلم من الجدل .

نحن في رحاب الفن ولنا في دائرة اللاهوت .

نحن في بيت الفن . وبيت الفن بيت الله !

دخلت نجلاء تحمل القهوة بنفسها . وفدمنيا بلطف الشهي من
القهوة . ولما تقدمت من زوجها ، تسلمت وقالت : تعذ !

لم يجب الفنان بل راح ينحس قهوته وعيناه ترقبان البخار
الرفيق المتقاعد من « عجبانه » ..

سكت الجميع ولم يسمع صوت إلا صوت ارتشاق القهوة . على
أن نجلاء كانت تتكلم كثيراً بعينها إلاغاذلين ! أما طوبيا وكان

مصبأ الى الحديث ، مرتحاً الى هذا الجبال الصارخ في كل عضو
من اعضاء نجلاء ..

وقرعت الساعة عشراً . فنهض الفنان قائلاً : الى العمل يا
طوبيا . ونهض الثلاثة . ومد طوبيا يده الى نجلاء مودعاً والحياء
يشعل في وجنتيه جذوتين من البراة .. ومدت نجلاء يدها . هذه
اليدين الاثيرة الملمس ، السجانية الاديم ، الوردية اللون ..

وابتسمت قبداً لغرها الفحل ، كزهرة اقاج ، في عذانة
صباح ! واعتزت البدان ، فشعر طوبيا بان قلبه يشق طريقاً بين
ضلوعه ويخرج . وخرجت زهرة مخوفة من فم نجلاء ، عندما
انحلت البدان ..

مهودة

طوبيا في المحترف ! يطوف حول التماثيل العديدة وقلبه ينبض
بالشوق الى النهاية الاخيرة التي ينتهي عندها فنه . فمضى يستطيع ان
يضرب هذه الضربات الجريئة ليخلق الاساور ومعاني الاساور ؟
من يسيطر على الصخور ويجعل منها احلاماً وصوراً وشعراً
وتاريخاً ؟ ..

واقرب من معلمه . وكان الفنان دائماً في العمل . وكانت
يده تملو وتندرد تبعاً للخطوط الاولى . وتابع يده بتظرفة مسددة
لا تحيد . بل تابع الخطوط التي يمر عليها الازميل محدثاً موسيقى
من اوتان الضربات . ان معلمه ماهر مسيطر على الحديد ، والصخر
معاً . بل مسيطر على خيانه الطليق المزوم ، يأمره فيلبي . ويدعوه
فيستل ! من هو الانسان حتى يخلق ويتدع ؟ انت العمل الباهر
يقربنا من الله ! هكذا فكر طوبيا ، ورأى نفسه مشتاقاً متغوّفاً
بل رأى نفسه نوافاً الى العمل . وغنى لو يسلمه معلمه الطريقة
والازميل ، ليعلم شوقه وشغفه بالاجادة . على ان الفنان داعب
في ضرباته السريعة لا يلتفت ولا يتسهل . والخصى الدقيقة تتطايير
من ضرباته ، كأنه قطع النار الذي يرفقه الفن ليظهر الانسان !
ودام العمل ساعة . والسكون يزيد العمل جمالاً وتعباً . واخيراً
وقف الفنان عن العمل . وجلس يشعل غليونه . ولما امتص بضع

مجات ونفخ حلقات الدخان مرافقاً حركاتها بنظراته ، سأل طوبيا :
أعرفت مثال من هذا ؟
- كلا يا سيدي .

- جدي اليه ملبأً فماذا يبدو لك وراء عينيه الفاسيتين وفيه
الجاف ؟ وماذا يترامى لك من هذه اللحية النفور المنحرفة للاستسلام ؟
- أرى صراعاً بين الخطيئة والندامة !

- لا بأس بما رأيت ! على أنك لم تستطع الثبات من شروح
اللاهوت فقط . ان كلمة صراع جاءت محكمة بليغة . ولم تحظر
لي بالوغم عما فكرت في الوضع . وسأدعو هذا التمثال للصراع ،
ولكن الخطيئة والندامة لا شأن لهما في مذهب الفن . حتى ولا
في مذهب المنطق ايضاً . اذ لا نجتمع الخطيئة والندامة في نفس ،
فاما هذه واما هذه . فالجائع لا يستطيع ان يتخيل الشبع .
- ولكنه صراع على كل حال ، ومضى كان صراعاً يجب ان
يجمع التقيضان في النفس !.

- احسنت استنتاجاً . فالتقيضان المنصارعان هما الدعوة
والخوف من الدعوة . فالتمثال مثال يهوذا . . يهوذا الذي استقر
في عقول المسيحيين انه باع سيده بالفضة . وانه شرير مخائن . ولو
عرف مبغضو يهوذا انه الرجل الذي اعدته السماء ليفعل ما فعل ،
لاذركوا ان بغضهم اليه مخالف لسر الفداء ! . .
فتظر طوبيا مشدوهاً الى معلمه وسأله : ماذا تقصد يا سيدي
بهذه النظرية الخاصة ؟

فتبسم الفنان وقال : ان نظريتي ليست خاصة ، كما تظن .
وانما هي جوهرية يجب ان تعلن في المسيحيين على الاخلاق . فاذا
كان يهوذا مجرماً لكونه سلم سيده فيكون سيده صلب مرغماً .
والمرغم لا يحسب قادياً ..

انا لا اشك في كون المسيح صلب برضاه ليقتدي الخطاة
ومتى كان ذلك كذلك ، فيكون عمل يهوذا دعوة مفروضة وقد
قام بدعوته خير قيام فلم نكرعونه ؟

- اما انا يا سيدي فاني ارى يهوذا خائناً مجرماً مادياً اذ فضل
المعدن على ابن السماء ..

- ولنفرض ان يهوذا كان وفياً صالحاً ، وروحي المقصد ، هل
كان المسيح عاد الى السماء دون ان يصاب ؟ فتأثم طويلاً .
وليت يتذكر ما درسه من النظريات اللاعنونية عن يهوذا ، ولكنه
لم يعثر على جواب ، فظل ساكناً ..

فتبسم الفنان ابتسامة الظفر وقال : ان في سكونك ادعائاً
لما سمعت . وما دمت مدعياً لنظريتي اسمع يا طويلياً :

انا شخصياً ارى يهوذا قادياً ايضاً لان نوبته بالانتحار هي
نوبة سامية لا تقابل باقل من السماء جزاء . فاذا كان المسيح مات
لاجل العالم ، فيكون يهوذا مات لاجل المسيح . واذا كان
المسيح تم ارادته ومشيئة ابيه السماوي ، فيكون يهوذا تم دعوته
لاقام الفداء .

عذرا ما تراهم لي لما عولت على نحت فتال يهوذا ، لهذا الرجل

الطبيب المجهول الخلود . والا لكان باستطاعتي ان ابحث مثلاً
لبطرس ، واضعاً له ديكاً ينبهه الى شكوكه ساعة الحاجة الى
ايمانه ، فمن كان يفرق خلود الديك عن خلود المشكك ؟

فجرح طوبيا بريقه الجفاف وقال : سبدي ان الجدال في
المعتقدات ، يعجز الحياة . فمالنا والبحث في شؤون لا نت بصلة
الى الفن ؟ لقد جئت اليوم لافوق لك اني عدلت عن علم النحت .
واعدت اليك الكتاب . ولكني ما كدت ادخل الى هنا وارى
ثنية هذه التماثيل الخفية في سكوتها . حتى وجدت في ميلاً ما انكأ
على شعوري وارادتي وتفكيري . بل يكاد يهلك حياتي ، لذلك فقد
عزمت العزم الاكيد ، على ان ابدأ منذ اليوم . اما مثال بيوتنا
هذا فأرجو منك ألا نظهره اذا شئت شرح نظريتك في اظهاره .
لان العقول السطحية كثيراً ما تمنح لانفه فكرة جديدة ، لا فرق
عندها مفيدة الفكرة ام ضارة ...

— انا اشرح لك كتلميذ يا طوبيا ، والا ما معنى الفن اذا كان
يحتاج الى شروح ؟ ..

ثروة ضالة

أراك تعود بالكتاب يا طوبيا ؟

- نعم يا أمي . ان فكرك في الاخيرة رست على شاطئ الفن ..
اني لاخشى من ترددك العديم الاستقرار . بل من هذه الحالة
النفسية التي تكاد تنقلب فجأة الى ما يذل امك في مهابة شبحوختها ؟
- وحدي ثقتك بي يا أمي ! انت عناصر حبيبك لن تتحول
مدلة ، لانها مشبعة بروح الدين وتزاهة الدنيا ! .

- ومتى تبدأ بالعمل ؟

.. غداً . لقد عهدت رستم باشا الى معلمي بنحت تماثيل للحديقة
التي بناها عند جسر المدينة . وسيكون هذان التمثالان خير
بدئية اذ ادرس عليها تركيب الجسم ومراكز العضل والاعضاء ..

- وعلى التمثالان كبيران ؟

- طبعيان

- وكما يتقاضى عنهما الفنان ؟

- ثلاثة ليرة ذهباً !..

- مبلغ باعظ ! اينك نصبح فناناً .

•

جلس طوبيا و امه يا سملان .

وكان طوبيا يفكر في كل ما مر عليه عند النحات . فبداله

ان هذا الرجل غبور على نجلاه . وغيرته عليها تحز في قلبها وتذيقها
الآلام . وإلا ما هذه الكتابة المرسمة دائماً على وجهها ؟ ..

وآله ان يرى نجلاء متألمة . اما لماذا ؟ فلم يدري . فممكن يشعر
باحساس غريب عندما يراها مكتئبة . وكانت يحس انها شاعرة
بشعوره . فهل يستطيع يوماً ان يعرف سر كتابتها ؟

كان يفكر ناسياً انه جالس الى مائدة الاكل . بل كان يا كل
ولا يدري . ولما عرضت له غصة في حلقه ، وشاء ان يستدر كها
بالماء ، وجد قدحه فارغاً . ولحظت امه هذه الغفلة النائية . فتبسم
لامه . ولم كانت تلك الابتسامة غنية بالمعاني . ذاخرة بخلصات
الاسرار ...

ونظرت الام اليه مؤنية . ففرض طرفه خجلاً . ولم ينكلم .
ونكلمت الام : هل بحثت في دفاتر ابيك يا طوبيا ؟ ان لنا
اموالاً خائفة بين الناس . ونحن بحاجة ماسة الى المال المستطيع
ان نعيش . ثم سألت معلمك كم يتقاضى منك بدلاً عن تعليمك ؟

— لا لم اسأله بعد . وقد فكرت . ولكنني خجلت !

— خجلت ؟ ألم تعلم ان خجل الرجال ، كثرة النساء ، سيما
عثرة في سبيل صاحبه . فيجب ان تخرج عن جودك يا طوبيا .
انك تخطو الخطوة الاولى لتدخل العالم . والعالم ذئب خار يتربص
لكل خروف مثلك .

— وكيف تريد ان اكون ؟

— جريئاً . شديداً . لسنأ ! ومن كان مثلك منقطعاً من

العلوم مسترشداً بالتواريخ ، جامعاً مشبعاً ، يستطيع ان يقود
مواكب الناس - فهب انك صرت كاهناً . فماذا تفعل ؟
- افعل ككاهن !

- اذن مرن نفسك على ان تفعل كفنان . اليس معلمك لساناً
شجاعاً ينعطف بكلامه نحو الزهو والمباهاة ؟
- انه نبع متدفق بكل شيء ... !
- وهكذا يجب ان تكون !

- شكراً يا امي . ان عظام الام تنطبع في القلب مستقراً
غيات القلب ...

قال طوبيا هذا وذعب بجمل دفاتر ابيه يعن فيها نحيصاً ..
وكم كانت دهشته مفرحة ، عندما عثر على مبلغ جسيم من القروش
التركية ، لايه في ذمم الناس ..
وحمل الدفاتر الى امه يلفت نظرها الى الارقام -

فضحكت امه بالرغم عن حزنها الشديد وقالت : اظننت انك
تريني رسوماً يا حبيبي ؟ . كن رجلاً واحسب ان لا ام لك ..
ولكن طوبيا ظل مندفعاً بفرحه : ان لساناً في ذمم الناس
اربعين الفاً من القروش يا امي ! انها ثروة . ثروة باعظة !

- ارايت ان اباك لم يترك ماله ضائعاً ؟ فعلبك الآن ان
تكتب لائحة باسماء المدينين ، ونذمب بنفسك اليهم . ولا ارى
ان احداً ينكر ما عليه . وهكذا يمكنك ان تكمل علومك ..
- سأفعل يا امي سأفعل !

الصدقة ١١ ..

ذهب الفنان الى الجبال ليهبت عن رجل يسلام وفكرته في
تكوين آدم . لقد ذهب منذ خمسة ايام ولم يعد . وطوبيا ما يروح
يزور نجلاء كل يوم منذ سفر زوجها ويتحدث اليها ويستمع لها .
وكانت نجلاء تسر بجالسة طوبيا وتستأنس به لما رأت فيه من
الصفات الطيبة والتعذيب الخلقي النادر ..

وفي اليوم السادس فلفت نجلاء على زوجها ، واوجست شراً
في غيابه الطويل . وسألت طوبيا : أمن خطر على جوزيف ؟
فاجابها مطمئناً وحلّى الغاية من ابطائه في العودة ، وكاد يقنعها .
وتهدت نجلاء كأنها ارقعت الى ما سمعت من فم طوبيا .
وتوطدت الصداقة بين نجلاء وطوبيا ، ولكنها صدافة صافية
بريقة لم يبدُ عليها غشاء جنسي .

وقصت نجلاء على صديقها اشياء واشياء عن زوجها . واخبرته
كيف عرفها . وكيف احبها ، حتى تزوج بها . وكانت تسكلم
واحلام الماضي على فمها . وسعادة الخاضر تتجلى في وقع كلماتها .
وكان طوبيا مصغياً الى حديثها لما فيه من الطرافة . وما في صوغها
من الموسيقى .

وكانت نجلاء ثقيفة فاضحة سامة الخلق . متروعة عن كل ما
يحيط من قدر المرأة من تبدل ، وحيل ، وادعاء اجوف . على ان

كتابة مكتوبة كانت مرافقة أسرارها . فان ضحكك فافتراؤا .
وان زعت فكما تزهو الزهرة الندية في مطلع الشمس . . .
وسأله طوبيا أناذن لي سيدني بسؤال واحد ؟ ..
- اسأل ما تريد يا طوبيا !

يا طوبيا ! فادته باسمه مجرداً دون تكلف . فسر طوبيا وحسب
نفسه فرداً من افراد العيلة . فقال :

كل ما قصصت عليّ يدل على انك سعيدة . مع اني اراك
كئيبة دائماً . وكأبتك تريني ان اسراراً دفينه في صدرك . فهلا
توحيين عن نفسك هذا العبء وتكشفين لي اعماقك ؟ لا بد
للانسان من حرز غير حرز نفسه ، ليضع فيه اسرارها . فهل استعق
ان اكون هذا الحرز فتريني حزيناً ؟

فتبسمت فجلاء كأنها تقول لطوبيا ، صدقت . ان كتابة لا
تعارفني ! ولكنها لم تتكلم . ثم انطرفت وتورد خداهما ، ونجلى
جمالها حتى سما عن الحديد . بل تألق وجهها بضياء لم يره
طوبيا قبلي .

وحقق طوبيا اليها وساد الصمت ..

الصمت لغة لم يفهمها الا نفر قليل من الناس ، لانها لغة علوية
لا تنال بالعلم . ولا بالاختيار . ولا بالمال ، وانما تهبط هبوطاً على
ذوي الشعور الدقيق فيرون بصائرهم ان الحياة ليست فيها ناكل
ونشرب . ولا فيها تسمع وتسمع ، ولا فيها ترى وتري . بل
الحياة كل الحياة فيها نشعر ونحس !

وطوبيا كان من اولئك الذين هبطت عليهم لغة الصمت .

مرفوع رأسه ، وراح يقرأ سطوراً كتبت بخلاجات قلب نجلاء . بل
يستجلي غموضاً في تلك المرأة الحبيبة التي ظهر دم قلبها على وجنتيها .
واشاحت نجلاء بوجهها من مرمى عيني طوبيا . وتظاهرت بأنها
تعبت بزهرة افحوان كجري في الخوض القريب منها وكانت تنثر
ثياب الزهرة وتزميها وشفاها نهزان عن وشوشة فاعمة كأنها نصلي .
ولما لفت نثر الزهرة عادت تنظر الى طوبيا ونبتسم بكآبة
اشد ، وحزن اعمق

فقال طوبيا : أأكون ازعجتك يا سيدتي !

- ازعجتني ؟ لقد اوحيتي يا طوبيا . لقد علمتني ان ه لا يسد
الافسان من حرز غير حرز نفسه يضع فيه اسراوه ه وبهذا العلم
رأيت ان تكون انت حرز اسراوي ..
- اه ؟

- نعم انت يا ... طوبيا ، فقد استشرت الزهرة لما كنت
انزعجا . فسكان الجواب الجباراً .
- أبتكتني اذن ان اعرف سبب كآبتك ؟ ..
- بكتك ذلك بدون خجل . وهل غاب عنك انت حياة
المرأة ولذة حياتها ، وانعم عيشها في ان تكون أما ؟

فانا عطشى الى ولد يا طوبيا . الى مرة احلي بيا مرارة الايام ..
قالت نجلاء هذا والقت بنفسها على متعتها تبكي . في هذا
الموقف ه فرع الباب . فوثبت نجلاء وتوباً بحفلاً وجفت دموعها
بوجل . وقالت جاء جوزيف ! . وثبت طوبيا وتوباً ، ووقف

كأنه يستقبل معلمه . وما فتحت الحادى الباب ، كانت الطارق
رسولاً يحمل رسالة من الفنان الى نجلاء ..
وقرأت لنجلاء عالياً . كتبها أصبحت لا تخفى امرأ عن حوز
امرأها :

عزيزتي نجلاء ..

منذ عشرة أيام وأنا في الفراش اقامي آلام الرضوض في
جسدي . فقد كتبني الجواد وانه منطلق في طرق الجبال فسقطت
عنه متدحرجاً نحو المياوي السحيقة . وما كدت اصطدم بأول
صخر حتى رأيتني محمولاً على مراكب الفلاحين اسياذ الجبال ، حتى
اوصلوني الى بيت وجيه القرية (....) لانه البيت الوحيد الذي
يحتوي على سرور ..

لذلك اطلت عليك الغياب ، وانت الوحيدة في البيت ، ولا
ادري اذا كان التلميذ الجديد يتفقدك من يوم الى آخر ، لاني لمست
فيه الوفاء والاخلاص .

انا مسرور هنا بالرغم من رضوضي المؤلمة . لان الحياة القروية
ملائمة جداً لاحلام الفن ، وغالب الفن . وراحة الفن ! فكم أرى
من الجديد في زئود الرجال المحبوكة حبك الجدوع ، وكم أرى
من الجمال في وجوه الصبايا الملوحة للوريج الثار في مطالع نضجها ،
بل كم احس من الفسطة عندما يتفقدني ابناء القرية مستعجلين عن
صحة الشواجه ..

ان هذا القلب التوكمي يضع في نفسي برودة طبقة من التعزية
التي احتاج اليها وأنا بعيد عنك . وعلى هناك تعزية اعنى في النفس ،

من الصاق ثوب مهم جداً لدى أبناء الجبال ؟ . وانني اعتقد لو لم
اكن في هذا الري الغربي الغريب هنا ، لجاموا يستعلمون عن صحة
الشيخ ، ولكن اني لي ان اكون شيخاً ولا سروال فضفاض
من الجوخ ، ولا زغار مزوق بالحري ، ولا صكويران ، مطرز
بالنصب ؟ ان للشيوخ هنا زياً خاصاً . اما الحواشي فهذا الذي
ينس كل البس طقساً فرنجياً . ساكون عندك قريباً ، لقد تركت
الفراش في هذا النهار وبدأت اشهر بالنشاط بدفع همتي للعمل .

غداً نهار الاحد . وغداً يجتمع أبناء القرية في ساحة الكنيسة
قبل الصلاة وبعدها . وسأنتخب مثلاً من الرجال الاشداء . وما
اكثرهم هنا .

بلغني اشواقي الى طوبيا . ودعني بخفي اوفاته في المحترف . لان
التحديق الى التائبيل يقوي مواهبه ، ويضع في نفسه شوقاً الى
العمل ، اقبلك باخلاص
زوجهك

جوزيف

كانت بخلاء تقراً والاضطراب باد على كل جوارحة من
جوارحها . ولما انتهت ، سألت طوبيا : آتوا سليماً ؟
- دون شك يا سيدي

- مسكين جوزيف ! انه طيب القلب ولو كنت غريب
الاطوار . انه يحبني حباً لا يسعه قلب رجل . ولكنه شاذ حتى
في حبه ، فكثيراً ما يضربني ويعود فيقبلي وكثيراً ما يقبلي
ويتراى بين يدي كالطفل . ثم ينتفض فجأة ويكبلي في الشئام .

- قد تكون هذه طباع الفنانين ..
- انا لا اعتقد ان للفنانين طباعاً خاصة ، الا انهم يعتقدون نفوسهم ارفع من الناس
- من كان ارفع من الناس لا يستطيع ان يحب الناس . لم توي انه احب القرى وابناء القرى . وحياة القرى ؟
- ما اكثر ما يحب . واسرع ما يغيض .
- ارى ان هذه الصفات في اكثر الناس يا سيدتي .
- وانت ايضاً يا طوبيا ؟ ..
- انا جديد في المجتمع يا سيدتي لم ادرك من امر نفسي الا اني اريد ان اكون ذامنة ..
- ألم تفكر في الزواج ؟
- الزواج قدسية عليا في ناموس الوجود يا سيدتي .
- والمزوجون الفاهمون هذه القدسية ، هم شركاء الله في بناء الحياة . ولكن ! هناك كثيرون يفهمون هذه القدسية ويحشعون لدى استحقاقها ! هناك من يدرك ان المرأة والرجل كائناً واحداً ، و ارادة واحدة ، وعاطفة واحدة ؟
- طوبيا أنك كنت مجهول . وكما اكون سعيدة ان اكون مكشوفة هذا الكثر !
- بل انا انسان جاهل يا سيدتي ، واني متصرف بكل ما في نفسي من الشعور الى طاب المعرفة .
- المعرفة ؟ . تريد معرفة اكثر من ان تكون افسكارك غذاء للجبهة ؟

.. أنا ؟

- وهل هناك كثيرون مثلك ؟ انت تربيتك تدفق المعرفة
دفعاً . فابن درست ؟

- هنا في بيروت في المدرسة الشرقية الاكاديمية .

- اكننت معداً للكهنوت ؟

- نعم .

- سكنت بجلاء ورفعت عينها الى السقف كأنها تعد روافده .

ثم تنهدت باخفات وقالت : الكهنوت مقبرة القلوب يا طوبيا ..

- ولكنه منارة الثقوى يا سيدني .

- ولم عدلت اذن ؟

- الانسان ملهاة الزمن يا سيدني . فلا يستطيع ان يجيب

ولا يستطيع ان يقرر . احببت الكهنوت جداً ولكنني لم ادر

لماذا . وما انا احب الفن ولا ادر لماذا . فماذا تريدني ان افعل

لك ؟ اما قلت لك اني جاهل ؟

قال طوبيا هذا ونهض مودعاً . فقالت بجلاء : علا مكنت

فليلاً بعد . اني .. اني قلقة . ان رسالة جوزيف لعبت بافكارني

فبيدت هدوتي . وارا اني اطمئن اليه اذا ما حدثتني عنه . وكم

يكون مسروراً عندما يعلم انك كنت دائماً تزورني .

ولكن طوبيا مد يده وقال : سأعود يا سيدني سأعود !

وخرج طوبيا وهو لا يدري ما اذا كانت توافقه ، بنظراتها ،

ام للهو عنه باخطارها . ومع ذلك فقد مشى بون خطواته ظاناً

ان عينها عالقتان بقدميه ..

الحبرة تكلم !!

على عاد معلك يا طوبيا ؟

- لا لم يعد بعد يا امي . ولكنه بعث برسالة الى زوجته يخبرها فيها انه سقط عن الجواد ، فرفض جسده ، وسيعود بعد خمسة ايام على الاكثر ..

- اذن يمكنك ان تذهب خلال هذه الايام ، فتقابل الذين وجدت اسماءهم في دفتر اميك . انت اربعين الفاً من القروش ليست بالمبلغ الذي يجب ان تتقاضى عنه . نحن بحاجة الى المال . ويجب ان نستوفي الثلاثين الفاً على الاقل ! ..

- صدقت يا امي ، على اني مضطر ان اظل قرب السيدة نجلاء ريثما يعود زوجها .

- وما شأنك بذلك ؟

- هكذا يريد زوجها نفسه !

- زوجها نفسه ! انا اعرف الأزواج اكثر منك يا طوبيا .

ان السنة الناس لا تترك زوجها مطمئناً . ولا صديقاً بريئاً .

ان السنة الناس كالازاميل الحادة ، لا تتورع عن ان تنبت

من سمكك مثلاً . ولناس حق فيها يرجفون وما يظنون ، ان امرأة

وحيدة في بيتها ، لا تدخل للرجال في شؤونها . وان رجلاً يعرض

سمعه للاراجيف والخنزير ليس بالرجل الذي يريد ان يكون

بريئا . وما اكثر الرجال الذين يستسيغون هذه التهم تلحق بهم ،
كأنهم يتباهون بكونهم ذوي تأثير على النساء ..

- اراك تطوحن برأيك يا امي حتى الشطاط . بالرغم مما
اعنده فيك من صفاء السريرة وتقاة الضمير ..

- انا ادري بالناس منك . وادري بما يحدث في البيوت
الثرثرة من التهاويل الخجلة . ان معرفتك بهذه الاحاجي كمعرفتي
بلاعونك وفلسفتك . فالعالم غير الدبر الذي تلقنت علومك بين
حواجزه وقوائمه !..

-- ولكن ..

-- ولكن ماذا ؟ انا لن ارضى ان تقابل هذه المرأة على حدة .
ان النساء مهاور مخيفة ، مظلة على سحيق الاعماق . والخوف من
العتور ، يضع التخاذل في الاقدام فيحدث العنور !..

سكت طوبيا حائراً مشدوها لا يدري ما يقول . انت امه
على حق . وقد شعر بالخوف من العنور . وتحاشى السير على شفير
الهاوية . ومع ذلك فيرى نفسه انه يريد ان يكون مطلاً على
اعماق المرأة !.

ان في عيني نجلاء جاذباً لا يستطيع طوبيا اتقاؤه إلا بالابتعاد
عن نجلاء . فهل يبتعد ؟ وان في صوت نجلاء نجوى سحرية لا يفهمها
إلا الذين يعرفون النساء . وطوبيا لا يعرف امرأة على الاطلاق ،
انه في العشرين من سنه ، ولكنه بريء كابن العشر فماذا يجيب
امه ؟ انه يراها معجونة عجنأ بالاختبار . بل يراها ناضجة حتى
الذوبان . فان تكلمت ، فكانها تقرأ سجلاً من سجلات الطبيعة .

وان حظرت فكانها ترى بعينها ما سيواه ولدها بعينه ، فهاذا
يقول وقد افحصته وسدت بوجهه منافذ الخروج ؟
وعكذا سكت طوبيا ، وامه ترقبه فكانها تصغي الى همس
نفسه في نفسه ..

بل كانها تسير مع السور التي يراها في مجرى افكاره ..
وتكلمت الام : اأكون ازعجتك يا ولدي ؟ ان قلب الام
مرآة تنعكس فيها طيوف الالهوال التي تعترض حياة الولد قبل
ان يراها الولد . فلا تستغرب ! ولا تعجب من ان تصل الى حيث
تقتل شبابك وتذل مشيب امك لانك لست اول شاب يضع عفته
في مهمة هواه ! ..

انتفض طوبيا خائفاً . وصاح بصوت يضغطه الرعب :
عفتي ؟ لا وروح قيصر الحلبي انها ستظل كنزي وتروني !
قال هذا ونهض في شبه ثورة كأنه لم يطق اخراط امه في نثر
الأكرام ! ..

قلبان في عربة ..

في الغد كان طوبيا في عربة رحاصية اللون ، يحرقها جوادان
مضمران ، مطهران ، ووقع سنانها بسيف على السكينة الخالدة
في طرقات الجبل ..

وكان طوبيا مسنداً رأسه بكفه ، يهتز بيناً وبساراً واماماً
ورواة ، مستسلماً لافكاره الجامحة في مطلع حياته الجديدة ...
وكان في استسلامه حائراً لا يدري من امره الا انه ذاهب
الى القرى المنتشرة في ضواحي بيروت الجبلية ، ليرى زين ابيه ،
ويطلب اليهم اعادة ما اخذوه من ابيه ...

ولكن كيف يتسدى اليهم ؟ وماذا يقول لهم ؟ انه حي
خجول ، يفضل ان يكون فقيراً على ان يخرج عاطفة رجل رب
عيلة فقيرة لاجل النقود . فما هي النقود ؟ واية صلة لها بمواهب
وميوه ؟ ان امه تظلمه بتل هذه المهمة المادية ترسله لاجلها ،
وهو ابن الفن وابن مدرسة الروح .. أليس من الواجب ان تصبر
امه على هؤلاء الفلاحين المساكين ليأتوا اليها ملبيين ضائرم كما فعل
الباس امين الخوري ؟ ..

وآلمه ان يكون ثقيل الوطئة على ابناء الارض . آلمه ان
يذهب اليهم فرداً فرداً كأنه جاني السلطة الغليظ الجاف . وهب
أثم انكروا ، وابوا الدفع ، فماذا يصنع ؟ أيقود قطعانهم ؟

أبسوق دواهم ؟ أيستعيز بأبقارهم ؟ انه الظلم الذي لا مبرر له .
انه الندم على العمل الانساني الذي عمله ابوه معهم ! ..

وشاء ان يجد مخرجاً يقيه الاصطدام بأولئك المديونين لئلا يفقد
اعتبار ابيه في نفوسهم . واذا بهوق العربية التي تحمله ، يطلب
مروراً من عربية ثانية واقفة في عرض الطريق لا يستطيع ان يجازيها .
وكرر الخوذي الطلب بدفعات شديدة من يوقه . ولكن المركبة
واقفة لم تتحرك ، فما دهأها ؟ والتحدّر الخوذي من عربته غاضباً
شائماً . فوجد ان احد جواردي العربية ساقط ولا يستطيع الخوذي
الوقوف انهاذه . فراح الخوذيان يتعاونان ، ولكن على غير
جدوى . فرأى طوبيا ان ينزل ويسعفهما . وما كاد يصل الى
العربية ، حتى رأى نجلاء في المركبة الواقفة ..

- سيدتي انت هنا ؟

- الم قد رآني هنا ؟

- لا !

فافتقر نغف نجلاء عن ابتسامة برافمة وقالت : لقد بعثت اليك
ببطاقة اخبرك بها اني ذاهبة اليوم الى زيارة جوزيف وطلبت اليك
ان تلحق بي اذا لم ترد ان تكون معي في عربية واحدة ..

- نفني باني لم اقلق اية اشارة ..

- فالى اين ذاهب اذن ؟

- سأخبرك يا سيدتي ، قال هذا وراح يعاونا الخوذين
بأنفاس الجواد .. وكان طوبيا شديداً متسعين البنية . وبعد جهد

متعب وقف الجواد ولكن على ثلاث فقط ، لان رسفه رضى
وليس بإمكانه ان يدني حافره من الارض ...

وتقدم الخوذي يعلن السبده نجلاء مصيبتة ويعتذر عن اتمام
السفرة معها . وقبل ان نجيب الخوذي ، سألتها طوبيا : أتريدن
ان تكلمي طريقك في عريتي ؟ .

فقبلت شاكرة وتهلل وجهها بالفرح العميق .. وانحازت
العربة الساقة قليلاً . ومرت الثانية تحمل طوبيا ونجلاء ..
وانطلقت العربة تحمل فلبين خافقين .

وشككت نجلاء : أعتقد اعتقادي ان الصدف مواعيد يفرضها
الغيب ؟ .

فاجاب طوبيا دون ان يلتفت الى نجلاء : بل اعتقد ان الغيب
يتراءى من جمال الصدف

فضحكت نجلاء والقت برأسها الى المستند الخلفي ، كأنها وجدت
بتعديد طوبيا جمالاً وشعراً ، ثم قالت :

لم تقل لي الى اين تتجه في عريتك ؟

- ان المرحوم ابي اصحاباً شئت ان اتعرف اليهم ، لان
مصالح مادية تربطنا بهم ..

- وكيف اكمل طريقتي الى حيث جوزيف ؟

- اوصلك واعود ..

- شكراً يا طوبيا . كم انت لطيف ..

ولكن طوبيا لم يجيب . فساد السكوت ..

كان الوقت صباحاً وهواء الربيع الفاتر يحمل في امواجه

التفجعات الشذبة المنعشة . وكانت الهضبات الحضر متوشحة بأجمل
أزياء الفصول ، وأهين الوان الطبيعة .

وسبحت عينا نجلاء ترف فوق مسارح السحر . بل سبحت
كأنها ولمى بهذه المشاهد الشعرية التي تولد في النفس عطشاً إلى
الجمال ، وتحدث في القلب جوعاً إلى الحب ..

وسألت نجلاء رفيقها : أرايت أجمل من الربيع ؟

فقال : ليس الجمال في الفصل يا سيدي ، بل في العين التي تدرك
أسرار الفصل . فرب جمال تلك شعورك لا يستحق الالتفات في
عيني سواك ! ..

— اما أنا فاني احس هذه السمات الخملية . ، ترفع نفسي إلى
أعلى ذروة من ذرى الشعور . وانت يا طوبيا ؟ ألم تشعر بأن في
قلبك تغييراً ؟

انقد وجه طوبيا حياءً واطرق ولم يحب ، اما نجلاء فظلت
تتكلم : لقد تعرفت إلى جوزيف في مثل هذا اليوم ، منذ ثلاث
سنوات . لذلك فاني احسب هذا اليوم عيد حبي الاول : وردد
طوبيا في نفسه ، حبها الاول ؟ وهل للحب مراحل وأرقام ؟ ومتى
يكون الثاني ؟ ..

وانطلقت من فم نجلاء صيحة فرح . فاجفل طوبيا . وقال :
ماذا ؟ !

— ألم تر جوزيف ؟ قف يا حوذي . انت هذا الفارس بود
ان يراني ..

وقفت المركبة . ووصل جوزيف معنلياً جواداً .

فتادته نجلاء : جوزيف ! اذهنا فف ! وحنا الفنان عامته ليرى
من يكلمه ، ثم صاح مسروراً نجلاء ؟ انت هنا ؟ ما جاء بك ؟
وطوبيا ايضاً ؟ انه لصباح جميل نحمل تباشيره الفأل الجيد ! ..
ثم لوى عنان فرسه وتزل متهللاً . وهبطت نجلاء من المركبة
وتقابلا مقابلة تجلى فيها الحب الزوجي الصادق : ورنث القلب مع
ما يرن من زقزقة العصافير وهينة الانسام .

وخفق قلب طوبيا خفقاناً لم يمر في صدره قط . وراح يرفب
نجلاء بجارياً اياها في قسجات وجهها ، وحركات جسدها . فارت
تبسم تبسم وان عبت عبت وان القت مرقعها على كتف
زوجها ، القى مرفقه على العربة ، فكان مأخوذاً بها كأن سلكاً
يجر كنه عندما تتحرك .

وتقدم الفنان من طوبيا مسلماً . فمد طوبيا يداً ثم تحف
ارتعاشها وهناه بسلامته ، واظهر سروره بعودته . فشكره الفنان
وقال : غداً صباحاً يكون المثلث عندي . انه لرجل شديد تغار
الجدوع من هيكله ! . وسابدأ غداً بالعمل فكن على استعداد .

وافتربت نجلاء تسمع لزوجها فتربت الزوج كتنفسها وساها :
لم تقولي لي الى اين انتم ذاهبان ؟

— الى حيث كنت يا عزيزي ، ان رسالتك افلقتني ..

فضمها اليه وقال : لقد عدت سليماً فلا تخشي .. اما الان
نأملنا ان نعود الى بيروت ..

قالت : وكيف نعود ؟ ان هذه العربة لوطوبيا . وهو ذاهب

بهمة خاصة . اما عربي فقد كتب جوادها على الطريق ولم
تستطع ابصالي ..

فقال طوبيا . لا بأس يا سيدي . اننا نعودان في العربة وانا
اكمل طريقني على جواد سيدي ..

فقال الفنان نعم الفكرة فكرتك . على ان تكون حذراً ان
جوادي جوح فلا ترخ العنان ..



عادت العربة الى بيروت وطوبيا يرفب عجلاتها ، كانت
قلبه عالق في دوائرها . وهكذا ظل واقفاً حتى توارت وراء
اول هضبة ..

ومشى طوبيا يقود الجواد . وصهل الجواد كأنه يحنج على
عودته من حيث أتى ، او كأنه يريد صاحبه الاول . واضع
طوبيا الى وقع السنايك البطيئة كأنها دقات قلبه السريعة . وعاد
يفكر . عاد يعرض ما مر عليه منذ المساء الماضي . وفكر في
نيلاه . انها امرأة ساحرة ولكنها بريئة . وتراوت له امه خائفة
من المرأة ، وسمع صوت امه يرن في ضميره : « ان النساء مهاوي
مخيفة ، مظلة على سحبي الاعماق . والخوف من العنور يضع
التخاذل في الاقدام فيحدث العنور ! .. » ما هذا الصوت الصادق
التبرات ، الجدير الكهات ؟ ما هذه الصورة ترسمها امه النقية في
متجه حياته ؟ وهو في بداية حياته .

نعم انه في بداية حياته . لان الحياة تبدأ يوم يشعر الانسان
بمعنى لنفسه ، وقد بدأ طوبيا يشعر . لقد بدأ يدرك ان القلب

الذي يتراجع لينظم مسير الحياة ، انما هو اضعف من اعراض
الحياة !

ولكن كيف يضعف القلب وعمو قوة القوى في الفيسكل
الانسانى العجيب ؟ وتهد طوبيا طويلاً ، تهد بآلم جارج ، تهد
قائلاً : القلب ارجوحة الحياة . والحب ارجوحة القلب .

ولفظ الحب بالجهاد . وتصيب العرق حاراً على وجهه . فسمع
وجهه يكلمه دون ان يعي ومشى ضائعاً ، ثلثاً ، غريباً مستوحشاً ..

دمر براع يهش لقطيعه ويعني . انه صوت الحرية ينطلق في
هذه الجبال المحزنة الاديمة . المطرزة المسارح ، المضخخة النسيم ! بل
صوت القلب الحلى الذي لم يقف على الهاوي ، ولم يخش العنور ..

واصفى طوبيا الى الغناء . ولذا انه ان يسمع مقطعاً من قصائد
الفطرة في ارض الفطرة ، انه الوداء الموافق للبيك . انها العتابة
الحنون ، الرقيقة الدفيقة الشعور ..

وكان الراعي غلاماً املد العود ، طري الوجنتين لم يعلق على
اسايره هم ، ولا جفت في عينيه كآبة . كان يستضيء فرحاً كأنه
معل جديد على الحياة ..

ولما قرب منه طوبيا حبساه نجمة لم يسمع طوبيا اعذب منها
رنة ، ولا اصفى اداء .. « الله معك يا سيدي »

فرد طوبيا : حفظك الله يا صغيري الطفيف ..

— منذ هنيهة مر هذا القرس من هنا ، وكان يعنبله ، خواجه
وعا اني اراك تعود به فاين ذهبت بصاحبه ؟

فضحك طوبيا وقال : ألا يمكن ان يكون هذا الفرس غير
الذي رأيت ؟ ..

- لا ياسيدي . انه الفرس عينه ، وقد اجفل القطيع
عند مروره ..

- ولم لم يجفل القطيع ثانية ؟

- لا يجفل القطيع وقد رأى زيك زي البلاد ! ..

- وما شأن الذي باجفال القطيع ؟

- الغريب في زبه غريب في شؤونه ، لقد حيت الغريب فنظر
إليّ غاضباً . ولما ضحكت ، زجر كأنه يريد اقتراسي .

- انه لفضول منك أن تلقي تحياتك على كل غابر طريق ..

- انه ادب وذوق ياسيدي ! لقد علمني أبي ذلك وأنا لا
أخالف لأبي علماً ..

- من هو أبوك ؟

- أعطيك أم أبي بعد أن تثبت في أنك لست جايلاً ..

- لا تخف أنا رجل عادي مثل أبيك ..

- ولكن ثيابك جميلة وجديدة . فاني لا بلك مثلها ، فمن

تكون . وما اسمك ؟

فضحك طوبيا وقال : طوبيا ..

- طوبيا ؟ اسم جديد أيضاً . لم اسمع مثله . شكراً يا

سيدي . ان اسم أبي « بطرس الدحداح » ..

واضع طوبيا الى الاسم ، واداره في ذاكرته يعرضه على ما

فيها من الاحياء . فابن سمع به ؟ ومسدده الى جيبه وقرأ في

لائحة الديون وراح يمر بسبابته الحذارآ، ثم أوقفها وقال : أنه عناء.
فقال الراعي مستغرباً : ألم تقل لي أنك لست الجاني ؟ فلم نحمل
أسماء الناس كلها في جيبك إذن ؟ إن ثيابك الجديدة أوهمتني بذلك
لا تكذب . والا أن كنت كنت عليك اسم أبي . إن أبي سيضربني
إذا عرف أبي وشيت به لرجال الحكومة ..
- لا نخش با . . دحداحي الصغير . إن أباك سيكون
مسروراً جداً بي ، لأنه حديفي ..

ومشى طوبيا بحجر جواده وفي رأسه الف سؤال ولا جواب
في قلبه ..

طوبيا في قرية من هذه القرى المتناثرة هنا وهناك في الجبال
المنطقة على بيروت . لقد تجمع عليه الأولاد مستفهمين بعمولهم
البواقة الاحداقة اللطيفة المآ في . انهم يرقبونه معجبين بثوبه الجديد
من طربوشه الى « قمبازه » حتى زفاره الحريري . وكانت طوبيا
جميلاً ناعم البشرة . وكانت نظراته تشجع الأولاد فيقتربون منه
مستأنسين . وسأله احدهم : تريد ان اسمي الجواد ؟ فاجابه طوبيا
باسماً : انه جموح با عزيزي واخشى ان يرميك ! وسأله ثان : من
تريد يا معلمي ؟ فقال : الياس ابن الخوري . أتعرفه ؟

فقال : انه خالي يا معلمي

- ما اسمك ؟

- شاكر نجما .

- خذني إذن الى بيت خالك يا شاكر .

ومشى الولد يتبعه طوبيا مستسلماً . وما إذا يسير ان حزين
خطوة ، حتى قال شاكر : هذا بيت خالي ! وقد تكلم متباهياً
كان عدى طوبيا الى كنز ..

ولما دخل طوبيا البيت ، ترحت به سيده المنزل وسالته عن
حاجته ، فقال انه يريد ان يرى الياس امين الخوري .
فقال : انه زوجي . فمن تكون يا سيدي ؟

.. طوبيا الحلبي .

.. انكون ابن المرحوم سيده قبصر ؟

.. نعم يا سيدي ...

فعادت تكرر الترحاب ، وتحاول ان يكون صوتها اكثر
رفقاً ولحناً من ذي قبل . وقدمت له كرسيّاً ليجلس على المصطبة ،
المشرقة على بيروت . وجلست تتحدث اليه : ان الياس في الحقل
يا سيدي ولا يعود قبل المساء . على اني سابعث من يدعرك بسرعة .
- لا . دعبه في شغل . وسأعود مرة ثانية .

- أينكن هذا ؟ فليس من شغل هام فالاولاد يقومون بالعمل
الذي يقوم به ابرهم . وليس هناك اكثر من اقليم الصكرمة .
ولشذيب ما نشر من جذوع في شجيرات النين ..

- وكما يبعد الطفل من هنا ؟

- صلاة مسبحة يا سيدي !

ونظر طوبيا الى المرأة معجباً ، مفكراً . ما هذا المقياس
الجديد الذي تعدل به مسافة الطريق ؟ انكون كل ابناء الجبال

يسرون هذا السير الفطري الجميل ؟ إذن لا غرابة في أن يكون
الباس ذا ضمير حي ما دامت هذه زوجته ..

صلاة مسيحة ؟. أنها تقبس الطريق بالصلاة والابتهال لا
بالذراع أو الساعة . وهذا ما يدل على أنها تصلي في طريقها إلى
الكرم . فإيه غارتجي من هذه الحفلات البلورية العناقيد ؟ ..
وتهمب طوبيا لدى المقباس الجديد . وعادت إلى رأسه فكرة
الكينوت . فنهد في اعماق نفسه ، وممس في هذه الأعماق : ما
اجمل تعبير الأيمان ! ..

وكان المرأة شعرت بأن في نفس طوبيا سلاماً . وعادت تحذره
معذرة عن ككون بيتها ليس جميلاً ، أنه مسقوف بالروافد
والأفصان . ذو مسكنين ، فقط . واحد للزيران والآخر للعيلة .
كانت حديثها مقتضياً متنوعاً ، ولكنه حديث امرأة فاهمة
كيف يجب أن تحدث رجلاً ..

وكان طوبيا يرى كل شيء جديداً في هذه المرأة . ورأى
كل شيء غريباً . من توبيا الفضاض إلى الثامها الشفاف الذي يلف
رأسها ولا يبدو سوى عينها ، وانفها وقسم من فمها . إلى نظائرها
العريض الذي تشد به وسطها .

وراح يقابل بين نجلاء الحديثة الزري الغربية المنهج في لباسها
ومستنيتها . وهذه المرأة العاملة المحافظة على تقاليد الجبل . وسأل
نفسه : ما بالي امزج نجلاء بكل شيء ؟ فإني شأن هذه المرأة المتأققة
في سير حياتي ؟ أأكون ضعيفاً لدرجة التوهم بأن نجلاء هدف
تفكيرتي ؟ على أنه لم يتلق جواباً من هذه النفس وإنما شعر بعرق

حمار يتصيب من جبينه ، فالتقطه بتدليله ، وسأل المرأة الجميلة
اليه : ألدبك كأس ماء ؟

فاجابته باحترام : لذي كل ما يامر سيدي . أتريد كأساً من
اللين بدلاً من الماء ؟ اني اراك تعباً وعرقك المندرار ينم على ما في
جسدك من اجهاد الطريق . والماء لا يشفي قليلاً . فاذا ما شربت
ماء رأيت نفسك تطلب المزيد ، اما اذا شربت لبناً تبرد وترتاح .
- شكراً . اعطني لبناً ان شئت ..

ونفضت المرأة بسرعة ونشاط ، وجاءته بطاس دهاق من اللين
الرائب ، وراح طويلاً يتحصى بلذة وشهية لم يعرفها في حياته قط ..
ووقفت المرأة امامه تسأله عن اسعار الصابون والحام والزيت ،
وتشرح له مشا كل العيل ولوازمها . وطويلاً يصغي بانتباه ، ولا
يجيب لانه لا يعرف شيئاً عن احوال المدينة . ولا عن نظام
البيوت . ولكنه صارحها اخيراً ، بانه مجهل كل شيء لانه في
مدرسة اكليزيكية ..

فشاع الفرع على وجه المرأة وهنت بفرح : ستكون كاهناً ؟
بالسعادة امك ! انك ستكون كاهناً جليلاً وجميلاً . فاذا ما
استولت حينك الشقراء على هذا الصدر العريض . بدا وجهك
الابيض كاللبن المخل من سحابة ! ..

ارتجف طويلاً خجلاً وارتسمت امام بصيرته صورة الكاهن
الجليل الجميل . فهاجت نفسه شوقاً الى الكهنوت . وحقق فؤاده
بحب المسيح ، وتمادى العرق يتصبب من وجهه . اما المرأة ،
فظلت تتكلم : لقد اخبرني الناس يوماً ان اباك سيدي فيصر الخبرد

بان وحيداً في مدرسة اكاديمية . بيد أني فكرت فيك غلاماً
صغيراً . اما وانت ؟ شاب كقلب النهار ، فما اجل ما تكون
دعوتك قريبة .

اما طوبيا فظل ساكناً تنصارع في نفسه فوثان قال ايه منها
ينتصر ؟ ان حديث هذه المرأة حبيب اليه الكهنوت وان لطف
للك المرأة حبيب اليه الفن ، فكيف ينتج ؟

ونولته حيرة مذهلة لم يجد مخرجاً منها . وردد في نفسه انت
باستطاعة المرأة ان تحول الرجل كيف تشاء ! ان كلمة واحدة من
فم امرأة بمثابة سفر من هاتيك الاسفار التي قلبت وجه العالم ! .
وحول نظره الى زوجة الياس امين الحوري ، الجالسة اليه ،
انه يدرس معانيها ويصغي الى حديثها . انت وجنتيها تستضيء
بانواراً . وعينيها تشعان بنور الايمان . وجنتها يرن بالنداجة
القروية التي لم تعرف الرياء ! . انها صورة الام اللبنانية الصحيحة ،
هاتيك الام التي تبعث في قلوب بنينا محبة العمل واحتمال المشاق .
وشاء طوبيا ان يتخلص من موقفه ، ويسأل المرأة هل يطول مجي
زوجها ؟ وسألها .

ف قالت : قد يكون او شك ان يصل ، وتطاعت الى الباب
فراحت زوجها يدخل . فقالت عوداً اقبل ..

ودخل الياس ، ولكنه لم يعرف طوبيا انه ابن الخطي ولكن
الزوجة اخبرته كأنها تزف اليه بشري هامة . فهتف مرحباً ورفع
ذراعيه الى الأعلى كأنه يريد ان يقصه الى صدره ، او يريد ان
يطير فرحاً .

وكان الياس بشباب العمل . الثياب التي يتدفق الذهب من
أردائها الممزقة . هذه الثياب التي رفعت مجد العالم بنا قدمته للعالم .
وهل غير العامل يستطيع ان يفاخر بهذا المجد التقليدي القديم ؟
ومد طويلاً يده الى الياس مسلماً فالتفت الياس هذه اليد الناعمة
بكتف يديه وعزها يشوق ، فشعر طويلاً بان يده تكاد تنحطم بين كفي
الياس الشديدين الحشنيين ، ولكنه لجأ ، وقال : ، فكلم الياس
وما يروح مسكاً بكف طويلاً : ما هذا الصباح السعيد يا سيدي .
أية عبة هذه التي أجدها في بيتي الحبيب ؟ واي شرف تأتي وأنا في
غفلة عن استقبالك ؟ أتريد شيئاً لا يرفعني طوعاً أمراً ، ان يدي
واولادي وارزائي رعن اشارتك . انت افضال ابيك ما يروح
تطوق عنقي !

فاغرو ورفعت عنها طويلاً لذي هذه العاطفة النبيلة وسحب يده
بلطف من بين كفي الياس وقال : انت تعلم ايها الصديق ان
اني مات ومشا كل تجارته ما زالت نستصرخ ذوي الهمه امثالك .
وقد عثرت على دفتر ابي ووجدت ان مبلغاً باهظاً مبعثراً هنا
وهناك ، بين ايدي الناس ، ولا مستند لنا الا هذا الدفتر وضباط
المديونين . وحيث اني حديث العهد بهذه المشاكل ، رأيت ان
اكتب جدولاً باسماء المديونين واعهد اليك بالتحصيل لقاء اجرة
تستعوض بها عما تفقده من تعطيل ايامك .

فصاح الياس : اجرة ؟ ألم تغفل لك اني طوع اشارتك ، فان
الجسول ؟

- الياس !

فأخذ الياس ير بنظره على الاسماء وقال : ان هؤلاء كلهم
ذوو أرزاق وذوو ضمائر .

- اذن فقد انتهت مهمتي ، ويجب ان نعتبر نفسك طوبيا
الخلي نفسه .

- ولكنني بحاجة إلى تفويض بتوقيعك ليعتبرني المديونون
مفوضاً رسمياً .

- صدقت . الديك ورقة ودواة ؟

- يجب ان نكتب التفويض عند شيخ القرية . فبكون له
صفة رسمية اذ يهره الشيخ بخاتمه الرسمي .



وذهب الى الشيخ . وطلب اليه كتابة تفويض . ولكن الشيخ
رأى نفسه عاجزاً عن كتابة التفويض فادعى ضعف البصر ، فكتب
طوبيا التفويض وصادق عليه الشيخ ومهره . فقدم له طوبيا ربلاً
مجيداً وذهب . ولما شاء الياس ان يبقيه عنده رفض شاكراً
مدعياً ان اشغاله عامة تدعوه للاسراع ..

المثال ..

طوبيا في المختوف ، امام المثال الشديد البأس العريض
المنصكين المفضول العضل . فهناك جسد شوته الشمس فيجولته
كالخزف المحروق . وهناك عينان تنطلق منها شظايا القوة والمناعة
والجبروت . وهناك كتفان عريضتان ينبو عنهما منجل الموت .
بل هناك ظهر كأنه النورج الذي رسمت عليه السنايل خطوطاً
صغيرة الادييم ، لمساحة البشرة .. ووقف المثال امام الفنان الوقفة
التي ارادها الفنان ؟ .

رأس مرتفع يتطلع الى ما وراء المنظور . وخطوة متحفزة
للوثوب . وذراع ممد الى الامام مشيرة بسبابته الى المجهول
المتواري ، وجنب يستند الى شجرة معرقة الجذع ناتئة القشور .
اما شعره فكان مسترسلاً على صدغه بوضع مستهتر لا مبالاة
في نظامه ؟ .

ونظر الفنان الى الشمال احي . وضحك ضحكة الانتصار .
وقال : هذه هي الخطوة الاولى . ان آدمي الذي ستري غير
آدم موسى الذي قرأت . انه يشير الى الآباد التي لم يلد لها الزمن
بعد . ان زوينة كامنة في قدميه ، وستنطلق هاتان القدمان عندما
يبب اعصار زويعته ! وستقف حواء قربه ، ترقب هدف رفيقها

بإقسامه تجذب إليها كل قلب . وكل عين . وكل شعور ! .
هكذا يجب أن تظل أيها الرجل ! نصف ساعة لا أكثر
وستعود إلى مثل موقفك غداً ! قال هذا ، وأخذ قهلاً فحماً ،
وراح يمر به على الصخر الجاثم أمامه صعوداً وانحداراً ، وبينما
وشمالاً ، وذلك بحركة سريعة مبهمة الاتجاه ، كثيرة التعاريف
والزوايا . وإذا بالرجل يبدو شيئاً قشياً . وإذا بالتمثال يصير
خيالاً على الصخر المعد ليصير جسداً ! .

انتهت مهمتك اليوم . وغداً في مثل هذه الساعة يجب أن
تكون هنا ! . . .

وتحول الرجل يرتدي ثيابه ، ولبت الفنان يعين بالرسم تعديلاً
واصلاحاً ، ولما رخصي عن عمله جلس إلى مكتبته بشعل غلبونه
وبمضه بشبهة ، محدقاً إلى خليفته الجديدة

كان الرسم بالحجم الطبيعي . وكان الصخر اصفر اللون وطني
المقطع ، نقياً صافياً يقبل الصقل كالرخام .

ونفض الفنان يصبو إلى هذه الخطوط ينقشها ويخرج
من معالمها أوضاعاً ناثرة . ووقف طويلاً جائعاً إلى الفن يضع
بعضه حركات الايطالي القنية ، ويزدرد بشوقه وشاقفه ومهارته ،
شاعراً بقلبه يتحفز للوثوب من صدره ليرافق الازمبل والمطرقة
في سيرهما . . .

وهكذا مضى على هذا النحو ثلاثة أشهر أصبح طويلاً خلالها

يستطيع أن يسك بالمطرفة والأزميل ويزيل أمام معلمه بعض
العوائق المعترضة لأزميله الدقيق . وفي الشهر الرابع كانت
التمثال تاماً ، إلا بعض دقائق ابتناها الفنان ليتمها في هنيهات
الأنعام ...

أحمد محمد هو ١٩٠٩ ..

أعلنت جريدة « النخبة » أن أحد الفنانين الموكول امرها
الى الفنان الايطالي المشهور ، قد تم . وسيزور معالي رسم باشا
نفسه بحرف الفنان يرى موقف آدم الجديد ويعلم رضاه عن
العمل ، وذلك قبل انتقاله الى مركزه الصيفي في قصر بيت الدين .
وقرأ الفنان الخبر . وسر بان يزوره متصرف الجبل في محترفه
فيرى آدم وغيره من النمايل الحائرة ..

وقد اوعز الى زوجته نجلاء ان ترتب البيت وتبالغ برضه ،
وتستعد على بعض الضيافات ، لعل الباشا يشرفه في بيته ايضاً !
قال هذا وفهته فقهته المعروفة ، وراح يسخر . وراح يوزع
القرصات اللاذعة ، بدون حساب او نسيب . ولما انتهى من مجونه
كلم نجلاء قائلاً : أعرفت يا نجلاء ؟ سينبط الباشا بصدري وسام
الشرف العثماني ، وسيفديني طربوشاً مزيناً بالحلل والنخبة ذات
الخمس اشعاع . وساصير تركياً مثلاً صار رسم باشا نفسه . ومن
يدري فقد اكون يوماً متصرفاً على الجبل ! ..

ثم سأل طوبيا مازحاً : ألم تفكر يوماً بان تكون متصرفاً ؟
فابسم طوبيا ابتسامته الخادئة ولم يجب . اما نجلاء فقد نظرت الى
زوجها نظرة تأنيب ، ومض في نورها الاشتياز . فقال الفنان :
عفواً يا سيدني لقد اخطأت ، اني قليل التهذيب اليس كذلك ؟ .

ثم فبه منكافاً ، ثم تحول من حالة المزاج والمرح الى حالة الجهد والغضب ، وانتهرها بفظاظة : الخبي لنا المكان . ان الوقت الذي تحسّم فيه المرأة بالرجل لم يأت بعداً انه باق غصة في حنجرة الزمن ! ألم اقل لك مراراً ان شأني خاص في ، وما انت سوى متبدل انخط به ساعة يدركني العطاس ! اخرجني ! تواري . لعن الله الجمال الذي يغري العباقره ليكونوا العوبة في ايدي النساء ! ...

خرجت بجلاء باكية ، ومشى الفنان غاضباً . اما طوبيا فوقف مشدوهاً امام غرابة الرجل وسرعة التحوّل في مزاج الغضب ! وبعد ان خطا الفنان بضع عشرة خطوة ، كلم طوبيا بلهجة تدل على هدوء العاصفة ، فقال :

اين نجد حواء ؟ اني اريدها امرأة تذيب اغراء ، وتجمد سحراً ، وتنتصب معبوداً لعشاق الجمال !

فخفق قلب طوبيا خفقاناً كانت يسد الحفاية ترافق بحراه . وبدأت امام بصيرته بجلاء ، كأن زوجها رحبها ببضع كلمات ... وعاد الفنان يتكلم : قلت لك يوماً اني اريد حواء لا تشتهي ، أندري ماذا ؟

- لا يا سيدي !

- لتظل شهوة في عيون الرجال ، لان خلودي في سطوة جمالها ! ..

- ولتكنك نطلب المستحيل .

- المستحيل ؟ ما هذه الاسطورة التي يضفيها العالم الى اسباب

جهل ؟ ما هذه العثرة التي تعرضها الاجبال في سبيل المجددين ؟ انها
في نظري جمجمة اسد بارزة النيوب ، يخافها الطفل وتحتفل منها
المرأة . اما الرجل الرجل ، فانه يقذفها بمذاته ساخرأ بقوة الاسد
التي نحولت جمجمة !

هذا هو المستحيل ! قوة امانها الغرور ، بل وهم بجلاء النبات ..
وسترى يا طوبيا اني اما واجد حواء ، او موجدتها ؟
- وكيف تريد حواء التي نوجدتها ؟
- طويقة كظلل الضحى ، ناعمة كشفاه الزهر . خجولا كالبلور
امام اللهاث ...

فعبجب طوبيا للتجديد الشعري وقال : والتي نوجدتها ؟
- كمن ترى كل يوم .
وفكر طوبيا : من أرى كل يوم ؟ امي ؟ انها عجوز لا يتفق
الجمال وهيكلها الخاف ...

•
فرع الباب ، ودخل باور الباشا حاملاً بطاقة من مولاه يعلن
بها قدومه نهار غد لزيارة الختوف ...

الباشا

استقبل الفنان رسم باشا في محرقه ، استقبالا لم يعرفه سوى
الذين امتزجوا بالعهد التركي امتزاجاً رسمياً .. ودخل الباشا بيوته
الرسمية الموشاة بالذهب ، وأوسسته اللهاة المرسعة بالأماس . ودخل
وراءه نخبة من اعيان بيروت وموظفي الدولة ..

ومشى الباشا بين التنايل بعظمة وخبلاء .. مدققاً هنا مهملات
هناك . محدقاً الى هذا النقال باعجاب والى ذلك بدعش . والى
ذاك باستغراب . حتى وصل الى آدم فجاء النافذة الشرقية التي
تسكب منها شعة الشمس في هذا الوقت ، فيدا امام قبض النور
عظيماً جباراً ، تريد اظلال اعضائه الناتئة قوة وعزماً . وتريد
الفن الصارخ في صنعه مجداً وخلوداً ..
أهذا آدم ؟

سأل الباشا الفنان بلهجة تدل على الاستخفاف . فلمع الغضب
في عيني الايطالي ، واجاب بصوت اجش . نعم ! ..
فقال الباشا : ان آدمك لبناني محض . ومع كون آدم أباً
لكل البشر ، فكان يجب ان لا تدل عليه بمسحة خاصة ، فيزه
عن بقية الشعوب ..

— لا تنس يا مولاي اننا في لبنان . ويجب ان نكون آثار
لبنان تدل على ميزته ومعنوياته ، لان الآثار جواهر التاريخ .

ومع ذلك ألم نجد لبنان غريباً عن نفسه في كل شيء ؟ ..
فانظر الباشا الى الايطالي باستغراب وقال ملاطفاً :

نحن في عرض فني ولنا في بحث اممي . ومع ذلك انسيت
انك ايطالي ؟ ..

- لا يا مولاي . ليس الايطاليون كلهم ينسون !
وفضلاً عن هذا ، فاني ارى نفسي مجبراً على الاخلاص لسماء
التي انتعش بشمسها . والارض التي انغذى بنورها . لاني غريب .
وعلى الغريب ان يكون ذا شعور ! ..
فمعهم الباشا - ذا شعور ! ..

وساد الصمت . على ان الفنان لم يرد ان يكون الصمت حديثه
مع نائبه . فقال : لقد حاولت جهدي ان يكون آدمي صورة
عن القوى التي وضعها الله في الانسان البدني ..

فانا اعتقد ان آدم جبار . شديد . منيع . لانه وجد كبلا
يموت ، ومع ذلك ألبس آدم ككل عمل اولي ، فوباً غير
مصدق ؟ ..

فضحك الباشا ضحكته التركية . ومر بيده يلامس زند آدم
بلطف ، وانحرف عنه بحذر في غزال الزمن . فوقف الفنان يشرح
له دورة الابام وتقلبات السنين وتبدل ذريبات الرمال . الى كل
ما هنالك من مآ في واحداث . وكان الباشا يصغي اليه وهو يتدفق
بشرحه كأنه يلقي محاضرة في فلسفة الخليفة ، والفاية من هذه

الاجساد الضاجة بكل تقبض . الفائرة بكل خار . السائرة بكل
مدهش المولدة كل عجيب ! ..

ولما انتهى من شرحه . عناء اليأس مضافاً ، متفائلاً بالتشال
النافي الذي ينتظره بشوق . ولما شاء ان ينصرف طلب اليه الفنان
ان يشرف منزله فاعتذر ومضى ..

السرميل يكي

وعذا اسبوع بر ، وطوبيا لم يدخل المحترف ، ولم يتحدث لا
الى معلمه ، ولا الى تلاميذه . فقد مرضت امه مرضاً مفاجئاً كانت
تبعيته ضعفاً في القلب واحتقاناً في الرئتين . . .

على ان طوبيا لم يتوان في سبيل هذه الام الصالحة ، بل دعا
الاطباء المشهورين في المدينة ، لمعالجوها ، وهكذا زال عنها
الخطر ، ولكنها ظلت مهددة بالموت لدى اي تأثير بطرأ عليها ،
ان فرحاً ، وان حزناً . .

واسكناب طوبيا جداً حالة امه . وبكى كثيراً في غرفته
خوفاً على حياتها . ولكنه لم يفقد شجاعة الرجل الخازم في الملم
المعيب . بل كان دائماً ينمى بالحياة الرغيدة ويقوي وهما بالحقائق .
ويزيل مخاوفها بالآمال . .

وسمرت الام بمحاطة ولدها الشريفة . فاهنت رأسه من فمها
وقبلته بحب عميق ملتهب . علمه ان الام تشعل قلبها لتثير حريق
اولادها . . .

وبعد نهاية الاسبوع تحسنت حالة الام واصبح بإمكان طوبيا
ان يتابع عمله في محترف الفنان . .

وجرت الايام مجراها في حياة طوبيا الخاصة ، فتبدلت بعض
التبديل ، ورأى نفسه يحس احساساً جديداً . فيفهم مذاق الفن .

وإدراك بعضنا من أسرار الحياة . ويكتشف عدة نواحي من
خلف البيوت . حتى صار جديداً بكل شيء حتى مجديته وزيد . .
وكان على اتصال متواصل بنجلاء . إذ كثيراً ما يقضي وأبائها
الساعات بين الحد ورد . فيشرح لها حقائق الدين ونسب
المذاهب . ويحدثها عن الفن . ليصل إلى كل ما هنالك من نتائج الثقافة
العالية التي يشتمل عليها .

وكانت نجلاء تصغي إليه مستعذبة حديثه ، وفي عينها جوع
إلى الاستزادة من هذا الحديث . . .

وسأل معلمه يوماً . متى تبدأ بكواه يا سيدي ؟ . .

فقال الفنان : ليشي أنتهي منها يا طوبيا ! أو لينها أنتهي مني
لكنك أنعم بالآ وارفح شهرة مني اليوم . .

أما طوبيا فلم يدرك المرمى من جواب معلمه ، فقال : أنتهي
قبل أن تبدأ ؟ . .

— أليست النهاية بداية يا طوبيا ؟ هل فاذك انت لكل عمل
قريبة لا يتم بدونها ؟ أنجهل أن الاخذاد حقيقة الحقائق ؟ .

الاخذاد معان لما قبلها من أوجاع . فكما انت مذلة الفقر
تربك رفعة الغنى . هكذا فان اللاشيء فراغ ينهياً لبسع الاشياء !
وللفراغ حنين أعق من حنين الاملاء . وحنين الفراغ هو الذي
يقودنا نحو الابتداء لنعلم ذوي شهرة وذوي مجد . . . فعندما
تسألني متى أبدأ ، كأنك تقول متى تنتهي . وها أنا اليوم أفكر
في نهاية حسنة . نهاية نجولي رافع الرأس في عملي . خالداً في آثاري
بعيداً في اطلاق صدائي !

بيد اني لم اوهق شمال لجواء بعد . مع اني اري شمال حواء
نقطة الانجاد نهر الخلود . لاني اري نفسي عطشاً الى اجسادته .
جائعاً الى غيائه . مسحوراً بشوفي اليه . مجنوناً بهياني به .
واذا لم ازل ما اريد يا طويبا ، فاني فقد صوابي ونفسي حياتي
المنتهية الى صقيع الجنون .

— وماذا يا سيدي لماذا ؟

فضحك الفنان ضحكة باكية وقال : لماذا ؟ لان لجلاء معناه
في خذلاني ساخرة بطني . منكورة علي . مكاني غريب جامعا
بيدعة صعبة .

— وما شأن لجلاء بعدك وفك ؟

— شأنها انها تصلح مثالا !

— انجعل من لجلاء مثالا ؟! من زوجتك ؟

— وماذا يمنع يا طويبا ؟ انظّل محذرين بالوم ؟ وكيف اعثر
على مثال اذن ؟ من اين لي امرأة سواها تترلق العين على جسدها ،
والسحر ينير العين ؟ ومن اين لي جمال يلقي في الاحداق دروساً
جديدة في علم الجمال ؟ وكيف اجد اعضاء متسقة ييم بعضها ببعض
كأنتها عضو واحد !

انها حوافي في حياتي وعلمي . انها ملكي واريد ان اعرف بهذا
الملك . اريد ان اسجل جمال زوجتي في مسير الاجيال . اريد
ان اعلم الناس ان الفن لا يعرف عيباً الا في نقصه .

فاذا نقص الفن نقص الجليل . نقص الازليخ . نقص جوهر
الوجود . ونلجج صوت الفنان . واخنتق جرحه في حنجرته .

وبرزت عيناه بروزاً خفيفاً . ثم ضرب مكتبه بقبضة يده وأرسل
بيكي !

ووقف طويلاً مشدوهاً أمام بكاء الفنان . ولم يدبر ما يصنع ..

واجفل طويلاً من الصوت المبالغ . وإذا به يرى نجله ..
لقد دخلت المحترف كالسهم ورفعت رأس زوجها بتلك الكف
المحبلة . ونالته بأعذب ما يمكن أن تتاحي امرأة رجلاً : عندما
يبكي الرجل تسليقاً في نفس الطفولة ...

جوزيف ! ارفع رأسك ! حديق إلي ! ألا ترى رسمك محفوراً
في انسان عيني ؟ أنبكي ؟ انت ؟ لماذا يصنع الحاملون اذن ؟ وماذا
يصنع البلهاء المنبوذون ؟ وماذا يصنع المجرمون الذين يشتهون
ان يروا ذرقة السماء في ظلام سجونهم ؟ ..

رجل وتبكي ؟ عظيم وتدمع ؟ فيلسوف وتتهار ؟ فنان
وترفع تشييك بين غائيلك الرعبية الموقف المحترمة الاصغاء ؟ ..

جوزيف ؟ حبيبي ! أنسيت أنك ذو مثل اعلى في المجتمع ؟
فكيف نسوخ لك العبقرية ان تشهر بجسد زوجتك الذي قدسناه
الشريعة وسلمتك اياه النواميس شريفاً طاهراً ؟ .. أتريدني بغياً
بشبهتي الرعاع والسكرارى : ومشرود الشوارع ؟ ..

أتريدني دون حياء ؟ دون ارادة ؟ دون حصن ؟
ألم تدرك أنت المرأة تظل سحراً في العين حتى يصير جسدها
مشاعاً للعين ؟

ان جواهر الاشياء خفاياها يا جوزيف . وان محرمات الحياة
افدى ما في الحياة ! .

انسيت انك من المحافظين على الحشمة . المقدسين الفضيلة .
الحاشعين امام مناعة الانثى ! .

رفع الزوج رأسه ، فبدت في عينيه اثار المعركة التي حو
وطلسها بين فنه الجائع الى الشهوة ، وشرفه الخائف من الوصمة .
بل بدت عيناه حمراوين ، كأن دم قلبه نجمد في مقلتيهما ..

وقال : ان باب خلودي في انصباعك لأرادتي يا نجلاء . ان
في جسدك جمالا فسامس كثيرا عن جمال الارض ، لقد جمعت في
هذا الجسد النسيم كل ما في الوجود من نساء . فلا ندعني
حز عيلات المحظرات ولا تؤخذني بخرافات التقاليد . كوني جديدة
في حبائك ، وسيري يقتضى الوحي الفني الذي يقديس المرأة
بعجائبه ، ويعلن المواهب التي نالتها في الوجود ..

فقالت نجلاء : ان المرأة دون عفاف اخرى بها ان تكون
اشلاء تنبلغ بها الكلاب الجائعة في الطرقات المهجورة !

- اسمعي يا نجلاء . ليس العفاف في الصكساء الذي اوجده
الخطيئة . بل العفاف كل العفاف في ان يكون جسدك حراً
بحرية شرفك . منيعاً بقوة ارادتك ! . بعيداً عن رعدة الفكر .
نايلاً عن قشعريرة الشهوة .. فاذا ما نضوت ثوبك لتكوفي مثلاً
الاباد المغمورة بانفاق الوجود ، ومقاييس البشر . فتكوفي امامي
كأنك وحدك في مستراك لا نساء تنورد خجلاً ، ولا رجال

يخترعون انداماً .. وعندئذ يا نجلاء عندئذ فقط ! تهبط عليك
المعرفة الفائقة ، فتظن الى نفسك كآلة دقيقة من النور تمر على
الافكار ، لتسير طرق الناس ، وتريهم ما يظنون ، ثم تعودين من
حيث ذهبت اكثر نقاء ، وانصح شعاعاً ..

وعندئذ يا نجلاء ! عندئذ فقط ! تزين زوجك بتوفيق وتوبأ فتن
الشهرة . وتتناقل الاحشاء اجلك رسماً . واسمه اطارا ..

— جوزيف . انك للشوان لا تدري ما تقول . أفضل علانية
فك على سر حياتك ؟ أتريد ان نجعل من شطرك الحي ثنالا بارداً
لا حياة فيه ولا حياة ؟

فكر قليلاً ! تجرد من الوهم ! يده عن عينيك غشاء الشهرة !
واطلب بعدئذ ما تريد مني . انا التي احتمي بذراعيك اذا لم
اجد كساء ..

جوزيف ارحمني ؟! لا تبهده السعادة التي تنتشر غناء في حياتنا .
لا تقتلني . انا تنمة كالك . انا مسنودع الضمات الشعرية التي يبعثها
قلبك في اوقات نجواك . انا حواؤك التي ورثت ورقة التين ارضاً
ابدياً ليذكروها بالتحالفة البدئية . بل انا المرأة التي حرقها الرجل
والطبيعة ...

فأنت هذا ، والفت برأسها الى الجدار فيكي برارة والم عميقين ..
اما طوبيا فقد شعر بقلبه يذوب ويدفق ذوبانه من عينيه .
واما الفنان فقد انتفض عن مكثبه بشدة ونزق وقال : انا لا
افهم لغة الدموع . ولا البن امام مبعان الوراثة .. انا اعبد الطبيعة

الأم ، فتوحي أيتها ، ان كل مجرد جميل . وكل جميل مباح .
وكل مباح ملك للأجيال التي تأتي الاستتار ..
فشرقت نجلاء بدموعها . وقالت : انا ملك نفسي ..
فاحتدم الفنان غيظاً وصفعها على وجهها فتخاذلت وسقطت
مغمى عليها

أنت هيبى ..

ذهل طوبيا امام نجلاء الذابلة الجمال . الغائبة عن الحس .
المرماة على التراب ! .. بل وقف لاعثاً حائراً مضطرباً . أتكون
ماتت ؟ ! وانحنى اليها يرفع رأسها الى صدره ويزيل عن شعرها المتهدل
ما علق عليه من غبار الارض . وجس اطرافها ، قرأى ان الحياة
ما برحت تسير في انباضها ، سيراً قلقاً . فراح يدلك صدغها
وقلبها . وكان عرفها بارداً مدراً . وكان لونها اصفر مكفهراً .
وكانت يحملتها مسئلة للغيبوبة المالكة عليها ادراكها ..
واحتضنها باشفاق . ولا مس جبينها بارتعاش . وحدق الى عينها
انطبقتين بوجل . وانظر الى ما حوله فلم ير سوى النمايل الصامتة
ترقبه مستفهمة . فخبيل وارتعش ورأى نفسه يقترف ذنباً ضد
العفاف وضد الامانة ..

وحاول ان ينسحب . حاول ان يترك هذه المرأة الطريح
وشئها . ان التجربة تطوق عنقه . وتشده الى قبول الخطيئة .
ولكنه لم يقبل قط ان ينهار فنفض ، ولصكن نجلاء استغافت .
وتشبثت به ونادته بصوتها القضي الرنين : طوبيا ! . إبقى قربي !
انفذي ! انت عزائي أنت ... أنت ... ح ..

واذكرتها رعشة شديدة . رعشة سيطرت على صدرها فبدأ
يعلو وينخفض كأنها في نزاع . وتوددت الحاء منقطعة دون ان

نستطيع ان نجمع منها كلمة .. اما طوبيا ، فكان يسمع بهذه الحاء ،
موسيقى ساحرة ترفع نفسه الى سعادة لم يذوقها قط . موسيقى
فتحت قلبه بلطف ورقة فرأى في هذا القلب عناصر عطشي لهذه
النعمة السحرية ، وشاء ان ينتهي هذا الحفطان . لنقول كلمتها .
ولكن على غير جدوى . فضغط صدرها مرعشاً ظاناً انه يوقف
خفقانه ، ولكن الصدر ازداد خفقاناً . والحاء تتردد بسرعة دون
ان تنتهي بكلمة ..

وطال الصراع ! ونجلاء كالخنونة تطوق عنق طوبيا بشدة
وترتفع شيئاً فشيئاً اليه . وهو يلتهب اعياء وخوفاً ، وبعد محاولات
كثيرة هدأت ثورة نجلاء ، ونظرت نظرة ذهول الى ارجاء
المحترف . ثم بككت خجلاً . ثم نظرت الى طوبيا نظرة امتنان
وقالت : انت حلم الله في البائسين يا طوبيا !

فاجابها طوبيا وفي صوته هينة غريبة : سيدتي ! تشجعي لا
تحافي . ما بالك ترتجفين هكذا ؟ انا اخوك يا سيدتي . انا اخوك !
فقالت وغصة جارحة تعبر حنجرتها : اخي ؟! وقبل ان يجيب
عادت تبكي وعيادت تفر . فاوقفها يدها واستندها الى صدره ،
وقادها الى غرفتها لتقاع في سريرها .. ولما ادخلها الغرفة ، وشاء
ان يودعها ، توسلت اليه ألا يتركها لانها ما برحت نحس دواراً
وضعفاً قالت هذا ونحسست رأسها بيدها ، كأنها تشكو زوجها الى
طوبيا ... ثم طلبت اليه ان ينجدها كي تصعد الى سريرها ، ففعل !
ونامت نجلاء نوما مضطرباً . وجلس طوبيا قبالتها بحسدق اليها
فيرى كل ما فيها جيلاً . ولا سيما امتقاع وجهها فقد زادهما جيلاً

على جمال . و سحر آ على سحر . . بل زائدها جاذبا مبهنا احسه
طوبيا في نفسه . ولما شاء ان يتركها في غفوتها ، رأى نفسه
مرتبطا برؤيا علوية ، فظل امام رؤياه ، وقلبه قائم في صدره كأنه
ذائع عن مجمره .

وسمع نجلاء تهذي . فماذا نقول في هذيانها ؟ واصل طوبيا الى
ما نقول ، فلم يسمع سوى عصفية لا تستقر على لفظ . وتقدم طوبيا
يصيح بأذنه قرب فيها . تقدم يلتقط هذه العصفيات ليجمع منها
كلاما . تقدم لعنه يستنطق في غيبوبتها ما حرمته الياء في يقطتها .
لقد اسعته تلك الحياء المطاطة ولكنه لم يرض عنها انت تنتهي
بالحلم . . فقد لفظتها مفتوحة كأنها نقول حبيبي او حياي ، فهل
نكون ندمت ؟ . وراى كلمة الندامة في اذن نفسه . فشر بغلظته
ورأى نفسه خاطئا . وهو بحاجة الى الندامة . ان نفسه نفوس
بالجراح فماذا يفعل ؟ . فرفع عينيه الى العلى وقال : اللهم ، احفظ
نفسي . .

والنجلى هذيان نجلاء . انه صار كلاما صريحا . فماذا نقول ؟ .
طوبيا ان برائة عينيك حلم من احلامي . وانت خجلك
الجميل حاجة من حاجات نفسي . اما وجهك الوديع الممسوح بزيت
التقوى . فهذا الذي احب . .

طوبيا اني مدينة لك بحياي . فانت حقيقة شعوري ، انت
حبيبي . .

اضطرب طوبيا متوهجا ، واجفل مشدوها ولما شاء ان يتعد
عن السرير سقطت يده قسرا على جسدها فاستيقظت مذعورة ،

وعيناها نفوسان بالدموع المشتعة ! ولما رآته قريباً ، قبضت على
يده بكتنا يديها وادارت حذقتها دورة توسل ، فيها جمال ، وفيها
اغراء ، وفيها حركة العين التي تريد ان تنكلم . .

فجذب طوبيا يده يريد الحرب ، واشاح بوجهه عن وجهها المنور
بالجمال ، المشتعل بالحرارة ، المتألق بالحطب . بل اشاح بوجهه عن
انفاسها المتنبهة التي كادت تحرق فيه !

وشعر بقوة ومناعة . شعر بكره للعالم ومعيباته ومرايمه بل
شعر بنجلاء الجميلة الساحرة خنقة مطروحة على مزبلة . ونظر الى
فوق فتخيل ملاكاً يحمل اليه اكليلاً مضافاً بالورد والزنبق ،
واوراق الغار ليضعه على رأسه ، عربون ظفروه على التجربة الكبرى
ولما جذب يده ثانية ليتخلص ، وجد نفسه لم يستطع افلاته اذ
كانت يدا نجلاء اشد من محاولته اطلاق هذه اليد ! .

على انه لم يتقاعس لدى قوتها ، بل جذب يده ايضاً بقوة الرجل
الذي يأبى العنور في هاوية الذل . فكانت الجذبة شديدة غاضبة ،
فيها كره وفيها احتقار ، وفيها لعنة صامتة ! فاستوت بنجلاء في
سريرها قسراً عنها ولكنها لم تفلت يده .

ولما رأى جرأتها اقوى من طهارته ، صاح صبيحة الذعر التي
تنطلق ممن يرى نفسه في اشتاق الموت : تو كيني ! انني كاهن الرب !
فجميعت بنجلاء اجزاء قوامها المتشعبة ضعفاً وجباً واغراء .
واقتربت من طوبيا المنحو على السرير يريد التخلص ، وقالت :
طوبيا ! الحطب رسول الزمن ، والزمن اقوى من حصون
الطبيعة !

الحب شرف النفس التي تعرف شرف الحب !
الحب سلك اقتطعه الله من نياط قلبه ليجمع به الناس فلاة .
على صدر الحياة !

طوبيا ! لا تحتقري ! اني احبك لانك اسمي من الحب . اجل
لانك رجل ، ولو كنت طفلا كغيرك من الرجال لاحترمتك
وجعلت منك خادماً في المنزل ، لا تلميذاً للفن ..

انت طفولة الرجل خطر على الرجولة يا طوبيا . خطر على
الجنس ، على الذرية ، على الاجيال ... ولكن لا .. وليسكن .
هل كان الرجل الا طفلاً ؟ الرجل طفل . اما المرأة فشعة اخامها
الحب . فاما يطفئها ويبيكي واما تحرقه ويثلم ، او يذيبها ولا يبقى
منها الا دموعها المنجمدة على ثيابه ويديه .

نسي طوبيا انه امام خنفسة على مزبلة ، ونسي ان الكلب الضفر
مانئ في يد ملاك ، في افق تقواه وعفافه . ونسي انه كاهن الرب .
فترأخت يده ، وتهدل جسده على السرير ، فطوقته نجلاء برنديا ،
وقبلته قبله ملتصقة على شفثيه . ودفعته عنها باكية قائلة : اغرب
عني قبل انت تحتقري ، ان فمك يقطر عافاً ، كافوا صبيات
اورشليم . الذين رفعوا سعف النخيل في موكب ابن السماء !

•
وخرج طوبيا ثقيلاً الحظي كأن ثقل الحظيئة يشد بقدميه ليغرقه
في جوف الارض . ومشى يتلمس شفثيه باصابعه وينظر ، الى هذه
الاصابع ما اذا كانت مخفية بدم نفسه ..

ماذا فعلت ؟ !

عندما يحاول الرجل الابتعاد عن المرأة، يجد نفسه مقوداً إليها .
فالابتعاد في وهم العقل هو الاقتراب في الحاح القلب . وطوبيا !
طوبيا الهارب . هو نفسه طوبيا المفكر بالعودة . انها تناديه . انها
تجذبك . انها تحيط طريقه بالاختلة المغرية ، وتفرس طريقه بالازهار !
فماذا يصنع ؟ انه واقف على الدرجة الاولى من السلم التي تصعده
الى منزله . فهل يصعد ، ام يعود اليها ؟ ولمس شفتيه ايضاً ،
ولكن لا يرى دم الخطيئة دافقاً منها ، بل لبتائس بالحرارة
النائمة المنعشة التي تركتها انفاس نجلاء على فيه .

وتنهط طوبيا ! تنهد من اعماق سويدائه ، ولو استطاع ان
يخرج من هذه السويداء لما تردد .

ورفع رجله لينسلق الدرجة الثانية ، فتراحت له نجلاء مسجاة
على الفراش الناصع الوثير ، ففض بصره ليراهها ببصيرته ، انخفض
عينيه ليراهها في ووجه ، اسكت نيكيت ضميره لبصفي الى تشيد
فؤاده . انه يحبها ، وان الحب يشكلم في تفكيره ، وعندما يتكلم
الحب تخشع الثواميس ويقف الزمن ، وتنسج آذان السماء !
الحب فؤادة الحياة التي توزع رشاشها بشراً . اما المرأة ، آه
من المرأة ؟

وسمع طوبيا هذه الآهة تخرج من فيه بالهم ، فاجفل ونظر حوله

لئلا يسمعه أحد . ولما اطمأن الى وحدته صعد درجة ثالثة وعاد
يفكر .

ان في المرأة نداء غير صوتها ، وجاذباً غير عينها . انت فيها
قوة الضعف ، وجراة الحياء ..

ولكن ما هو الحياء ؟ انه المعرفة المكبوتة في صميم الجاهل ،
فالجاهل الذي لا معرفة في جهله ، لا يعرف الحياء ، ولا يحسه .
والعالم الذي لا جهل في علمه ، يعرض اوضاع الناس عارية صريحة
دون ان يبدو على وجنتيه شفق الغروب . فسن انا ومن نجلاء ؟
دخل طوييا منزله فرأى امه تصلي ساجدة امام المصلي
وعيناها تعكسان ضياء روحها . فاعرض عن امه بخطوات متنافذة
والقى بنفسه على المقعد الطويل الجاثم في رجة المنزل ..

كان مستلقياً على ظهره وعيناها شاخصتان الى نقطة واحدة في
السقف . وكان يلهم كأنه محموم . ولما انشأت امه صلاتها ، اقتربت
منه باهتمام ، وسألته بحنان وعطف : أتشكو أمأ يا حبيبي ؟ فأستوى
تأديباً وتبسم لأمه ليزيل خوفها ، لكن الانسامة بدت جافة كأن
الحزن مسيطر على حواسها ، وقال : لا يا امي ولكنني نعب .
- نعب ؟ فماذا صنعت اليوم ؟

- صنعت ؟ ؟

لم يخف على امه ما ضمن بجوابه من الاستغراب والخوف . فقالت :
وماذا يجب ان اسألك ؟ ألم تر انت كلمة صنعت اللف جداً من
سواها ؟

واجاب مستغرباً ايضاً : سواها ؟ !

- نعم ، لان هناك غيرها من الكلمات التي لا اعتقد انك
تستطيعها ! .

- اني اسمع ملحة جديدة في سؤالك يا امي ، فماذا جرى ؟
.. وانا ارى صورة جديدة يا طوبيا ، انت كلوح وجهك
وجفاف شفتيك يتان على انك لست طوبيا الذي اعتقده خلياً
بريئاً ، ساثراً في تقوى الله ..
- انا ؟ انا يا امي ؟

- وهل لي في العالم طوبيا ثان ؟ ألم تعلم بعد انك دنياي
وثره حياتي ، انجمل ذلك ؟ اسمع يا طوبيا ، لقد مات ابوك فهراً ،
وانهار مركزنا الاجتماعي ظمأ . ومع ذلك فاني ما برحت اغذي
آماني بمستقبل الذي سيرفع رأسي .
- وسترفعين رأسك !

- بماذا ؟

- بغني وشهرتي !

فهزت الام برأسها مشككة ولم تحرج جواباً ...

رسالة ١ ..

وهذا السبوع ثانٍ يَضِبُه طوييا في البيت ، وانه تسمعه من
الوعظ والارشاد ما تنبو عنه اذناه . ولما طلبت منه ان يذهب
الى عمله ، ادعى انه مريض لا يستطيع العمل . ولو شاء ان يكون
صريحاً لقال لها انه ضعيف لا يقوى على الثبات امام نجلاء ..

فنجلاء ملكت عليه لبه وتفكيره . بل ملكت عليه نفسه .
هذه النفس التي غذاها منذ الصغر بعناصر الروح ... وما تخلفه عن
العمل ، الا حرصه على وفاء الفنان الذي قال عنه في رسالته انه
ليس فيه الوفاء والاخلاص . . . ابيادله بالحياة ؟ ايصكون
الاخلاص والوفاء لزماً وججوداً ؟ . وكيف يستطيع ان ينفلت
من سحر نجلاء وقد تمهنت ثبات نفسه ؟ . لذلك رأى ان الابتعاد
عن الفن خير وسيلة للوفاء . ولكن ماذا يصنع اذا لم يتعلم التحت
أيعود الى طلب الكهنوت ؟ وهذا الخيال المائل امام عينيه ؟ وهذه
النشوة المائلة شفتيه ؟ وهذا الصوت المتعوج في اذنيه ؟ كل هذا
اصبح حاجزاً بينه وبين التوب الكهنوتي ، الذي يجب ان يكون
ناصراً في سواده شفاوياً في صغافته ! ..



لبت طوييا حائراً لا يجد النجاء لهذه النهاية المضطربة .

وحاول ان ينسى كل ما سر عليه ولكنه لم يستطع . وكتب
ينسى ، ومحاولة النسيان قوة في الذاكرة .

•
فرع الباب وتدخل رجل فاعطاه رسالة . ولما فضاها ، شعر
برجفة في يده . فسين ليكون 9 . وقرأ :
عزيزي طوبيا ..

لم ادر لتخلفك سبباً . مع ان العمل يشوق الى عبيك
المقدرين العمل . لقد اقصت المشكاة التي اعتقد انها ابعدتك .
فجلاء فتعت بأت نفق مثلاً وانا اعتذرت لها مقرأ بفعلني ،
وهكذا عادت المياه الى مجاريها ..

لا شك في اني كنت جافاً في تصرفي ، ولكن على المرأة ان
تكون امس انقياداً للرجل من نجلاء ..

لقد افهمتها ان الحياء ضعف في الحرية الشخصية . وافهمتها ان
عيني طوبيا البريئين تريد ان جسدها جمالاً وعفافاً ، لانها عبتان لم
تعرفا العيب . وقد فتعت وسرت ولذا ان يكون جسدها علامة
استفهام في مسير الازمنة . فيجب ان نحضر . لتري ان نياويل
الجمال بدت تتجلى شيئاً فشيئاً على الصخر . نجلاء مهتمة باعداد غداء
لذيذ في هذا النهار . لا تتأخر .

جوزيف بابيتو

لقد سر طوبيا بان يكتب اليه معلنه ، مستهلاً رسالته بكلمة
عزيزي .. ولكنه تبيب الموقف انه تحصيل جسد نجلاء غريباً ..

فكيف يقف قبالها على هذا الشكل المباسح بوضع غير مانوس ؟
وردد في نفسه ما جاء في الرسالة : « ان عيني طوبيا البريتشتين ،
تريد ان جسد هاجملاً وعطفاً لانها عينا لم تعرف العيب . »
والحسن طوبيا العفة تفرق من قلبه . وشعر بالرفاء فياضاً من
نفسه . فعادت اليه تلك المناعة التي ما فارقت إلا اسبوعاً واحداً .
فهل يستطيع الاسبوع الواحد ، ان يهدم حصون عشرين عاماً ..
وهكذا تشدد طوبيا ولبى دعوة معلمه ..

نحوه نفس ۱.

هذا عمل سنة ايام باطوبيا . ومع ذلك اَلَمْ تَرَ مثلي ان الروعة
مرافقة الازميل منذ اليوم الاول ؟
فهز طوبيا برأسه ايجاباً ، وتابع الفنان : انت نجلاء ، تلك في
جسدها جمالاً لم يوجد في امرأة على الإطلاق . واذا ما حدثت إلى
تركيب هيكلها الدقيق الانسجام ، بدا لك انها وجدت خاصة
لتكون مثلاً ..

فقال طوبيا : مثلاً للفن ؟ لنقف عارية امام الناس ؟
- وماذا يمنع ؟ انعتقد ان الثوب يستر العفاف ويصوت
شرف الاسرة ؟ هذا خداع الاصطلاحات وتدجيل الاوهام التي
ورثناها بالضعف ! فالعفاف في النفس باطوبيا . العفاف في التربية .
في عزة النفس . في الدين ! ..
- سيدي انا لا أرى ما ترى . أنا اعرف ان جمال المرأة في
حشمتها . وقدسية المرأة في ان تكون ارفع من ان تناها العيون
النهجة ، المترجرجة بالشبق والتعرق ! ..

- انت تتكلم ككاهن ..
- انا انكلم ككسوفي باسيدي ، ان لشرقنا قدسية لا نريد
ان نتهن . انت نساءنا تربيين تربية تختلف الاختلاف كله عما
تربون انتم ..

- نحن نفهم بالمرأة ينبوع الشعر والافهام . اما انتم فترونها
دجاجة تجمع تحت جناحيها البيوض لتخرج الفراخ ..

- ومن يقرأ شعركم ، ويعجب بالهامكم . ويرى قاتيلكم اذا
لم تعاقب الفراخ . ان هؤلاء الذي تسميهم مراحاً انما هم حلية
الزمن . وهبة الحياة . وغيباً بينا الازواج في عبتهم اذا لم ينالوا
فسطاً منهم ..

- انت هناء الازواج في الحب الذي يربط قلوبهم برابط
السعادة المقدس .

- الحب يا سيدي نسمة ندية على جسد منيوك فاذا فكررت
عذه النسمة ، شعر هذا الجسد بالضعف والملل ، لان للحب رباطاً
غير رباط القلب ان هناك رباط الاحشاء .

لم يحب الفنان بل حلق الى طوبيا مستقيماً . اما طوبيا فكان
جريئاً خلافاً لما فيه . لم تحبه نجلاء . وما معنى ان تحب امرأة
رجلاً غير زوجها هل غير تفضيل الرجل على الزوج ؟ ثم لم يكتب
له معلمه عزيري ؟ كل هذا جعل منه طوبيا جديداً .. وطوبيا ما
كان يوماً قاصراً عن الكلام . وانما كان متغلفاً وراء حياته
وتربسته الاكبر بكبة .

حدث هذا الحوار في المحرق ، فكان الفنان جالساً الى مكتبه
وطوبيا اذاعه يمدق الى تناسل حواء المنهياً لتخرج .. ثم وقف
الفنان متضجراً قائلاً : ما بالها لم تأت بعد ؟ لقد تركتها تغفل
بالماء البارد فماذا دهاما ؟

فخفق قلب طوبيا وشعر بثل الدوار يعترض صدغيه . فنهض
على كرسبه واستند الى نزال آدم .

وتابع الفنان : أتواها لم تترك من الاغتسال ؟

فقال طوبيا : من هذه يا سيدي ؟

نجله ! لقد آت لها ان تحضر . اني اشعر برغبة ملحة اني
العمل ، ان لا احب تبديد الايام عبثاً . ان الايام تنواري بسرعة
الفكر ، ولا يمكننا ان نتعقبها الا بالعمل . على الانسان ان
يحفظ بايامه اعمالاً . ان العمل مستودع السنين !

ولكن طوبيا لم يأت له نظرية معلمه الحكيم ، بل استفكر فكره
حيث نجلاه تغسل . وحاول ان يخطبها . فمرت في فكره زوجة
أوربا التي اخبرته نجلاه عنها . تلك المرأة التي لعبت بعظمة داود
الملك والموسيقي والشاعر . وذكر كلمة نجلاه عنها : ان جمال
جسدها يخفف لعان المياه المتفرق على جسدها ! وسأل نفسه :
أنكون نجلاه كزوجة أوربا ؟ . ولكنه اجفل عند هذا السؤال
ورفض الفكر الداس وآلى على نفسه ان لا ينظر اليها غربة ..

دخلت نجلاه تشبع بوشاح حريري طوييل فضفاض . ومشت
مشيتها الموزونة كأنها قبرة في مرج . ولما رأت طوبيا حنت له
رأسها بتهيج . فاجابها بثل انحنائها .

وتقدم الزوج ينضم عنها وشاحها . فادار طوبيا ظهره للمشهد .
اما نجلاه فقد سألت زوجها باستعطاف ألا تعفني اليوم من انكول
امامك ؟ اني احس حي بطيئة تنزع نشاطي !

فاجابها مقهتها : انك تحسبن غنياً وكبرياء !
فقال طويبا . اما انك يا سيدي فاني ارى وجودي غير ضروري
فامض لي ان اخرج !.

فقال : ولكنك تبغى قبلي . انما لم اتعود المراوغة من امرأة ،
انما الاعمى نأني بها النساء ليسنأثرون برغائبتنا وامبالنا ! قال هذا
وجذب الوشاح عن نجلاء بعنف ، بينما كان طويبا يولي المرأة
الحجول ظهوره .

انطلقت يد الفنان تعكس الجمال على الصخر الاصم المنحلب
فيجعله متكلماً لطيفاً لدناً ..

وحرص طويبا حرصاً اكيداً الا تجمع عيناه ، ويرى نجلاء
دون ستر ، فيستحيل جمالها في خياله فيحيا في عينيه .
وانتهى الكلام عندما بدأت المطرقة تناقش الازمبيل
والازمبيل ينقش الصخر .

وهكذا استمر العمل نحواً من ساعة على وثيرة واحدة . ولما
انتهت المدة اخذ الفنان وشاح زوجته والبسها اياه ضاحكاً ..

الفرداء ..

الحب يستوضح الجمال ، والجمال يتألق لدى الحب . وهكذا
بدت نجلاء بين رجلين ، كلاهما يسألها بنظرانه تألقاً .
الاول بايمان الفن وصراحته . والثاني بسطوة الهوى ونشوته !
الفنان ثراميه الشعرية المجنحة الاماني . وطوبيا باقتنائه الحبي
الغامض الانجاء ..

وكانت نجلاء اسمى جمالاً من كل وقت آخر ، اما لان اربع
اعين تشرق عليها . او لان شعورها الجديد بحب طوبيا نور
وجهها يوهج قلبها .

وكان الثلاثة يتناولون الغداء . لم يعد الفنان طوبيا بغداء
لذيذ ؟ والغداء لذيق شهبي . فقد اجتهدت نجلاء بان تجمع معرفتها
وذوقها وكل اهتمامها فيها طيخت . وربما اذابت روحها وعناصر
قلبها ايضاً . والا ما هذه النكهة التي يتذوقها طوبيا ؟

ومدت نجلاء يدها لتأخذ صحن طوبيا وتلاؤه ، ولما شاء طوبيا
ان يمانع ، اصطدمت يده بيدها ف شعر بهزة عميقة ، علمته ان
الرجل يظل ضائعاً حتى يجد المرأة .

ونكلمت نجلاء : كيف وجدت طعامنا يا طوبيا ؟ انني اعتقد
ان الطعام ايضاً يجب ان يدعن لاوامر الفن . لان الطعام الشهبي

لذة بجمولة . ولكنها ليست بعيدة عن يريد ان يكتشفها . والمرأة
وحدها توجه الرجل نحو هذه اللذة . والطعام كغيره من الاعمال
الناجحة قنياً بالذوق والانتلاف !.

فقال الفنان وهو يلتمس طعامه منهم : ان نجلاء تحاضر عن قنيتها
يا طوبيا ، فيجب ان تقف عن المضغ لئلا تنلهى بازدياد الطعام
فيفوتك استيعاب المعاني .

فجدجته نجلاء بنظرة نطق الامتعاض فيها ، ولم تكلم .
وبادها الزوج النظر غاضباً . ولكنها غضت نظرها وهي
تضغط شفتها السفلى بشعرها الناصع . . وقبحة الفنان لغير سبب .
قيمه ساخرأ كأنه يريد ان يؤلم نجلاء اذ حسب مسكوتها اهانة
موجهة اليه . اما نجلاء فقد تظاهرت انها تعصب لونها ثانياً من الطعام
اطوبيا وقالت : كل ! ان لحم الحجل شهي . لانه يحتفظ بنسبة
البراري في دمه الحار .

وسأل طوبيا : واني اسيدني الحبال ؟

فقالت : هدية من احد الاصحاب . .

انكمش طوبيا في اعماقه ، وشعر بمخلب الغيرة يمتد الى قلبه ،
فتظاهر بأنه يخفف العرق عن وجهه ليخفي وجهه غيرته ، وفكر . .
أليكون لنجلاء اصحاب ؟ وكان نجلاء لحظت عليه ذلك
فقالت : ان جوزيف يعرف الكثيرين من ابناء الجبال وهم يحبونه
كثيراً . لذلك فانهم يهدون اليه دائماً من صيدهم ومن ثمارهم .

فقال الفنان : صحيح ! ان ابناء الجبال ابر عيذاً ، واصدق
وفاء من غيرهم !

فضحكت نجلاء وقالت : ولكنهم اغبياء باندفاعهم . عني
باسلامهم

فقال طوبيا : الغباوة يا سيدتي كثيراً ما تكون سلامة في
القلب وحياة في الضمير .

فقلت : انا لا احب الغباوة ولو كانت متبعة بمناوبة . فعلى
الرجل ان يكون يقطاً نبياً . وعلى المرأة ان تكون ذات دعاء .
فقال الفنان : والكبرياء ؟ والادعاء ؟ والاغراء ؟ كل هذا
يجب ان يكون من صفات المرأة . اليس كذلك يا نجلاء ؟
فقلت : جوزيف ! انك شديد الوطأة بتعبيرك . فكيف اكون
سعيدة لو كانت حياتك الزوجية ، ثمة كحياتك الفنية !
- حياتي ، او الحياه معي ؟؟

- فسر كما تشاء فالمهم ان تدرك انك انت وحدك ذا شعور !
انتهى الغداء ولكن على شيء من الضباب بين الزوجين .
وانتقل الحوار الى الفن شأن الماضي فكان الفنان شاعراً بشرحه .
وبلسوقاً بتجديده !

صراع

مضى على قتال حواء خمسة اشهر وما يروح بسنغيت تحت ضربات
المطرقة الحادة ، والازميل السني . فقد انتهى تكويناً ، ولكنه
لم ينتهِ حقلاً . وقفه كلها تحفز . ونظرات كلها استفهام . وشعر
طويل يلف صدرها ، وينهدل حتى الركبتين ، فيستر من جسدها
ما تريد الانثى ان تخفي من جسدها .

كوعها الايمن ملقى على صخر ذي تخاريب ، وينمطف مستنداً
الى رأسها المحتو باهتمام الى حيث تنجه نظرات آدم . وزندها
الايسر يضغط اطراف الشعر لئلا يتزاح عن موضع العفاف . اما
قدماهما الغارفتان بين الاعشاب والازهار ، فكأنهما تتحركان لتباً
وثوباً مجنحاً نحو المسارح البدئية الساحرة .

هذا هو قتال حواء . بل هذا قتال نجلاء تلك المرأة التي حولت
بفتنتها اتجاهات طوبيا الى مرمى واحد هو الجمال . وطوبيا المطلق
حديثاً على عالم الفن . لم يزل الا قتال هذه الانثى مرجعاً لدروسه
النظرية . فكان يقف امامه الساعات مستوضحاً قوة الفن . هائلاً
بكمال الخلق . مسحوراً بجمال الروح الكامنة في الصخر . وسأل
نفسه مرات : أليكون جسد نجلاء هكذا ؟

ان طوبيا ما يروح محافظاً على جنوح عينيه نحو نجلاء العاربة .

وإذا ما سأل نفسه مثل هذا السؤال فلن يجي يقنع فكره بان من
النساء من تتمتع بمثل هذا الاغراق في الجمال .

كان يسأل ولكنه لم يجب لا سلباً ولا ايجاباً . فقد احب ان
يظل هذا السؤال موضوعاً لتأملاته . على انه رأى الوجه وجهها .
واليدين يديها . والشعر شعرها . اما غير ذلك فاني له ان يرى ؟ .
وكان طويلاً يشغل اكثر وقته في المحترف . وكانت معلمه
يتروك له الوقت الطويل لينصرف عملياً على بحث فائيل متنوعة
الاورضاع حتى اصبح مسيطراً بعض السيطرة على الازميل ، كانه
رغبته الملحة ، وشوقه الجائع الى العمل ، ونيا به وثوباً الى هذه
النهاية الجيدة . .

وكانت نجلاء تزوره دائماً في المحترف ، وترغب حركته يديه في
سير العمل . وكان يبدو عليها سرور طافح بالسعادة في هذه
الوقفات . وكانت يدا طويلاً تستمدان الرشاقة والابداع من عيني
نجلاء . وكثيراً ما كان يجلس اليها مستمعاً لشكاها وتذمرها من فظاظه
زوجها . فكان يهون عليها الامر ويلقيها دروساً خلقية ، شارحاً
لها حياة الزوجين وما يجب ان تزدان به من الوفاق والتسامح .

وكثيراً ما كانت نجلاء تتكلم باكية . وكثيراً ما كانت
تسند الى كتف طويلاً ليكفكف دمعها . وكثيراً ما سمعته
تجواها بحاجرة بحبها الشريف . ولكن طويلاً لم يرد ان يكون
خائناً معلمه كما انه لم يرد ان يشوه جمال نجلاء بالدفن . . وموت

الأيام والصداقة بريئة . أما الفكر ! أما الشعور ! أما الاضطراب
الذي تحدثه الغريزة ، ففي حرب ، وفي جهاد ، وفي جحيم ! . وأما
الخطيئة ففي كبر وفريين طويلا وبين نفسه ..



انتهى تمثال حواء . واعلنت الجريدة نهاية التمثالين وصرحت
موعداً للاحتفال بزاحة الستار عنها ، في حديقة الفردوس ..

الضأنه برهمن

بعد يومين فقط ! تقبل برووت الى حديقة الفردوس لتري آدم
وحواء قتالين مهرهما الخلود بخاتنه الابهدي .
وبعد يومين نشرائب الاعناق الى الدكة المرتفعة بحلال ومهابة ،
فتجميع الآذان وحي الشعر وموسيقى الافكار .

وبعد يومين سألقي في الجماهير المحشدة ، محاضرة فنية فلسفية
عالمية . فاحدد الفن ! واحلل الروح . واكشف عن الابصار
والبصائر غشاء الجهل ، فبدرك هذا الشعب ان بابيتو العبقري ارتفع
عن مستوى البشر قولاً وفعلًا . . .

نعم بعد يومين يا نجلاء ! ستصوب الى جسدك العلوي ، اكثر
من سبعين الف عين . ويحقق الى سحرك اكثر من ثلاثين الف قلب !
انا وانت يا نجلاء كائنات هبطا العالم مخترقين سحب الوحي
والكمال ، واستقرا على الارض متفوقين على ابناء الارض ! انا
بعبريني والعبقري كالنجم المذنب لا يتبثق دائماً - وانت بجهلك
والجمال شعاع يدقق من عيني الله ليرفع مستقر النفوس :

نجلاء ! ليت لي جسداً شديداً متبعاً ، ضاحكاً بقوى الجبال !
لانسح آدم عن جسدي ، واقف امامك قتالاً في حديقة الفردوس ،
كما اقف امامك الآن ، روحاً وقلباً وحيًا . . .

تجلاء ! ان جمالك مهبط الهامي ، اما حيي هذا الجمال ، فخيال
يجتاز الآفاق ويقف على الذروة المطلقة على ما وراء الوجود ، ناقلًا
عن هاتيك الابداد ، صور الخلود للفنانين ، ثم يهبط ساخرًا بكل
فان لانه خالد !

كان الفنان يشكلم مزهواً ، وتجلأ غارقة في سرورها خلفها غلالة
شفافة كالضياء ، فبيدو جسدها الوردي كالاشعة من خلال الفيوم .
وكان طوبيا يضعي الى معانه وهو جالس في الردهة الكبرى
الزاهرة ، وفي صدره دخان الغيرة يكاد يخنق قلبه ، ويقضي على
رؤيته ..

وفادى الفنان : ادخل يا طوبيا ، ان سعادتي تنادي العيون
البريئة لترى الجمال يتجلى !

فاعتذر طوبيا وشعر بثقل الدوار يعترض صدغيه .. ولكن
الفنان لم يقبل عذراً ، بل خرج ضاحكاً باشاً ، واخذ بيده وادخله
قصرآ ..

ولذ طوبيا ان يدخل . ان في هذه الغرفة سر انقشاع قلبه .
ومر بلسانه على شفتيه برطب جفافها ، بل شاء ان يستعيد خيال
هاتيك القبة الحارة التي الهبت قلبه ، ووافدت فيه شعلة لا يجمد لها
اوار ! وما دخل ، استوت تجلاء في سرورها محاولة ستر ما شاف
من جسدها ..

انه الجمال يتجلى ! لقد صدق الفنان بتعبيره . والا ما هذه
الرؤيا المشعة في فراش ؟

ما هذه السحابة الهاربة من الشفق ؟ ما هذه الومضة التي تغلبت
على الانطفاء ؟

اية متعة احسها طوبيا في اركان نفسه ؟ انها لمتعة اسمى من
الشعر ! واشد من السكر ، وابعد من السحر ! انها لمتعة الروح
التي لا جسد لها . بل متعة الجمال الذي صار جسداً .. وحقق
طوبيا انى نجلاء بغير خوف ولا حياء ، حقق اليها بل غيبه كأنه
يرى جسده في مرآة ، فقال الفنان : ماذا ترى يا طوبيا ؟ فقال
طوبيا والجراة تجعل من حفيف ثوبه كلاماً : ارى شمعة من شعل
السما ، انقذت في سرير رجل من ابناء الارض فجعلها الحب جسداً
لا يقاس ولا يحسب ..

فانقض الفنان على طوبيا انقضاضاً اهوج واخذ رأسه بين يديه
وراح يوسعه تقبيلاً ..
اما نجلاء فعادت تغرق في سريرها منتمة بكل ما حولها من
الاغطية ..

وانتهرها الفنان : نجلاء ، دعي جمالك مشرفاً ! ان الحجل لا
يدنو الا من الخطاة . وانت ! انت البريئة كاريج الزنبق ، فكوفي
كارييج على القمم والروابي . فقالت نجلاء : أيمكنني ان اكون
ربباً وفي عبودتك وهج الصبغ ؟

فغض طوبيا نظره ، وقال الفنان : اشرفي يا نجلاء انك اليوم
لمثل السماء على الارض . وما انى أرى الله منالاً قبك !

فرفع طوبيا رأسه وقال : سيدي لا تذلل كرامتك المنطقية !

- كرامتي لا نذل يا طوبيا ، انا ابن الاجيال كلها ! الاجيال
التي مرت جافة والتي ستمر ندية عابقة بالمجد . انكر علي عبقريني
وخلودي وقد فزت بكل خالد وعبقري ؟
- لا انكر عليك الا زوغانك في التعبير ، فما اكثر ما تبجح
وما اقل ما تستقر !

- هو الشعر يا طوبيا ، هو الشعر !.. له جزوه وله مدد ، له
سموه وله إسفافه ، فتارة يفيض في اعماق النفس حتى تنكش على
ذاتها وتضيق بأسأ ، وطورا يتفجر من القلب فيحول الشفتين جرحاً
ينز بالالم ، وحينما يسطع نوراً من العقل فيرفع النفوس عن التراب
ويوقفها سعيدة حاملة في غشاء الاثير !

وانا شاعر يا طوبيا . أرى كل ما حولي رافصاً على موسيقى
القوافي . وهذه التي تراها امامك كالنبراس المتألق في الظلمة ، هي
فصيدي الكبرى ، هي عنوان مجدي . وسترى وتسمع كيف
اتجلى بعد يومين . اني اعددت محاضرة لن تلقى مثلها على منبر .
وتم يكتب بعدها في سفر

- ولكنني اخشي ان يصدك دهرك بغير ما تود ، فهلا
ترققت بمحاضرتك لئلا تبجح الى الغريب الشاذ ؟
- ستري كيفك مصفقتين لكلماتي قسراً عنك ، كأنها جناحا
حاملة خائفة .

- لقد طامأ صفت لك مراوح قلبي يا سيدي ، انك ارفع من
يرخذون بتصفيق الكفوف ..

فَنظَرُ الْقَتْلَانِ إِلَى زَوْجَتِهِ وَقَالَ : أَسَمِعْتَ يَا نَيْلَاءُ ؟ إِلَى لَمْ أَحْرَمَ
شَعَاباً يَرْجِعُ صَدَى مَجْدِي . قَالَ هَذَا وَانْحَنَى عَلَى زَوْجَتِهِ فَقَبَّلَهَا قَبْلَةً
شَعْرِيَّةً ، ثُمَّ وَدَعَ طَوْبِيَا قَدَلاً . أَمَا ذَاهِبَ إِلَى دِيْوَانِ الْبَاشَا لَا وَمَا وَضَعَهُ
بِبَعْضِ شُؤْنٍ ، فَاهْبِطْ سَاعَةً نَوَدُ إِلَى الْمُخْتَرَفِ فَارْتِ الْبَابَ غَيْرِ
مَقَالٍ ..

تخطيم النمل

طوبيا ونجلاء وحيدان في الغرفة . واحس طوبيا بقشعريرة
تتمشي في جسده ، فتعطى متثائباً ، ووقف ليذهب . فقالت نجلاء :
طوبيا لا أتروكني ، يجب ان تنتزع من اذني كل ما فيها من ثروة .
ان جوزيف اليوم اوفر مساعي حتى خفت ذرعاً . ان المواهب
الفجة تنهراً قبل ان تنضج ، وويل للذين تنهراً مواهبهم ..

- سيدتي انك لاسعد امرأة تريد ان تكون سعيدة . ان في
زوجك كنزاً قلما وجد في امة ..

- انا شقية يا طوبيا .

- أشقية انت وضيء السعادة منتشر على وجهك ؟

- ما زلت عاجزاً عن تحليل النفوس يا طوبيا . ولو كنت على
شيء من علم القراءة لعرفت ان ثار قلبي اندلعت في اسارى بعد
ان صار هذا القلب رماداً .

ان غرابة جوزيف تشقني ونجردني من ارادتي . وما معنى
امراة لا ارادة لها مع زوجها ؟ ألم يكفني شقاء واحتقاراً ، انه
حكم علي حكماً جائراً ، وعنفني تعنيفاً ، وذلماً ، حتى اوقفني عارية
لينسخ عن جسدي نقالاً للمرأة الخاطئة ؟ .

لم يحب طوبيا ، اذ بدا له ان الحديث سيجره الى مزالق

الخطيئة ، ولصكته نظر الى نجلاء نظرة طائشة ومشى قائلاً :
فلتعذري سبدي ان لدي شغلاً في المحترف .

لم نجب نجلاء ولم تناده . ولم تطلب اليه البقاء لديها بل عادت
تستلقي في سريرها كأنها لم تسمع كلاماً منه . على ان طوبيا
المارب من التجربة ، لم يرفه سكوت نجلاء على هذا الشكل الجاف ،
فراح وقلبه يتمزق غيظاً ... ولما دخل المحترف احس كرهاً
لنجلاء . هذه المرأة المراوغة التي تحتقر عبقرية زوجها في سبيل
امبالها الدنسة !

ورفس الارض برجله خائفاً . وصدق الى ما حوله من التآليل
وتهد قائلاً في نفسه . أليكون اجمال ارجع وزناً من الفن ؟ أمكن
ان يستوي اغراء اللحم وخلود الفن في ميزان واحد ؟

وظهر امامه مثال جواه . فحقق قلبه بقبول الخطيئة ، وجرض
بريقه مستملاً لامبال الرجل الذي نسي ان عظامه حياً . وتحيل
نجلاء في سريرها وغلايتها الناعمة تشف عن السحر والفننة والاغراء
الاهوج . بل تشف عن الانثى التي لا جمال الا فيها . وبدال
التمثال جسداً حياً منوعاً بالحرارة ، فلامس عينيه لينق مسن
يقظته ، فازداد ثقة بحياة التمثال ، ومد يده بارتعاش الى زنده
البض ، واذ بيده تضطدم ببرودة الصخر ، فاجفل مرعوباً وابعد
عن التمثال خائفاً .

في هذه الفترة المزدهجة بالعوامل ، دخلت نجلاء باشة والثقت
بيدها على صكته قائلة : هربت مني يا طوبيا ؟ انك ما برحت
غلاماً عاجزاً عن فهم السر الذي شاقته الطبيعة بجوهر الوجود

أنجهل أن قلوبنا رهن أميالتنا ؟ ، أنسكر قوة الحب أيها الأكبريكي
الجاعل ؟ أنسد أذنيك عن سماع صوت الطبيعة ؟ قالت هذا
وخطفت عنقه بزنديها وقالت : طوبيا ليس بوسعي أن احتمل
استمرارا أحسست . فقبلني يا حبيبي قبلي ، اعطاني قلبك لهاثا . عيني
جسدك ضمما وثقيلا . . أنا شقية يا طوبيا فكيف متقدي من شغافتي . .
وشدت به إلى صدرها ، وأذنت فيها من فيه . وشعر طوبيا
بانقاسها حارة معطرة ، ولحسكه حاول التفت . وإذا بالستار
المسدول على مكتب الفئات ، يزاح ويخرج الزوج مستعرباً
مستغنياً ، وبرز عينيه بصور غضبه ! .

أجفلت نجلاء وانزات ذراعها بدمر . فتقدم الزوج منها
ساخراً . فلاذت بطوبيا تحمي به ، فيسطط طوبيا ذراعها دونها
محاولاً الدفاع عنها . ولكن الزوج لم يدن منها ولا من طوبيا
بل رفع المطرقة ونظر إلى فتالها مقهقها ، وقال :

لقد ظننت أن نجلائي لا تشهي فأخذتك عنها يا حواء . أما
والله أخذت عنك في البدء ، فإن شئونها تسو فيها مع شو المدارك
والعقول ، وتجتاز التفاحة لتلتهم ثمار العفاف . فلنحطم الجيود ! .

فأى هذا : وانتهال على التمثال ضرباً أعوج ، حتى اطار رأسه .
وزنديه وفخذه . وشوه ما بقي من الهيكل الباقي . وما كاد
يشتهي حتى كانت نجلاء تستطع مغى عليها . ولكن طوبيا لم يكن
مستغنياً لما عذبه المرة بل عرب خائفاً حول المطرقة .

طوبيا بكذب

لم يدرك طوبيا كيف عبر السوارع ، ولا كيف وصل الى
بيته ، فقد كان يتلظى بالحجل والندم ، بل كان ينمير غيظاً على
اخائه اليهود ، وقتل نتاج الشهور . فما ذنب النمثال الباطل ؟
ان هذا الايطالي جبان ارعن ! وانف ان يقول معلمي ، لقد احس
احتقاراً وكرهاً لهذا الرجل ، الشاذ الخلق ، الضعيف الارادة .
بل احس كرهاً لنجلاء المائعة المراوغة ، تلك التي طرحت نفسها له
مراراً كأنها ليست مقيدة بالسمر الذي قدسته الشرائع وفونته
التقاليد . لقد نسبت انها ذات رجل . ونسبت ان لها عقاباً يجب
ان تضونه لهذا الرجل . اما كان الاجدر بزوجها ان يحطم رأسها
بدلاً من النمثال ؟ . لقد خانت العهود الزوجية . وحشنت بالامانة
لغير سبب لذلك فانها خائنة !.

وزفر طوبيا زفرة حملت معها جزءاً من قلبه ابل حملت
صوت الضمير الخفيف ! واذا به يسمع في قرارة نفسه زجرجة هذا
الضمير !.

طوبيا ! . انك لشريكها في الخيانة ! لقد كان بوسعك ان
تقصيها عنك ، او تقضي نفسك عنها ، ليكون شرفك بما لا الفضل
زوجها عليك !.

طوبيا ! . الاخلاص جوهر الرجل الشريف . وانت ! انت
الذي عشت بجوهرك فلست شريفاً !..

وانفتح فم طوبيا ذمراً . وادار عينيه في ارجاء البيت باحثاً
عن مخرج ليهرب من ضيقه ، ولكن الى اين يهرب ؟ .

ان الرجل الذي يتجرد من شرفه يصبح كسبعا . بل يصبح
أشل لا يستطيع ان يحجر عضواً من اعضائه . وسأل طوبيا
نفسه : ما الشرف ؟ ! .

واضفى الى سؤاله لينال جواباً . لينال تحديداً للشرف . لينال
عذراً عن ميعانه . ولما لم ينل غفم فائلاً : الشرف كرامة
مقدسة في سحر الانسان ! فهل اكون مقدساً هذه الكرامة ؟ .

وقضى بقية نهاره مفكراً . وفي الليل لم تعرف عيناه الغماضة .
وغض في الصباح خائر العزم مكفهرآ . فآلته امه : أريض انت
يا طوبيا ؟ .

- لا ولكني لم اتم في هذا الليل !

- ولماذا ؟ .

- لا ادري .

لم يدبر ؟ ! هذه كذبة تم جديداً في معبر ضميره . وطوبيا لم
يكذب قط في حياته ، فما باله يسوء خلقاً يوماً فبوماً ؟ .

مخرج من البيت قلباً . ولما مر في اول شارع ، رأى الاعلانات
هنا ، وهناك ، وهناك . وكلها تدعو ابناهم بيروف الى الاحتفال
نهار غد الاحد بازاحة الستار عن تمثال آدم وحواء في حديقة

الفردوس . ومر في الشارع المعروف بطريق النهر . قرأى افواس
النهر تحيم فوق الطريق والاعلام العنانية خفاقة مزهودة يصفقها
النسيم ، فاستغرب ما رأى . واشكى عليه امر الحفلة ، والا من
ابن الايطالي شمال حواء ؟ لا شك في ان الحفلة ستكون خذيا
لهذا المغرور الغريب !

مراكب الطبيعة .

مراكب قلما رأيت بيروت مثله موكبا . وهذا رستم باشا غارق في عربة فخمة ، يجرها ستة جياد ، وعلى يمينه ويساره كتائب الجنديين الرسمية الجميلة ، والموسيقى العثمانية تصدح نشيد الدعاء برسوخ عرش السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان !

احللت الجماعير على الحديقة ، فاذا بالفردوس يتألق بازاعيره الفواحة العبير ، الزاهية الالوان . انفضضة الاغصان .

هذه فسقية من الرخام الناصع تتدفق فوارتها خيوطاً دقيقة كجبال الشمس . وهذا منبر للخطباء والشعراء مزين بالزوايا العثمانية الحمراء ، وهذان الشمالان وراء ستار ابيض ناصع كشبابا الافجوان .

جلس متدبرف البلاد في مقدمة الصفوف ، غيظ به الحاشية ، وابناء الاسر ، وذوو المقامات الدينية ، وبعض من قناصل الدول الاوربية ..

وهذا طريق بين صفوف الناس ، مفتوح للمرور ، مفروش بالازاعير . وهؤلاء الحرس يحافظون على النظام ، وعلى الامن ، وعلى الآداب ..

وزعق النفير معلنا السكون لافتتاح الحفلة ، واذا بالفتات

فوق المنبر يستعد ليلقي محاضرته ، ولونه الفاقع يدل على أنه
مضطرب خائف ..

●
مولاي المتصرف ! يا ابناء بيروت ..

اليقظة في الامة ، مظهر من مظاهر نضجها . ونضج الامة
عنوان الثقافة التي بلغتها . فلما هجعت أمة الا كان انوارها دليلاً
على شلل في اوضاعها . لانت الجهل شلل القوى الاجتماعية التي
يتقهر مسير الامم في كل زمان ومكان !.

وكماني بيروت اليوم ، تعلن يقظتها ، مقدرة روح الثقافة
السامية مقدرة الفن الخالد !.

والفن فكرة مشاعة في كل امة ، بل حلم متجدد توف عليه
حماة الاعجاب ، فيسطع مرافقا الاجيال ! وبخالد عاضد
التاريخ ! وينطق معبراً عن العصور !.

والفن ثلاثة : روح . وشوق . وثبات . فالروح يجد الفكرة .
والشوق يخلق الجمال ، والثبات يوجد الجسد ..

وما نحن اليوم امام الفن ! بل امام تاريخ حي يهتف في
شعورك ، ان انظروا فلتسمعوا . واسمعوا فلتدركوا ! . وعندما
تدركون ، تصبحون امة تفضل الطبيعة على تقليدها . والحقيقة على
تقليدها ..

سترون آدم رجلاً عارياً فتلمسون فواه الطبيعية في جسده
المتبع ، فتعجبون غير آبهين لعرية الذي بررتة التقاليد مثالا .
وحظرتة الآداب انسانا ..

ولماذا؟؟ لاننا اعتدنا ان نجعل من عيوننا شيا كما نخطانا بها
اذناسنا!.

ولو فرضنا انكم رأيتم حواء امرأة غريبة لها دمها الحار
وافراؤها الساطع ، اصرختم مستنكرين ، وحكمتم على الفنان
بالنبد ، ونسبتم اليه الاباحة المحظرة في شرع كل امة ، وشتور
كل دين ، وهكذا يثبت انكم لم ندر كوا معاني الفن ، ولم تفهموا
السحر الصارخ في صمته . وبالا لـ كنتم كالفنانين لا تفرقون الجسد
البعض النابض بالحرارة ، عن الصخر الاحمر الناطق بقوة الخيال .
سترون آدم وحواء . رجلاً صخراً في هيكله برودة الحياة ، وامرأة
لحماً ودماً في حرارتها الموت . وسيكون حكمكم على المشهد
الجديد ، يرهاناً على ثقافتكم ونزجكم الاجتماعي .

هذه كلمتي يا مولاي ! فقد ابدلتها بالمخاضرة الضافية التي كنت
اعتدتها لهذا اليوم . ولكن حواء . حواء العصر ! وقعت في محترفي
حيث اسلمهم السماء افكاراً للارض . وفدمت التفاحة لشاب يري
وكان ما سترون ! . فاجذب خيطك يا مولاي ليري الناس آدم
الفن ! . واجذبه ثانية ليرى حواء الشهوة . وعندئذ يجدون الصخر
ويجتهقون الانسان . وعندئذ يدركون ان اجسادنا مهاوي
جهودنا وان عيوننا شياك اذناسنا . لتحي القضية !.

وجذب رسم يأساً خيطاً متصلاً بالسنان ، فانزاح السنان عن
ادم ، ونجحت العظيمة ، فدوت الحديقة بالتصفيق احاد . وحملت

عينات النسيم اصداء الاكف توزعه على شجيرات الفردوس المسقة
تحت الشمس ..

وجذب خيطاً ثانياً ! فهاذا بدا ...

غرابة فنية ! جنون مطبق ! دواء فاضحة ! ..

بل بدت نجلاء ! نجلاء زوجة الفنان الشهير ، الفيلسوف الشاعر .

نجلاء بالحمى ودمها . بجسدها الجميل وشعرها الطويل المسترسل ..

وانتفضى الباشا غاضباً ، وضح القوم مستهجنين ! وعثت قبضة

نجلاء الجنونية تطفو على الضجيج ، فسكت الناس ، كأنهم ارادوا

ان يسمعوا خطوات العقل هارباً ..

واستمرت نجلاء ترسل القهقهات الغريبة الحاملة لونا من الوان

الفحش ، وجفافاً من نضوب العفاف .

وكان طوبيا يرى ويسمع ، وكأنت نجلاء فيبحة الشكل في

عيني طوبيا .. وهوت لنجلاء العارية عن مرتفعها الى الارض .

فاخترق طوبيا الصفوف حتى وصل اليها ، فجذب الستار الذي

كان يستر جسدها ولقها به وحملها غير شاعر بنقل جسدها المتراخي .

واختل نظام الصفوف ، وسادت الفوضى ، وطوبيا الراكض

بين الجماهير يخترق فوضىهم حتى خرج من الفردوس حاملاً حواء

السافطة مغمى عليها ، ووضعها في اول عربة اصطدم بها وقادها

الى سريرها .

وعناك على ذلك السرير جلس طوبيا بذلك حدغيبها شاعراً

بروح الاخوة يدفعه الى اسعافها . منتظراً وصول الطبيب الذي

بعث من يدعوه ..

ولما وصل الطبيب قص طوبيا عليه حكايته . ولما استفاقت
كان هذيانها يثبت جنونها ..

وبعد هنيهة دخل الفنان محاطاً بالجدد ، فخرج طوبيا متألماً
على معامه ان ينتهي الى هذا المصير ..

مفاعلة فائمه ١ ..

- انتهت الحلقة يا طوبيا ؟
- انتهت يا امي ، ولكن على شكل وحشي !.
- وكيف ؟!

وقص طوبيا على امه حكاية الفنان دون ان يحشر نفسه في
المأزق . فقد اراد ان تكون بعيدة عن المؤثرات الضارة بقلبيها
الضعيف . ولكن هذه الام الفطنة الذكيّة الدفينة الشهور لم
تقبل الخبر كما سمعته من ولدها ، لانها لمست في كلامه وخبر فنة
وتقويآ ...

وطرق الباب ، فأجفل طوبيا كأن الطارق رسول مقبل على
امه ليصرح لديها بالحقيقة ..

ولما فتح ، اطمأن الى اسراره اذ وجد الطارق الباس امين
الحوري . على ان اطمئانه تحول الى دهشة اذ وجد الرجل ممتنع
اللون ، ممزق الثياب ، مجرح الوجه ، فسأله مستغرباً : ماذا دهالك ؟!

لم يجيب الباس ، كأن لسانه غاص في حلقة ، بل نظر الى طوبيا
بنظرة كسيرة قرأ في برشها ان مصيبة ألمت به . فقاده يرفق ،
واجلسه باشفاق ، وحدث اليه متألماً وهو يلهث مندلق الشقة
السفلى ، ناله النظرات !

وافبلت الام تسفهم بكل ما للنساء من حب التفتي فأشار
الياس بيده المرنمشة أن اصبري !.

وجلس الثلاثة دون كلام . وبعد عنبية وشاعا الحزن بسكوته
الصباح ، تهتد الياس بحشيرة جارية وقال :

سيدتي لقد جمعت خمسة وعشرين ألفاً من الديون التي لكم بدم
الناس ، ولكنني مرضت في هذه المدة الاخيرة فلم استطع الوصول
الى هنا لاقدم المبلغ شاكرأ سيدي طوبيا على ثقته بي . وفي هذا
الصباح رأيت نفسي نشيطاً فبحثت بالمبلغ . وما كدت افطع ثلثي
الطريق ، حتى تصدى لي اربعة رجال اشداء وانزعوا منطقتي .
ولما شئت الدفاع ، اوسعوني ضرباً وفروا بالالوف !

ونظر طوبيا الى امه ليوى وقع الخبر عليها . فوجدتها صفراء
وصدرها يعلو وينخفض ، ثم فتحت فيها لاهة . ثم غطت متوترة
الذراعين . ثم لوت عنقها على صدره فاقدت الحياة !.

ذعر طوبيا واستغاث اوصرخ الياس واستجار ! وترا كض
الجيران قلقين مضطربين !.

ولكن ما نفع كل هذا . لقد ماتت الام فكان موتها آخر
امل بقي في صدر طوبيا . فالمصائب انبالت عليه دفقاً ، فكبابه
الحبر . ونضعض منه الثبات ، فانبهرت رجولته ودار طفلاً يبكي !.

ودفنت الام بأنتم مهيب . فابتنها المطران يوسف الدبس بكلمة
لها شأنها في المواقف الخاصة ، ولما اخرج نعشها من الهيكل ، رثاها
طوبيا بكلام اقتطع معانيه من قلبه ورثيته . فقال :

يا امي !.

أيها الظل الوارف الذي ما يروح ستراً لجسدي .
لقد اجتاحتك منجل الموت ، وتركني هائلاً في صحراء سُقائي ،
تسب على عيني رمال الموت ونهب علي وجهي انفحات الجحيم !
يا أمي ... أيها المنظار الجهير الذي كنت أرى فيه المسافات
البعيدة الخطرة فأنتقي مزالها ، وأوقل المرتفعات كالغزال المروض ،
فأرى أعماق الأودية من مشارف القمم ، وعندما المخدر ، أجذك
أسمى قمة الوديان وأظل ظافراً ..
يا أمي ... القبر يضم جسدي . وجسدي يضم قلبك ، وقلبك
يضمني ، وأنا أضم المصائب والتجارب .
سلسلة حلقها الأولى حفرة كربية محيفة . وحلقها الأخيرة أنا
فما استغاني بعدك يا أمي ...
يا أمي ... يا أنشودة الحياة في فمي ! ويا أمل الصبا في قلبي !
ويا حلم المستقبل في مسيري ! أنك لم تقوي وأنا لبيت نداء الدعوة
الخالدة . أما أنا فقد ظلمت حياً لأموت كلما اجتمعت بأفكاري ...

زوجه

نقد استحالتي بيروت في عيني طوبيا ظلاماً و ناراً فليس له فيها
ذكرى تدي على قلبه ما يجعله يتخيل طيف السعادة . فباع بيته
الصغير ، وما يحتوي عليه ورحل الى الجنوب .. وفي الجنوب
تول ضيفاً على ظافر بك درويش ، فنتسي بعضاً من احزانه اذ لمس
في هذا الزعيم تقديراً للثقافة والتهديب ..

وظافر بك ، اقطاعي واسع القدم في الزعامة شديد البأس في
السطوة . حاكم بامرء في بلدته وجوارها . على انه يتحلى بصفات
تشفع به زعيماً اقطاعياً مستقبلاً . فهو كريم مضياف يقدر الادباء
والفنانين والرجال الاشداء ، والفرسان . وبالرغم من كونه اميراً ،
فانه مولع بالتواريف ، واحب تزيين لديه هو التوراة !!

وسأل ظافر بك طوبيا عن حكايته وحزونه ، فاخبره حكايته
بجريدة خاصة به دون ان يحشر في السياق ذكر المرأة . فاكبر
عاطفته ، وبالغ في تقديره . حتى فضله على الاخ دانيال الكاتب
لديه في شؤونه الخاصة .. والاخ دانيال شاب متعلم ولكنه لم
يلغ من الثقافة التي بلغها طوبيا ، اذ انه كان معداً ليكون راهباً ،
ولكن لم يستطع اكمال التبتل ، فخلع عنه الزي الاسود وتردى
الثوب الشعبي وسكن في القرية بخدم اليك عند الحاجة ..

وشاء خافرك ان يكون للمنطقة مدرسة تعني بهتذيب
الش . فحدث طوبيا بالفكرة . وسأله عما اذا كان في نفسه استعداد .
فقبل طوبيا المهمة واصبح معلماً في البلدة ، ومستشاراً في ديوان
الزعيم . .

ومضى على طوبيا خمس سنوات معلماً . فظهرت النتائج الحسنة
على التلامذة ، فاذا بهم يقرأون جيداً ويكتبون حسناً ، ويحكون
اغلق الاعمال الحياوية في القواعد الاربع الضرورية . .

وفي هذه المدة كان طوبيا يعطي الدروس ليلاً لابنة الزعيم ،
ملك الفتاة المتقدة بالذكاء . المنورة في الخيال . الموهبة بالسحر .
حتى اصبحت تقرأ قرأمة اصولية . وتكتب كتابة رفيقة ، فضلاً
عن انها كانت تروض نفسها على الفروسية ، من ركوب الخيل
وامتياق السيف . ولعب الرمح ، حتى اشتهرت في العشيرة كلها
وتحدث الناس عن مرام .

وطلبت مرام يوماً من طوبيا ان يصحبها الى البراري فتكون
واباه فارسين وحيدتين في مروج الربيع الدفيقة الازرق . . على
ان طوبيا لم يعطها جواباً ، بل استشار الزعيم عملاً بها في نفسه من
الاخلاص والتهذيب . فوافق الزعيم ، ورافق طوبيا بالسماعة
لطيفة قلما ارنست على شفتيه الجافتين الغليظتين .

وركبت مرام مختال على ظهر جوادها مدغدغة ناصية ، والجواد
يتنصب على رجليه خوراً ، وشب كالسهم تارة ، وطوبيا يلزمها
حذياً ، فيدرجها في العتبات ونسبه في السهل ، وتنفذ الى

الوراء تبحث عنه وخجكة موسيقية يتجاوب صداها في هاتيك
المروج بين الاودية الخضراء الخضلة العطافات .

وانتهيا أخيراً الى سديانة مسنة خلبية . فنزلا يرتبان في ذلك
الظل الشمس ، ويصغيات الى خرج العين العذبة المياه ، البراقة
الفطرات .

وفرغت مرام فوق العشب والازهار كأنها غلصت من قبور
الزعامة ، او شعرت بدافع الاغراء الذي يلا كيان الاتس عندما
بروقها الرجل ..

وفاحت رائحة الخند فوق نسكر قلب طوبيا ، وتلعب بشعور
مرام قتياد لان كلاماً افعل بالنفس من رائحة الخند فوق ..

ونظر طوبيا الى مرام نظرة ايضت قلبه الحاجع ، فرأى في
وجوها فسحات من وجه نجلاء فتهد في احافه كان السنوات الخمس
لم تكن كافية نحو هاتيك الذكري .

وجلسا يا سكلان ! وكان مرام شعرت بما في قلب طوبيا فنهبت
ورأت ان تغربه بسكونها .. وسكت طوبيا ايضاً ، على انه ظل
يختلس النظرات من عيني مرام الضاحكتين المتوربتين المشرقتين
كشمس الربيع ، وطال السكوت ، ولم يبق من حركة سوى
طنين المنجل والفس المضغ والازدراد ..

ونجفت مرام غلاً حفتها من العين واشرب . وخجك طوبيا
قالاً : ما الطاف كآسك يا مرام ، فبادته الضحكة ومالت هاتيك
الحفتين السجائبيتي اللون . وقدمتها اليه ، فابى واعتذر . فخذفت

وجبه بالماء وارتدت ضحكك وتخرج على بساط الريح
انساعم الفواح .

وظل طويلاً منظرها على جنبه يسبح وجهه بكمه . .
وعادت للأيتها ماء . عادت تقدم له الكأس الجديدة الشهية .
عادت لسقيه سائل فؤادها بشكلى الماء ، ولما رأت منه امتناعاً ،
ضحكت مستعطفة وقالت : ان ابيت فمصيورك الاغتسال . فالحنى
على كفها يغب ما فيها ، ولم يدر ما اذا كان يشرب حمراً علوية ،
ام اكسيراً يجدد الحياة .

الحب

وعادنا الى البيت حبيبين . عادا يسيران خبيبا والجوادان
مخاضيان متلاحقان جنباً الى جنب ، ويد مرآة تقبض على يد طوبيا .
وطوبيا يحس ان روحه تنزل من جسده شيئاً فشيئاً ، ثمحل فيه
روح جديدة ، تعرفه كيف يتزوج الشباب بالشباب .

لقد تبدلت مرآة تبدلت لفت انظار الناس اليها وعلى الناس
غير محتر طابع ، وتحليل غرائز ؟ . على الناس ألا مرفب يرصد ما
يبدو جديداً ؟ . فالصبي المأداة الحجول بدت فجأة لهوباً جريئة ،
ساحرة الضحكة . فتاة الخطوات وليس ادل على تبدلها من
هاتيك الموسيقى الجديدة التي قارت صوتها ، وليس اثبت على
نحوها من هاتيك النظرات الرقاصة الجريئة المرمى . اما ضحكتها ،
ضحكتها الصادحة كغرودة الليل ، فهذه وحدها تفصح عما في
فياها من هيب الحب وصفاء النجوى .

وجلست يوماً تقرأ لاييها فصلاً من سفر ايوب وتفسره له
عندما تقوته الاماني وابوها يصفي اليها بالقباء وعيناه تلتمعان
بهريق السرور والغبطة . اما طوبيا المصفي الى صفواتها الصرفية
والنحوية ، فقد اضاع اصغاه ، وراح تله الفكر في مهب الاماني
العذاب هل يتنازل ظافر بك درويش ، زعيم المنطقة بأجمعها

وحاكمها الاجتماعي الشديد البأس ، ان يوجه بهذا الملاك ؟ . واذا
أبى فهذا يكون نفع الحب ؟ فهل يستطيع ان ينسى حبها ؟
وحقق البها وهي منصرفة الى التوراة ، حشدت الى اهدافها المسبلة
فوق الصفحات كأنها تعكس على الكلمات طسلسل ايوب نفسه ،
فتراجع الزمن ، ونهوي الابداء والاجبال وتعود الآلام التي
امت بحسد ايوب ، فتجلى في قلب طوبيا ..

ما اشد وطأة الحب ، بل ما اجهد من يجب من نكون اسهى
من الحب ! ..

فقطع طوبيا النهار تفكيراً ، وانهى الليل دون ان تلامس
جفنيه غفوة . فهو يطلب نهاية يستقر فيها مصيره ، وهل من نهاية
الا الزواج ؟ هل من نهاية غير بناء عش آمن يكون مدوياً للعيلة
المزمنة ؟ . وفكر في العيلة . فكر في الحياة . فكر في السلسلة
العظمى التي تربط الجيل بالجيل ونحوي مناعة البقاء ، بل فكر في
هذه المعجزة غير المدركة التي اوجدتها القوة غير المدركة ، ونحس
من فراشه خائر العزم كأنه شاء ان يحس ضعفه بالغرب ، فالفراس
لا يلين لبائس . ولا بنعم لمتيم ..

وهل طوبيا بائس ؟ . وهل كان البائس غير الفقير الذي لا
يملك قروشاً ؟ إن طوبيا ليس فقيراً . فشن البيت ما برح موفراً .
واجور السنوات الخمس لم ينفق منها شيئاً . فالزعم لا يسمح له
ان يفرط بقرش واحد من ماله .

وضاق طوبيا ذرعاً . ان ما في نفسه من الآلام لا يقوى على
احتياها صدره على سعته ومناعته . فهذا يفعل ؟ ..

وكتشف نفسه الى دانيال . الى الشاب الذي كانت معداً
ليكون راهباً . ودانيال صديق حميم لطوبيا فقد قطعها السنوات
الخمس اليقين متحابين متجادلين علمياً ونحويّاً . بل قطعها كاهناً
وثالياً اذ كان يعترف كل الثاني بما يفعله في بيارة ويفكر فيه ليلاً ،
وكم كان استغراب دانيال شديداً عندما صرح له طوبيا بأنه يجب
مراماً ، وأنه يفكر في الزواج بها . على ان هذا الاستغراب لم
يكن مخفياً بل ظهر بالنصح الا يقترب من الزعيم لئلا يخذله .
فتتضاءل منزلته لديه ، ولكن طوبيا لم يزعزع كلام صديقه ما فيه
من الجراءة . لأن الحب لا يتوكل خوفاً في قلب .

سورة :

ومرت الأيام تطوي آمال الناس الماضية انوفهم لدى آمال
جديدة ، وطوبيا ما يرح معصراً على أمل الذي لا يطوي ..
وجاءته مرام يوماً تلفت نظره الى نشيد الاناشيد . مسجورة
بقوة النعم وعذوبته معجبة بصراحة النجوى وصدقها .
وطلبت اليه باقراء ان يقرأ وانها هذه القصيدة الحادة المخلدة .
فكوت الطيبة . ويكوت الحبيب ، تكون ملكة النسيم
ويكون ساجان ..

وقرأ . وفراة . ولما التها ، تفجعت عينا مرام عن يرق
جديد وسالت طوبيا : انجيني ؟ .

فقال ما تقع الحب اذا قضت عليه يوماً ارادة الزعيم ؟
فقلت : لا زعيم على الحب يا طوبيا . فقد اوجدت الشرائع
قانوناً لكل متج . اما الحب ! هذا الذي ظل حراً صليلاً ..

- امكن ان تكوني زوجتي ؟

- اكون معها شئت يا طوبيا ..

وشاءت ان تاتي في حضنه ، فاعذرت بلطف وقال : مرام !
دعي هذه الازهار على وجنتيك بكراً حتى تصيري زوجتي
فاطفا ..

فارتعشت ابنة الزعيم وتوهم خداعها بلهيب الحبل . ولما شئت

ان تتكلم ، ظهر ابوعا فجأة وانتهرها بصوته القاعف : مرام !! .
ايتها الطائشة الوفحة ، ألم تدركي بعد انك اسمي مسن ان تلقي
بنفسك في احضان الرجال ؟ فاطرقت مرام مصعوقة . ونهض
طوبيا يعنذر . على ان الزعيم لم يبد غاضباً على طوبيا فهل يكون
شاهد الموقف ؟ ..

وخرج طوبيا . ولكن ابس ذليلاً .

وبعد ثلاثة ايام دعا الزعيم طوبيا وقال له : لقد رافني ادبك
يا ولدي فلا بأس من ان تكون مرام زوجتك . فانحنى طوبيا
مقبلاً يد الزعيم شاعراً بقيض السعادة .

يوم الجنوب ١.

ظافر بك درويش يفيض كرمًا واطفًا . والجماهير تتأب
افواجاً على الموائد الغنية الشبيهة الخافضة بكل مسكر والذيد .
وسهول الجنوب وعضياتها مكنظة بالفرسات ، وقرع الطبول
والزمر بلأ الارجاء ، وحمدي المهرجان الكبير ينتشر في الآفاق
ويتكسر هديرًا غامضاً على ذراري الانهر ..

وطوبيا ! طوبيا الحالم بالنف سعادة وراء كل نظرة من عيني
مرام ، جالس على مرتفع بين الاعيان والوجهاء المشرفين على لعب
السيف ومبادئ الجياد ، وحلقات الرقص ..

انه ليوم لم تشاهد البلاد مثله يوماً . ان عرس مرام يجب ان
تشترك في افراحه الطبيعة باجمعها . الجياد والنبات وكل ما يدب
على التربة الجنوبية . وليس كثيراً على السماء ان اشترك ايضاً ،
البت مرام عنواناً لجمال السماء .

كان طوبيا مصعباً الى هذه الافكار . مرافقاً احلامه البيضاء
التي يراها في يقظته . شاعراً بنفسه انه رب البشرية جمعاء ، وانه
يستعرض خلقه في يوم عرسه ليرى ما اذا كانت جذيرة بات
تقول له ياربي ..

وكانت زغاريد النساء تزيد فشوة ، ولا سجا عندما يسمع اسم
مرام يتردد في الاغاني والاعازير ، فيحس نفسه مرتفعاً فوق

الجميع ، جالساً على سحابة بيضاء ، حاجباً الشمس عن البشر .
شعور لم يحس أبلغ منه حتى الملوك في أيام ظفروهم .
ودام المهرجان ثلاثة أيام بلياليها ، وقطعان الغنم تنصر على
الطرق وفي الساحات . والمجور تراق كالنسيم المنفجر في سفع .
وفي اليوم الرابع مثل الجماهير الى حفلة الزفاف فضاقت
ممرات البلدة بالناس ، وتعذر على الفرسان المرور ليهواكبوا
العروسين . وظافر بك يستريح الحشد اعذاراً ، حتى وصل
المركب الى الكنيسة ..

وفي الكنيسة تجلت الروعة باجلى ما في الدين من طفوس
وتقاليد فهناك مرقية أنيقة مجللة بالازاهير ، منأفة بالشموع ،
وحولها ثلاثة اساقفة بالطيبالس والتيجان المرصعة . وعشرات
الكهنة بالملابس الكنسية الجميلة الرائعة . وكلهم يحنو الرأس خاشع
الطرف استعداداً للصلاة .

ووقف العروسان الجميلات حول المرتبة الاتيقة ، وبأثر
الاسقف الاكبر منأ الصلاة ، فلامس طوبيا عينيه ليري ما اذا
كان حليماً . ولما تحقق يقظته ، نظر الى مرام بشغف ، فوجدها
مكفهرة الوجه ، حمراء الاجفان ، فيما بالها ؟ .

وحقق قلب طوبيا خوفاً ، وسأل نفسه : انكون نادمة على
رضاها بي زوجاً ؟ . على ان صوت الاسقف اوقفه عن المضي في
تصوراته ، اذ سمعه يسأله قائلاً : يا طوبيا ، تريد مراماً حكرمة
ظافر بك درويش زوجة لك ؟ . فاجفل طوبيا غير مصدق واجاب
بصوت الهب حنجرته من الفرح والحجل . نعم !

وعاد الاسقف يقول : وانت يا مرام اتوبدين طوبيا الخلي
زوجاً لك ؟ ففتحت مرام فيها التجيب ، واذا بهينها ليحظان !
واذا يقم. يفر دعرأ ! واذا بصوت خفيف يخرج من المرق صدرها
واذا يناسق مغمى عليها !.

اضطرب النظام . وخرج الناس . وعلا الصراخ ، وانرجعت
الكنيسة هذه الضجة صدى زاد في تبايل الموقف . فخرج طوبيا
المختل اعوج وحمل مراماً بين ذراعيه مثلاً حمل زوجة القناص
عندما سقطت في حفلة التمثال واخترق الجماهير حائلاً كالجنون :
افزعوا طوبياً للعروسة !.

واجعل الناس من صيحة طوبيا المتتفة بالرعب والتخير .
فتراجعوا مشدوهين ينفجون طريقاً ، وفي عيونهم بريق الاستفهام
حائر الاتجاه .

وانطلق طوبيا يحمل عروسته مثلاً حمل جواء معطه . وكان
سريعاً قويا . كأن في قدميه عاصفة هوجاء . بل كأن وشاح مرام
الطويل ، وشاح العروسة الابيض المتهدل على جسده جناحان
يندفع بهما الى دار الزعيم .. وعلا الصراخ والعويل . وانقلب
العرس مأتماً صادق الصرخات . واندفعت الجماهير وراء طوبيا .
وطوبيا لا يقف ولا يلتفت . وكان دانيال يركض محاذياً العروسة
يكلم طوبيا كلاماً حافلاً بالحرن والالم . وطوبيا لا يفهم ولا
يجيب . فكان نبضات قلبه السريعة حالت دون وصول اي صوت
الى اذنيه . على ان طوبيا لم يستطع الاستمرار في ركضه
فاطريق ذو عثرات ، واخاذيد ، وعطافات . ومرام المتراخية

الجرد الفاقد الحس نهكت قواد فسقط لاهثاً خائراً وعيناه
 الكسيرتان تدعوان الجماهير ، أن ارحموني !
 لقد سقط طوبيا على جذع شجرة . وسقطت مرام فوق صدره ،
 باكيلها . وسفرها . وحلاها . وعطورها .
 ووقف ذاتيال يرقب الوضع بنظرات غريبة . مشتتة بالغيرة
 والحسد . وختع الناس امسام لمشهد الشعري الغريب ، مشفقين
 على جمال مرام وصباها . لاعتقادهم انها ماتت .
 ووصل والد مرام . وصل الزعيم ذو البطش والسطوات ،
 مقوداً من ذوي الوجافة . ووجهه يلقي على الناس عظة عن
 العاطفة العميقة الغور . . ووقف لاهثاً . ونكلم متلججاً :
 يا وحيدتي ! أليكون عرسك ومأثك في ساعة واحدة ؟ وبكى
 الاقطاعي الصليب الفؤاد . وتعالى صوت بكائه خشناً اجش .
 فبكت الجماهير على بكائه . فكان زعيماً حتم في حزنه . .
 وليس غريباً ان يكون بين الجماهير اطباء فالدعوة الى العرس
 كانت باللغة الاقاصي اللبنانية ، فاشار هؤلاء الاطباء ان ترفع مرام
 على ظهر جواد ، لتوصل الى سريرها .
 ولما شاء الفرسان ان يرفعوها اعلى طوبيا جواداً وقال :
 ارفعوها الى حضن عريسها ! وهكذا سارت الناس وراء الجواد
 الذي يحمل العروسين !

طوبيا يهرب !

ثلاثة أطباء يفحصون العروسة . وطوبيا ينتظر خارجاً واذنه
على باب غرفتها ليسمع ما يقال عن حباتها ..
وبعد عذبة خالفاً دهرًا . سمع لفظاً ، وتبع اللفظ حوار .
وكم كانت دهشته رابعة عندما سمع الزعيم غاضباً ، ويقول : مرام
حبلى ! هذا لا يكون !

فاجابه احد الاطباء : ليس غريباً يا سيدي انت نجل ابنتك
وخطيبها على اتصال بها .

مزجر الزعيم وتوعد وقال : خطيبها لا يستطيع هذا الارتب
ان يسطو على عريشة الاسد ؟ ايكفر بتعمتي ويدنس عرضي ؟
سيدري ان دون انتهاك حرمة البيوت تحطم اجسامهم !

اضطرب طوبيا اضطراباً انساها لوعته وحبه . بل انساها سعادته
التي انسته نفسه انساناً ، واوممته انه الله فوق السحب البيض .
ولكنه نجالد وقالك . وخرج منسللاً السللاً دقيفاً . واذا ما شغل
الى اين ، اجاب لأعود بدواء الى عروستي !

وفكر طوبيا بالغرب ! ولما دخل غرفته لبأخذ ثقبه خلق به
دائبال وسأله مستغفماً : ماذا جرى ؟ فقال لا شيء ، يا صديقي ،
لا شيء ، التي ذاهب الى بيروت لابتناع دواء لمرام ..

- ولكنني سمعت ما سمعت انت ، اذ كنت واقفاً وراء
النافذة . ان مرأماً حبلى ، وانت المسؤول عنها .

ارنجف طوبيا وقال : ولكنني بريء يا صديقي يشهد الله .
وعب انك بريء . وعب انك نجحت لدى الزعيم فلا بد
لك من احد امرين ، اما الزواج واما القتل . واني ارى القتل في
حل هذا الموقف اشرف جيداً من الزواج ، اذ كيف يعقل ان
طاهراً عفيفاً مثلك يتزوج بعائلة لا تقيم للعفاف وزناً .

- وكيف يجب ان اندبر ؟

اعرب وانج نفسك ، انك لا ترفع من ان تهوي الى دركات
الذل ...

- وكيف اعرب ؟

- لم يزل لدي الزي الرهباني الذي كنت البسه ايام المدرسة ،
فتسكربه واسلم ..

- شكراً يا صديقي ، لا شك في ان الله ارسلك لتعبرني كما
حرس الملاك طوبيا للتوراة ..

وانطلق طوبيا راعباً . انطلق يضربه في الارض على غير
هدى . انطلق وفكره قائم بين نفسه وبين مرام . فمن يكون
الفاعل الدنس ؟ من تراه نجراً على قتل الطهارة في هذا الملاك ؟
من بذر في نفسها بذور الشر ؟ الويل للحيوان الرابض في منعطفات
النفس .. الويل للشيطان المنتصب في وجه ملاك الرحمة ...

ومر في بيروت . فتكاثرت ذكرياته ، واضطرب رأسه وقلبه
في هذا الأزدحام . وفادته خطواته فسرأ عنه الى بيت نجلاء .
فرأى الابواب مغلقة ، والمحترف مقللاً . ولم يتوان عن السؤال
عن في البيت . فقيل له ان البيت مهجور ، لان شيطاناً يسكنه .
- البيت مسكون من الابالة ؟ وكيف عرفتم ؟ .

فقيل له : لقد تراءى هذا الشيطان لنجلاء الإيطالية فجئت .
- ومن هي هذه نجلاء الإيطالية ؟

- زوجة صانع الاشخاص المجربة .

- وابن تقيم هذه المجنونة ؟ .

- في الجبال . بين الاحراج . فتارة تبكي وطوراً تضحك .

وآناً تغني ...

- وابن زوجها ؟ .

- تفاه المتصرف الى بلاده لكونه غير مهذب ..



ومر طويلاً امام داره . فتراحت له امه من خلال دموعه ،

تراحت له غضبي . فغطى وجهه بيده وغير ...

بكرى

لم يجد طوبيا مؤثلاً يلوذ به الا قصر بـبكرى . فالبطريرك
بولس مسعد ، خير ملجأ يلجأ اليه في هذه المحنة . فهناك صدر رحب
وذراعان مفتوحان لكل ضال ... ودخل الراهب المتدرج الى
صرح التاريخ الفخم ، ولثم يد البطريرك ، ولما سأله : من اي دير
انت آت ؟ افروقت عيناه بالدموع واحساب : من دير المحن
والشقاء يا سيدنا ..

فرقت حاجبا صاحب الغبطة يستفهمان بدون كلام . على ان
الراهب لم يجب بل اطرق خجلا .
ونكلم البطريرك مشجعاً : كن صريحاً يا ولدي انك لقي
صرح لا يقيم للالغاز وزناً . فهل سطا اللصوص على ديركم فتهبوا
مخزواته ؟

- لا يا سيدنا . بل سطت المصائب على قلبي فتهبت جوهره !
- أعدت للالغاز ؟

- وهل نحن الا لغز في هذا الوجود ؟

- قلت لك افصح ان شئت ان تنال مطلباً !

- اود ان اعترف يا صاحب الغبطة !

- بورك الله ايمانك يا ولدي . ان الكهنة كثيرون في هذا

المرجع ، فاذهب واحلب من شئت منهم !

- ليت غبطتكم تسع اعترافى يا مولاي . الله حديث ككل
حديث ، لا جربة ولا خطيئة وانما تدير جديد يغير مجرى حياتي .
ان مجاري الحياة في يد الله يا ولدي . وشجرة واحدة لا
تسقط من رؤوسكم بدون ارادة ابيكم ، تكلم !

وجنا طوبيا بين يدي البطريك الوقور . فاحس رهبة السماء
نسيم على الموقف . فتهيب ! وجرد حكايته منذ البداية . وطلب
الى سيده ان يسلمه بامر لوفيس دير . فزحيا ، لينضم الى جنود
المسيح في الشمال ..

وكان طوبيا صادقا في انجازه . منسجنا في اعترافه نادماً عما
مضى مستعداً لقبول ما سيكون . وهكذا نال ما طلب وودع
ولي العرج وانطلق يطلب الشمال ..

ثلاثة ايام سيرا تكث قواه . واوهنت قدميه . وفجرت
العرق من مام جسده ، فابتل كل كساء على جسده حتى العباءة
الرهبانية المنسوجة من الشعر !

بشري

قناطر . غرافد . شرفات ! كلها تقفح الى جنوب واحد ،
كانت فرحاً من الشهيد وقف على دائرته ، فبدت تخاربه بهذا
الشكل الهندسي الاخاذ !
وسأل طوبيا احد المارة : ما هذه البلدة يا اخي ؟

فضحك الرجل ضحكة تغرغر بالتهكم والالغاز وقال : انجبل
معقل متقدمين ؟ ألم ترَ مقايض المقدم رزق الله نعصد الزوايا
والاركان بالايان والجبروت ؟ أما سمعت يوماً ، أو قرأت شيئاً
عن ذلك الجبار الذي شجذ دينة سيفه . وحن سيفه دينة ؟ انجبل
بشري ؟ ..

فارتعش طوبيا ، واحس رهبة المكان تحوطه بشعور غريب
وبدت روح الرب ترفرف فوق القمم العالية لتجسس ارز الرب ! .
فخشع ونهيب ، وحاول بقدر مستطاعه ان يزن وقع خطوانه .
فالمكان مقدس نعصف فيه الارواح الخالدة .. في الاعالي روح
له . وفي الاعماق دماء الشهداء تعطر التربة المهجورة ..

وادار طرفه نحو الاعماق . فبدأ امامه الوادي المقدس فجوة
رهبة لتبخر الاخوة بين فرجتها ، فتستحيل غشاء سماوياً شفافاً ،
يرفع الابرار بحلم شعري باهر . فيه نقطة وفيه غيبوبة .

ووقف مسجوراً ! وقف يودع الالمان في جسده . وقف
ينفض التراب : التراب الجائع عن روجه الزاهدة . وقف يستل قلبه
من بين جنبيه لينقيه مما علق به من ذكرى نجلاء واغرائيا ، وحب
مرام وسطونها . بل وقف لينذر نفسه امام قدسية الدهور ، ناسكا
لهذه المغاور المقدسة !

في هذه الفترة المنفصلة عن الغرور . والطمع . والشهوة .
وحب التراب ، سجد سجود موسى امام هيب العوسجة وقال
بصوت مذبوح : اللهم امنحني هذه الاعناق نصيباً لابامي فاشرف
منها على سمو ملكوتك . اللهم ادر عنان نفسي بيدك القوية . لقد
غابني العالم فتركت العالم !

•
ونبض طوبيا منسحقاً . ومشى مطرفاً شاعراً بيقظة روحية
تستولي على كل شاعرة وحاسة في كيانه . ولما بلغ المدينة التي
بدت لعينيه كقرص الشهد . احس بامعائه تضطرب جوعاً ، فابتاع
اكلاً وعبر الأزقة لا يلتفت ولا يتريث واذا ما سأل سائل عن
يكون ، وماذا يطلب ، ناعم بالجواب ونغم قائلاً : فزحبا ، ابن
الطريق الى دير فزحبا . فيرثده السائلون ويتابع المسير .
وروجه الكبيرة تفزع امام بصيرته طريقاً رجباً من التفكير
الطليق ، البعيد الاهداف الكثير الرغبة في ملكوت الله ..

والخدر طوبيا الى هاتيك الاودية السحيقة مصغياً الى انشاد
التحازير ، وهدير المياه البعيدة الصوت والصدى مأخوذاً بروعة

المكان . مسجوراً بالنسبة للندية ، الداعمة للمسيح ، حتى اهبط على
قنوبين ! ..

وهناك في ذلك المقدس الابدي وقف مشدوهاً واتسعت عيناه
اذ رأى ناسكاً شيخاً ساجداً امام زرقة السماء رافعاً ذراعيه نحو
العلي ، وسفناه تبتزان كبحاحي فراشة حائرة حول مصباح خشيل !
وهتف طوبيا دون ان يعي ! بورككت من واء كل مسافيه
ظاهر وعفيف ! ما هذه الافداس التي نحول الجسد قفصاً لا يحس ،
لروح كلها شعور واحساس ؟ . وبعت طوبيا عتافه مشتتة بالايان
فرسم الراهب الشيخ اشارة الصليب على وجهه ، ونفض ملتفتاً نحو
الصوت . ولما التقى النظران تكلم الشيخ مغفماً : مبارك انت
ان كنت رسولاً من رسل المسيح . اما اذا كنت خائساً جاء
ليشتري نفسي بعريق العالم ، فلنلعنك السماء !

فالتحدر طوبيا مسرعاً نحو الناسك وركع بين يديه قائلاً :
باركني ايها القديس ، اني آت لاغذي نفسي بامانة جسدي : فارتفعت
يد الشيخ المعرقة فوق رأس طوبيا لتبارك الشاب العفيف ، ومر
طائر في الافق ، فانعكس ظله بين الناسك وطوبيا عابراً ..
في هذه المنية سمع طوبيا اهاريح السماء في حفيف الاغصان .
واستنارت نفسه بضياء جديد ..

فزعها

في الغد ، كانت بوابة دير القديس انطونيوس الكبير تفتح
عند منبج الفجر ، بينما كانت الرهبان يرتلون بأصواتهم العالية
المشتركة لحناً سرانياً جميلاً للقديس افرام ، في كنيسة الدير
المحفورة حفرأ في سفح الجبل ..

فتحت البوابة وخرج صوت من الداخل : من تكون ؟ فقال
طوبيا : مؤمن جاء يزور الدير .

- تفضل ادخل ان الرهبان في الكنيسة . ألا تريد ان
نشاركهم في الصلاة ؟

- اني آت لأشاركهم في كل ما يعود لمجد الله .

- بوركت مؤمناً صحيحاً ..

دخل طوبيا الكنيسة ، فتفحصه الرهبان بعيونهم واحداً
واحداً وتابعوا اناسيدهم الروحية : « هوذا الصباح قد حمل النور
مصباحاً ليوقف البشر من هجوع الظلام فوجدوا مرب الأرملة »
« انه يفرع ابواب العالم ليفتحها ! »

« لقد انتفض الرافدون كأنهم سمعوا صوت الصباح الشجي »

« هوذا العالم ! الاسواق تندفق بأفواج السائرين كالبنابيع .

وذوو المراتب اجتازوا ابوابهم ، وجلس كل ذي سلطان في كرسي

نبيه »

لقد اصغى طوبيا الى هذه الجوقة الروحية ، فالتفت روحه
اغتراباً . وقال في نفسه : ما اجمل من يقطع مسافة العمر
مستعبداً جسده .

ان المسافة التي نصل الروح بالتعب يجب ان تخصص للروح .
سبطل الانسان جاهلاً حتى يعرف مركز جسده من روحه .
ويفهم كنه روحه في جسده .

الجسد كوخ حقير مظلم تجوس في زواياه الغوام والديدان
اذا لم تسطع الروح في ارجائه .

كان طوبيا يفكر وهو جالس ، وكانت ركبته مسمرتين في
ارض الكنيسة وقلبه يحقق خفقاناً جديداً لم يحسه قط .
ولما اتم الرهبان صلاتهم وقدموا ذبائحهم دعا الرئيس طوبيا
اليه وسأله : من تكون يا ابني ؟ فاعطاه طوبيا رسالة البطريرك
دون ان يجيب . فقرأ الرئيس :

بعد البركة ! اننا نأفل رسالتنا اليكم يدعى طوبيا اخلي من
بيروت . لقد اتى دروسه في المدرسة الشرفية الاكاديمية وهو
نواق الى ارتداء الثوب الرهباني المقدس لانه يشعر بانه مدعو لهذه
الدرجة السامية . فحافظوا عليه . واكرموه . انه مقيد للدير
والطائفة . ان علومه مثارة في وادىكم المقدس . نكسر البركة .

انفردت اسرار الرئيس وفاد طوبيا الى غرفته الخاصة ليقوم
بضيافته ، ويرتب انجاءه . وسأل الرئيس : طوبيا ، في اي دير
ارتديت هذا الثوب يا ولدي ؟

فقال طوبيا والحجل بحرق وجنتيه ، ارتدت الثوب لا تفكر
عن الرقباء لاني عارب من العالم !.

- العالم !

- نعم يا ابي . انا العالم مغر بحيف ، لا يقوى على الثبات
في مهاوئه الا من يصحى بضيقه وانفسه وشرفه ، وعندما يصحى
المرء بهذه كلها في سبيل الغاية ، يصبح عضواً مشلولاً في هيكل
المجتمع ..

- يترامى لي انك لاقم يا ولدي . ومن كانت هذه حقيقة لا
يجوز له ان يندو نفسه ثم راحساً ، لانت الراحب مثال التجرد
الانساني والصحكال الارضي فهلا تنقبت بما يعصف بصدرك من
احقاد ونقمة ؟!

- لم يعرف صدري حقداً ، ولم يحس ضغينة وقبداً اعترفت
منذ اربعة ايام لذي صاحب القبطة ..

- اعترفت ؟!

أفي الامر غرابة ؟!

- لا . لا . معاذ الله وانما كنت مستعداً ان اجمع اعترافك .

- لم يحدث معي شيء بعد اعترافي ، سوى النجاشي في قدسية
هذا المكان .

- ليباركك الله .

- ولتباركك نحن ايضاً ..



الحلى الصباح ورضعت الشمس ادواح الغابة واعاني القمم .

فقرع جرس الافطار وهبط الرهبان جميعاً الى احد الاقبية
ليتناولوا افطارهم .

وكان طوبيا معهم . مع القسيس لا مع الاخوة المتدربين ، ان
رسالة البطريرك اعانت طوبيا شخصية تحترم في هذا الوسط المنظم .
وبعد الافطار تفرق بعض الرهبان والاخوة في الحقول ، كل الى
عمه . وظل في الدير بعضهم . . وشاء اعلم الباقين ان يحدث طوبيا .
شاء ان يعيجم عوده ويختبر معارفه وعلومه . .

ايها الغريزة في مخلوقات الله كلها . فاذا ما دخل ديك جديد
بين الديكة هجمت عليه واحداً واحداً لتجشبه فوته . فان غلب
احتقر وعاش ذليلاً . وان غلب ساد وتهاوس او ما نراه في الديوك
نراه في النعم وغيرها . اما في الانسان ، فلا حاجة الى البرهان ما
دام كل منا يحس هذه الحالة في نفسه . .

ونكلم الراهب العالم سائلاً طوبيا : أنتقد أنت آدم هو
الانسان الاول على الارض ؟

فابتسم طوبيا واجاب : كم كانت سؤالك ذافية لو لم نقل
الارض . . وهل وجد الانسان الا للارض ؟ وهل وجدت الارض
الا للانسان ؟ فالانسان والارض جزءان يتمايان كلية الوجود . .

فقال الراهب : اراك تنهرب من الجواب السديد بتداورة
وحذقة ، فاننا اطلب جواباً عن آدم لا عن الارض !

- لا يا ايست . انك تطلب الانسان الاول لا آدم . واليسك
جواباً . اذا لم يكن آدم ذلك الذي نعرف اول انسان فيكون

غيره . فالعاقل من يتصور ان انسان واحداً وجد في البدء والى
الحبار في ان تخيل هذا البدء كيف نشاء .
فرفع الراهب رأسه مستخفاً وقال : الآن انت لا ترى موسى
سوى خيالي فيما روى .

— انا لا احفل بالصورة بل بالحقيقة . فالصورة واسطة للوصول
الى الغاية . الصورة قشرة لب الحق من القشرة . فليترككم موسى
مثل يريد . وايرو ما طاب له ان يروي . فلا فرق عندي ان
احمدني القمم . او عبط بي الى سحيق الاوداد ، فاعلم ان يريني
الله في هذه الرحلة . وعلى كانت توارث موسى الا مرأى وجه الله .
قال طوبيا هذا ونظر الى الراهب ليسمع جواباً . غير ان
الرئيس اشار الى راهبه بعينه ان اسكت .

ومرت فترة صمت . فامتلات ارجاء العرفية بهدير الوادي
واحداء فجواته . وانطلقت عيناً طوبيا من النافذة تستعان بالجمال
وفتنة المنك المقدس . هناك طيور تخط وترتفع . وهناك اشجار
نبس وتتشابك . وهناك مياه تندفق منحدرة كفوارات النور .
وهناك جبل ينسام بالنظام وروعة الطبيعة تزركسته بالوانها
الشعرية وهناك قطعان الدير تبدو في الغابة البعيدة كزبد الامواج
وهنا شجرة ضخمة مسنة تعكس ظلالاً ظليلاً في فسحة غريبة من
السفع . وراهب يستلقي في ذلك الظل . كأنه يودع آخر بريق
من لآلء العالم . .

في هذه المنية الخافتة بالتأمل والاعجاب . دخل الخ يحمل

القهوة ويقدمها لرئيسه . فآخذ الرئيس فنجاناً ، وقدمه لطلوبيا
وقال ممازحاً : ألا تحب ان تذوق قهوة الرهبان ؟

فابتسم طوبيا وقال : أيسكون في القهوة لذة أكثر مما في هذه
الطبيعة الكارزة ابداً فبعد الروح ؟

فاجاب الراهب العالم : وما رأيك في القهوة ، أليست صوتاً
من كرازة هذه الطبيعة ؟

— لا شك في ذلك يا اوت على أني لم أر شجرة بن واحدة في
واديكم المقدس .

— وهذا فخرنا . لانتا نحفل بكل دخيل واجنبي !

فاحس طوبيا انه هو نفسه الدخيل والاجنبي فقال :

— كم اغنى ان نستنوا الشياطين !

— ولم الاستثناء ما دما نود كل غريب مكابر مدحوراً !

— ليس الغريب الذي يحمل بينكم غريباً ما دام يأتي فاذراً

محبذا ، وانما الغريب ذلك الذي يأتيكم ليزعزع ايمانكم ويبعثر
ثأملاتكم . ولنقرض اني ذلك الغريب الذي نقصد ، اما قال

السيد المسيح لأسمه السجود : يا ابوت من المشرق والمغرب
ويشكلون في حضن ابراهيم وابناء الملكوت يطرحون خارجاً ؟

انا غريب يا اوت ولكني جئت لأصير شعلة مقدسة تضيء نفسي
بالأيمان والتقوى ، انا غريب ولكن عن العالم لا عن هذا المنسك

الذي بني على اسم انطونيوس الكبير ، وسنبهر عن لك الايام ان
غربي بينكم وطن نفسي وهذا كل ما اطلب ..

مجنونه ١

تلت خبجة خارجاً فخرج الرئيس وتبعه الراهب وظل طويلاً
مسنداً رأسه بكفه على حافة النافذة . ولكن الضجة ازدادت
وسمع مثل صراخ وشجار فخرج ، فاذا به تجاه مجنون ممزق الثياب
مشم الوجه يقوده ثلاثة رجال أشداء . وهو يحاول التماس منهم
وصراخه يشوه سكبنة الدير . على ابن الراهب ان يجبروا وشدوا
وثقه ورموه في مغارة مظلمة رطبة تخرج منها رائحة العفن واما
الارض ..

كان المجنون شاباً في مستهل عقده الثاني ، ذا قوة جسدية فلما
وجدت في أولئك الذين اختلت في رؤوسهم حركة النظام الطبيعي .
وكان عائباً يهذي ويهذر وعيناه التائمتان تحاولان اختراق
جدران المغارة العفنة ، ولكنهما ترتدان عن الجدار جاحظتين عندما
يهوي الخذاء على رأسه ، فيصرخ صرخة كالتعواء قائلاً :
« انا ابن بشره انا ابن بشره »

وكان الضارب بالخذاء ، راهباً ضخماً الجثة منتفخ البطن ،
كثيف اللحية والشاربين ، غزير الحاجبين ، وله عينان صغيرتان
مستديرتان كعيني الصقر ، غارقتان في بحجريهما كنجنتين منعكستين
في قلت ماء عكر ..

وتوالت الضربات بخذاء الراهب العساكر الفيصل . وازداد

العواء من المجنون الضائع الاتجاه ، وطوبيا وافف امام المشهد
فاغترأ فاه مستغرباً ، سائلاً نفسه : أفي مقدس من مقدس عباد الله
انا ، ام في حظيرة لترويض الضواري ؟ .

وتفحص وجوه الرهبان الواقفين حوله ، فوجدهم ينسمون
ابتسامات تم على الرخاء التام كأنهم واقفون خاصة ليروا تعذيب
ابن البشر ..

وبعد عراك طويل بين المجنون والراهب ، خسرت قوى
الشاب وتدفق الدم من فمه وانفه . فانطرح مثقلاً بزنابيريه ، ولهاذه
الضباب ، يغرق في حنجرتة ، فيبدو صدره العريض خافقاً
مرتعشاً كأنه يقذف بما فيه من الحياة دون ارادة الموت .

وخرج الرئيس منهلاً . وتبعه الرهبان راضين عن هذا المشهد
الاليم . اما طوبيا فكان يحس نفسه شطراً من الشاب المعذب
المهات ..

وسأل راهب طوبيا : ما رأيك بهذا المجنون ؟

فسكت طوبيا على مضض . سكت ولسانه يلتهب في فمه
فيوهج خديه .. على ان الرئيس شاء ان يشفع بسكونه فقال :

ان اخانا طوبيا متأثر على ما اظن الرئيس كذلك با ولدي ؟

- هي الحقيقة با بـ ، فالقساوة التي رأيت لرتي الانسان غير

ما كنت اتوقع . بل ارتي الراهب دون ما في نفسي من الايمان
بكمال الراهب ..

- ولكنها طريقة ديونا المتبعة في شفاء المجانين .. الم ندر ان

في الشاب مساً وان الشيطان رابض في خلايا دماغه المضطرب ؟ .

- أجنون هذا الذي تضربونه بمثل هذه القساوة ؟
 .. أفي شك أنت ؟
 - ولم تعتبرونه مجنوناً ؟
 - لأنه فاقده النظام منعرف عن جادة العقل ..
 - وكيف صار هكذا ؟
 - استولى الشيطان على عقله ، فافقده أباه ..
 - ما شأن العقل في الإنسان ؟
 - أنجهل أن العقل كل شيء في وجودنا العملي ؟ أنجهل أنه
 الحاكم على الشعور ، الفايض على الحس ، المالك على الإرادة ؟
 أنجهل أننا بدون العقل لا ندري كيف نسير ولا أين نذهب ؟
 فهز طوبيا برأسه وتضاحك مستغفراً وقال : أيسمح لي أبني
 الرئيس بإبداء رأيي الخاص ؟
 ففهم الرئيس وأجاب : تكلم . تكلم ..
 - ما دمتم قدر كون أن العقل هو الذي يدير اتجاهنا . وما
 دمتم تدعون من يخلون من العقل مجانين . وما دام ذور المجانين
 يأتون بجائزتهم اليكم لستم الاعجوبة ويشفوا ، فلم لا تحسبون
 الاتجاه وانتم المعاملون الفاهمون المقصودون ؟ أليس بمثابة العقل
 لكل مجنون يأتي اليكم ؟ فمن منكم يرى عقله يدير جسده بهذا
 الشكل القاسي المذيب ؟ من منكم ينهال على نفسه بجذائه ويرمي
 بنفسه بين الاقدار والوحوال والاعماق العفنة ؟ من منكم يقيد يديه
 ورجليه بزناجير الحديد وي طرح جسده في الظلمة ؟ . فاذا كان عقل
 الفرد لا يقدر بالفرد فما بالسكم وانتم اصحاب العقول وحاملو

رسالات الانسانية والسلام ، نفضعون بهذا الشاب حامين اذ انكم
عن صراخه العاقل القائل : انا ابن بشر ! انا ابن بشر !
فاجاب الرئيس وقد بدت عليه دلائل الامتعاض : ولكنها
الاعجوبة يا ولدي الاعجوبة ! انها تستدعي ما رأيته قاسياً لان
الشیطان خزاه الله لا يطرد إلا بالخذاء .

فاستوى طويلاً رافعاً صوته عن ذي قبل وقال : انها البربرية
عينها . انه الظلم المتشع بالرهبة ومظاهر التقوى . فالاعجوبة في
الايمان والخشوع وليست في الخذاء . الاعجوبة مشيئة السماء
وليست ارادة الارض . ولو ان الاعاجيب وقف على مطالب
البشر لما كانت اعاجيب ، بل مكيفات واحالات وظاهرات
يديرها الانسان ساعة يريد ، ويسجلها مع ما اكتشف واختبر
واخترع في سجلات العلم .. فاذا ما طلبتم اعجوبة ، فاطلبوها
بايمان واستسلام ونجود . اطلبوها في اعماقكم ، في جوهركم ، في
نفوسكم ! اخرجوا هذا الشاب من قبره الحبي ، واوقفوه امام
رغبة الهيكلك واضرعوا لاجله ، امام الله ، والله هو الذي يعد له
الطريق الاخير .. احملوه الى حجرة نقية الهواء ، غنية بالشمس ،
لعله يستعيد القوى التي فقدتها في تبه وجعله ..

انه كالطفل با ابائي ، يضحك ساعة لا حاجة للضحك ويبكي حين
لا داعي للبكاء . فهل رأيتم أمماً تضرب طفلها لتكوت له عقلاً ؟
فضج الرهبان ناقلين على طويلاً . وصاح احدهم : كفك ثروة !
ان شأنك في هذا الدير لشأن الطائع للقوانين وان ايت ، فلست
اول طالب دخل متفلسفاً ، وخرج يتعثر بحبيته !

فنظر طوبيا الى من انذره بالطرد ، فوجده ذلك الذي سأل
عن آدم وما اذا كان الانسان الاول .

فابتسم له ابتسامة صافعة وقال : هذا انت ! . لقد تباحتنا منذ
غنية كما اعتقد ، أليس كذلك ؟ .

واراك فهمتي منذ اللحظة الاولى ، لاني لمست قبك علماً
وذكاءً وعمقاً في الاطلاع ! . فهلا تكلمت علي باسمك ؟ . فنزلت
كلمات طوبيا على الراهب نزول السوط اللامع . فنلجج بالجواب
وابتسم ابتسامة جافة وقال : القس يعقوب .

فانحنى طوبيا على يد القس يعقوب يقبلها باحترام ، ويعدده
امام رئيسه بالطاعة .

على ان الرئيس لم يرفه هذا المشهد ، وقد حاز طوبيا الغلبة على
القس يعقوب . اذ عزا هذه القبلة من طوبيا الى الدهاء ، فكان
طوبيا شاه ان يكلمهم الراهب بكتابة من صالصال ! . وإلا ما معنى
دخول طوبيا الدير على هذا الشكل ! . أيدخل أمراً مرشداً ناقداً
رادعاً ؟ . أمحق هذا الدخيل ان يستهل طاعته بشبه خطبة تم على
النرد والنشور ؟ .

وهكذا وقف طوبيا يستشرف اعماق رئيسه . ويرى غصبة
وراء هذه الاعماق تتحفز للانطلاق .. والا ما هذه العضوت
الكثيرة التي ارتسمت بين حاجبيه ؟ وما هذا الشرر المتطاير من يريق
عينيه ؟ وما هذه الخطوات الموجع يضعها على ارض الرعدة ذهاباً
وجيئة ؟ .

وساد الصمت . ولم يسمع طوبيا في ذلك السكون غير وقع

خضوات الرئيس العصية . وهدات الوادي الواسع الاشداق
والحجرة ..

فانتحي طوبيا ركناً منفرداً ، واطل على الوادي بلاء عينيه
باقداس الاجيال . ولو لم يقرع الجرس داعياً الرهبان للصلاة
ظهيراً ، اطل طوبيا غارقاً في تأملاته . مسجوراً بمشاهد ككنز
الحياة ، السكارزة ابدأ بمجد الروح ا .

في المساء كان لطوبيا حجرة مظلة على الوادي . اما ما تحتوي
عليه هذه الحجرة ، فتواضع حتى الزهد . فراش محشو بالقش .
وسراج خزفي نعوم في زينه ذبالة من قطن وابريق الماء . وكتاب
يجمع بين دفتيه قانون الرهبنة ولحمة عن بناء الدير في عهد البطريرك
الدويهي الشهير . ونبذة عن حياة القديس انطونيوس في صعيد
مصر ...

ولما ادار طوبيا عينيه في ارجاء الحجرة ، نكمت نفسه على
ذاتها واحس قشعريرة تتخطى اوصاله لتحتل شفاف قلبه . فانطرح
على فراشه يبكي ..

لم يستبق طوبيا على قرعات الجرس التي كانت تفرق سكبنة
الفجر شائبا في كل آخر هزيع . ولم يحس أحداً يقظه من وفاده
المحمور بالأجهاد . ولما نهض من فراشه شعر بغربة قاسية ، وبوحشة
تعرض خطاه عندما انجحه نحو الكنيسة ليحضر الذبيحة الالهية .

أينكون غريباً عن هذا الجو المنزوي في هذه المهابي السحيقة
القناعة ؟ أنكون الدعوة التي شعر بها ندعوه للكهنوت ، ومما
وضعه في نفسه التربة الاكثريكية ؟

ودر كع في الكنيسة ليصلي . ولكنه لم يستطع جمع شتات
افكاره . ولم يتمكن من فتح نوافذ نفسه . لانه كان في شبه ثورة
بينه وبين نفسه . بل كان في شبه يقظة غريبة عن هذه النفس . انه
لم يرت نفسه جيدراً بالانضمام الى الرهبان ، القانعين ، الآملين ،
الجادين القائلين اجسادهم في سبيل نفوسهم ! ان طريقه غير طريقهم !
وانه يسمع اصواتاً غير هذه الاصوات التي تعبد لها اصدااء المعبد
غامضة اجثة ! ان الفن يناديه فلم يسد اذنيه عن هذا النداء
المشرق بالاجهاد . المتألق بالخلود ؟

ان النحازين في لبنان نادرو الوجود . وان خلاص النفس ليس
وفقاً على سجن هذه النفس . وان بإمكان الانسان المحافظة على

كبرانه وعفاه حتى بين المحرمات والمعاصي !
وانتصب طوبيا واقفاً دون ان يكون له ارادة في وقوفه .
ان الانجيل المقدس يتلى على المؤمنين . واصفى طوبيا الى عظات
سفير السماء : « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه !
وماذا يعطي الانسان جواباً عن نفسه . . »

لم يدر طوبيا اية سفاه لفظت كلمات الواعظ الاكبر . ولم يدر
اية قوة حوات انجازه الاخير ، وحطمت مرايمه الجائعة الى الشهرة
من طريق الفن . بل لم يدر اية روح استقرت في خياله وحقيقته .
فاذا به يحترق ، واذا به يينهل ، واذا به يتاجي السماء هامساً : اينها
الآمال التي تبني نفوسنا للخلود . انك جميلة ، وجمالك في شوقنا اليك !
انك اسمى من الخيال لانك حقيقة — ، وارقى من الوجود
لانك بريئة من العدم !

انت الازمنة التي يتلغى الانسان باحساسها ، انا هي شعاع لا
يجبو الا في مراتبك . وان قوس قزح النموذج ضئيل للاديم الذي
يتخطر عليه الخالدون فيك .

اننا لا نفهمك اينها السماء ، ولكن بجاعتنا اليك برهان على
اننا لا نحتاج الى من يفسرك لنا .

أست المرتفع الاثيري الذي هبط منه هذا الكلام الذي سمعت ؟
مباركة انت اينها السماء ، ومباركة الارض ايضاً . لان
الارض اكثر احتياجاً الى البركة التي تتدفق منك !

انني احبك في نفسي اينها السماء . فهل توين هذه النفس حرة

بان نكون مصباحاً يتألق في وجابك الذي لم ندن منه حدود ،
ولم ينعكس عليه ظل مقياس ؟ .

انك لسامعة ايها السماء . لانك السكينة التي يتجوهر فيها
الضجيج ، والصمت الذي ينبور فيه الانشاد . بل انك المنفعة التي
تنشر طيبتها على الذين يصغون الى الحق المباح في عظات مليكك
الفقير !...

انتهت الذبيحة ، وطوبيا ما برح يتاجي السماء بكلمات شعوية
تذوب رقة وانباتاً . ولما خرج من الكنيسة ، وجد الرهبان يرقون
بنظرات مستهينة كلهم يسألونه : الى اين تريد ان تتجه ؟؟

ان المتدرجين لا يحق لهم ان يظلوا في الدير ثلاثا بسنوي عليهم
الكل وتجنأهم جيوش الفكر الدنسة ، فيضربوا دعوتهم العليا
ويطردوا مرضاء الروح .

واقبل قيم الدير يوزع الاخوة كلاً الى حقل . وطوبيا ينتظر
اشارة من هذا القسيم الامر ليعلم ما اذا كان باستطاعته ان يحتمل
العمل الذي يسند اليه . على ان القيم تجهل وجود طوبيا ولم يقول
اليه حتى نظرة غابرة . فعز عليه ان يحسبه القيم عضواً أشل لا عمل له
في حياته الجديدة !.

بل عز عليه ان يظل وحده في البهو وقد تفرق الرهبان
والاخوة حتى الرئيس نفسه !.

وتنهط طوبيا كاسف للنفس . ونكم همساً : كثيراً ما يحن
المرء الى ما يظن نفسه بكرهه . .

ولو سئل طوبيا منذ هنيهة أي عمل تقوم به امرة ياخوانك
لاجاب : لا استطيع العمل الشاق لان جسدي لم يعود !. اما
وانه لم يسمع سؤالا من احد . فقد رأى نفسه غريباً . والغربة
وحدها تحز الآلام في النفس . وتغجر الدموع في العيون !.

رفائيل الراهب

الايام تعبر مسافات الزمن ، والزمن يلقي طوبيا في عبور
الايام كيف يسلس انقياداً للرئيس . وكيف يتزوج باخوانه وآبائه
امتزاجاً جعله محبوباً من الجميع . .

وما احبه هؤلاء الاباء والاخوة ، حتى تكشفتم لهم مواهبه
الغنية ، وصفاته التقوية ، وظهر بينهم ذلك العالم المختصر ديناً ودنيا .
ولكنه ليس طوبيا هذا الذي اجتمعت فيه محبة الرهبان بنى
الاب ورفائيل . فطوبيا صار راهباً . بل مثلاً في الدير حتى قناه
الجميع رئيساً بدلاً من الرئيس .

ومضى في تجارته الروحية ، راهباً بكل ما تحتوي عليه هذه
اللفظة من خشوع ، وزهد ، وفقر ، وطاعة . اما العفة فهذه حفة
لازمته مد عرف جسده بحاجة الجسد ، وفهمت نفسه تماويل الجمال .
ولم تنراه له من وقت الى آخر ، نجلاء باغرائها وسجى انوثتها .
وسرام بحفقتها وقوة نظرائها ، لكان فديساً لا أثر للتراب في جسده .
ومع ذلك فقد كان ظافراً لدى كل ما ينتابه من التجارب والافكار .
على ان ظفروه هذا كان يذيب قواه ويجهد نفسه جهاداً متواصلاً
حتى بدا هزيباً غائر العينين . . .

•
اذا قيل ان فرحياً ، دير العجائب والمعجزات ، فالقائلون

على حق فيما يروون ويتناقلون . وهذا الاب رفائيل ، يتصفح
السجل مؤمناً مصداقاً ، مدعناً للارادة العليا التي تدبر الغرائب
وتكيف الاسرار . ولكنه ما يرح يستهجن الطريقة القاسية التي
يعامل بها المجانين في كنف الحلم والوداعة . وبعد جدال متواصل
بينه وبين الرئيس ، نزل الرئيس على ارادة الاب رفائيل وفوض
اليه ان يتعهد المجانين بما يراه موافقاً . وحظر على الرهبان جميعاً
ان يبدوا اية اشارة ضد ارادة الاب رفائيل القديس ..

ومضى في طريقته الحكيمة السائرة على نور العلم والامان فبدت
النتائج حسنة باهرة . واصبحت تعزى العجائب اليه لا الى
صاحب المقام ..

وتناقل الناس اسم الراهب الجديد . ولتاس منبهات رحبة
عندما يريدون نشر الاخبار .. واحس الاب رفائيل ثقل النبعة
الملقاة على تقواه ، فهل كان تقياً حقاً ؟ أليكون في نظر نفسه شأنه
في نظر الناس المبشرين بقداسته ؟

واختلى الراهب بحاسب نفسه كأنه كاهن اعترافها . اختلى
يعنف هذه النفس ، ويبكتها عما مضى وعما سيأتي . اختلى يعرض
ماضيه خطوة خطوة . مسترجعاً طويبا الفنان بما يعترض فيه
من ذكريات ..

وغاص في تأملاته . وكشف الغطاء عن نفسه . واشعل حبات
قلبه انسجافاً ، فتألفت اعماقه بنور الندامة الحقيقية واذا به يرى
الجراح الناعرة في نفسه . ألبست الخطيئة سوطاً يلسع النفس
فيدمبها ويفجر منها دم الرجس ؟ ألبست الخطيئة كالحمرة كلها

ذاقها المدمن طلب المزيد ؟ ليست الخطيئة كالجذوة الملتفة برمادها
تشعل وتشعل كلما هبت عليها نسمة عابرة أو نفخة شقاء مقرورة ؟
ليست الخطيئة جرتومة تتوارثها الاجيال ، لتعلنها تاريخاً او سفرأ .
او دستوراً ؟؟ اذن ما هذه القداسة التي يتوهم الناس انها تغير جسد
طوبيا ونفسه ، فيتصل بالله وتحدث العجائب على يديه ؟ اقديس من
يرى التجارب اشخاصاً احبهم وذكريات غناها لو تعود ؟ اقديس
من يستعين بالعمل غارة والجدال طوراً لينجو من افكاره المضطربة ؟
اقديس من يرى العالم طاقة من الزهر في يد امرأة جميلة ؟

لا ! لا ! انه ليس قديساً . انه خاطيء وويل للخاطيء . !
وانتفض من تأملاته المزعجة . ورس على وجهه اشارة الصليب .
وخرج من حجرته ثائلاً خارج الدبر . .

كان الوقت ليلاً ، وبدد نوار يتخطر بين السحب الربيعية
الشفافة ، فتمر على صفحته الناصعة كالبرقع المفاف . وتجلي كالغبار
عن المرأة ، وبين مرورها وجلالها تبدو حركة لطيفة على اعشاب
البر وازهاره ، فنضحك ونكتش . ونشرق ونغرب ، وعينا
الراهب متأرجحتان بين الافق والارض ، يرقب حركة الليل
الصامتة ، وفي نفسه ضجة ، وفي قلبه استغاثة !

انه ليحس رهبة مخيفة في ذلك الليل المقهر ! انه يحس ضعفاً في
رفع خطاه . واشباحاً في اخلال الاشجار والصخور ، بل يحس
ان قدميه تطلن اجساداً بشرية حية ، ويشعر ان مادة لوجة تلتصق
بجفنه . أتكون دماً ؟

والحنى يحدق في التراب . ويلامس باصبعه المرتجفة اعناق

الازهار ، والذعر بارز في عينيه . فماذا دهاء ؟

وتخاذلت قدماء . وحبا كالطفل يطلب ملاذاً يلقي بنفسه في
كنفه . فلم يجد سوى شجرة كثيفة الظل فانطرح على جذعها لاهثاً
واغصانها المتشابكة تحميه من وجه البدر الساخر بإبناء الارض . .
وحاول ان ينام ليحلم . وفتى ان يطوي الليل قبل مروره
ليطل الصباح ويستأنس بالآغاريد والالوان ، ولكنه لم يستطع .
أينام من تأججت نار الشهوة في جسده ؟

أينام من استيقظت فيه الحواس وتفتحت فيه مسام الجسد ؟
أينام من يسمع في الغيضة صخب العاصفة ؟ أينام من يسمع
في ديب السمل ، وقع سنانك الحيل ؟

واصفى الراحب المضطرب . ان اصواتاً تتلجلج في الجبل ،
وتتجاوب في الوادي فيحملها سكون الليل صدىً مبهماً . ما
هذه الاصوات ؟ ما هذه الضجة ؟ انها تتجلى شيئاً فشيئاً . لقد
اقتربت . انها اصوات جلاليل ووقع سنانك على الحصى . أمن
قافلة نهبط الدبر في مثل هذا الوقت ؟ وشعر الراحب بشيء من
هدوء الاعصاب وارتاح للخاطرة التي مرت سؤلاً في سكونه .
ليت الدبر زائر ، بل ليت له مجنوناً يأتيه في مثل هذه الطفرة
الجائعة فيستعيد آثرانه وروح التقى والايان . واقتربت الجليجلة .
انها لقافلة ذات شأن . وان الوادي يعلن ضجتها صريحة .

تشدد الراحب وتشجع . وانتصب واقفاً كأن روحاً جديدة
دبت في قوامه . وخرج من الظل . وخطا نحو اشعة القمر المنسكية
كاطمئنان المؤمن . فوجد نفسه شديداً لا اثر للاضعف في مفاصله . .

هذا كبير القوم يقبل . انه يعني جواداً شهب فاستقبله
الراهب برحابة بالغة وحلاقة لسان لطيفة : اهلاً بالامير !
توجل الفارس ، وصافح الراهب محاولاً تقييل يده . فسحب
الراهب يده بحركة احترام . وقبل كتف الفارس بدالة ابرية .
وتكلم الفارس بنبرة لا تخلو من العظمة والروعة : قد نكون
مزعجين يا ايت . فنعكر عليكم هدوء ليلكم . ولكننا لا نستطيع
ان ننام على الطريق ومعنا سيدة محترمة جئت منذ عشر سنوات .
ثم شفيت ثم جئت . ولم نجد لها دواءً حاسماً إلا في هذا الدير
وذلك بقوة الايمان الصحيح !

فقال الراهب : الدير دير المؤمنين يا سيدي وما نحن الا طوع
اشارة كل زائر كريم مثلكم فاهلاً وسهلاً .

وافتربت القافلة . خمسة جياذ وثلاثة بغال . وثبط الراهب
ذراع الفارس وقاده برفق في ذلك الطريق العسير . وسأله من
ابن انتم آتون ؟

- من بيروت يا ايت . وقد خرجنا منذ اربعة ايام . نسير
ليلاً ونزاح نهاراً ومجنونتنا المسكينة تارة تهذي وتضج ، وطوراً
تسلس وتسقم .

- وابن هذه المسكينة ؟

- هذه هي يا ايت . قال هذا واخذ بعنان جوادها فوقفه ،
وقال : فقي يا نجلاء ! انك الآن في الوادي حيث تقابلين القديس
انطونيوس عليه السلام .

فاجفل الراهب وخاطب نفسه : نجلاء ؟ منذ عشر سنوات ؟

انكون اياها ؟

ولكن صوت المجنونة لم يترك للراهب فرصة الاستئصال في الاستفهام بيده وبين نفسه . واذا بها تصيح : انطونيوس ! ومن هذا انطونيوس !؟ افاضت بعري النساء ، ام اكبريكي لا يابه بالجمال ، ولا يسمع نداء الحب ؟

وفهمت المرأة ! انها لتهمة تلقي الدعوى ! لقد اعادها حدى الوادي رابعة رابعة . فاحس الراهب رعشة تشت باردة في جسده ، فتشهد تهيدة سمعها الفارس ، فحسبها نأسفاً على عقل نجلاء . فجاء يشكره قائلاً : هون عليك يا ابت . فتجن لا تشك في انكم معشر الرهبان تتألمون اكثر من اهل المجانين فشكراً لكم انكم رسل المسيح المضجون بدنياكم في سبيل دينكم ..

ومشت القافلة . والراهب يتلفت وادآ لو يرى وجه نجلاء . ولكنه لم يستطع اذ كانت ملثمة ولم يبد من وجهها الا عيناها .. دخل الجميع المعبد خاشعين حتى نجلاء . وسجدوا في ذلك الكهف الذي حواه الايمان مقدساً من مقدس الزهد . وانيرت الشموع على المذبح الفارق في ظلة الليل وخشوع الايمان . وانجبت العيون الى صورة اب الرهبان كأنها شموع ايضاً . اما نجلاء ، فقد لبثت وافقة ويدها ملتفتان على صدرها ، وافترارة فلفة تبدو وتختفي حول ذلك الغم البرعومي الخاف . والاب رفائيل شاخص اليها كأنه حارس على خلجات صدرها وخطرات روحها . بل كأنه ظل جنونها القادي الساخر الكثير الاستفهام .

وعلا صوت الرئيس بدعاء تقايمي ، ضارعا الى الله ان يشفي
أمته نجلاء . وان يبعد عنها الروح الشريرة القلقة . وان يرد اليها
قواها العقلية والجسدية وبعد ابتهاج خمس دقائق على هذا النحو
هتف الجميع : آمين .

وفهمت نجلاء . وصرخت باعلى صوتها : آمين آمين ! ما معنى
هذه الآمين ؟ أتصلون وانما غاربية امامكم ؟ ألا تخطلون ؟ ألم تروا رسم
باشا ينهش جمال جسدي باهداب عينيه ؟ اخرجوا من هنا ! ان
جوزيف آت لينحت مثالا عن جسدي ، انه حواء قبل الخطيئة .
فمن منكم يستطيع ان يكون آدمي ولا يشتهي التفاحة بين
اصابعي ؟ .

وداحت نفقه كالزوبعة بين الاغصان المتشابكة . ثم امتدت
يداهما المتشجنان الى ثوبها ثرقه . فقبض عليها الاب وقال بل بكل
قواه وهزها بارتحاف قائلا .

نجلاء أفيتي ! انك امام مذبح الرب وانت امام النحات ! .
تهبت المجنونة واستسلمت . ثم ركعت بين يدي الراهب
ضامة يده الى صدرها . ناظرة اليه بعينين غارقين بالدمع . ثم
انقضت قبلك العينين فانهمرت دموعها على صدرها وعلى يد الراهب
فاحس حرارة دموعها برودة ونوسلا . انها حرارة دموع لا مطامع
فيها ، حرارة قلب خلي من الاميال . بل حرارة نفس اخافت المتجه
الصحيح . وضاعت عن انها اخافت . . وعادت تفتح عينها .
عادت تحدق الى الراهب بغير دموع . عادت تصوب اليه نظرات
طفل وادع لاذ بن بحميه . ولما انقضت عينها ثانية ، شعر الراهب

فلما
بج
ال
ما
اء
نح
ال
س
علي
ال
و
ن
ن
بان شفاه وروحها تقبله . وهل كانت شفاه روح المرافة إلا اهداب
عينها ؟ .

والحنى الراحب ينهض المجنونة الضائعة . الحنى متوسلاً بعينيه
وارتجاف شفثيه . الحنى حارواً بصمته . ولما وقفت ، بدا الراحب
انه سلخها سلخاً من مخالب الشيطان .

واجتمع الرهبان يحيطونها باهتمامهم . فدعوا احدهم جبينها
بالزيت المقدس ، وسقاها ثانياً ماء من جرت التبريك ، وحرق
ثالث امامها بخوراً عن مذبح الله ، ورسم رابع اسنارة الصليب
على رأسها . اما الاب رفائيل ، فقد اخذ يدها وقادها برفق الى
الحجرة التي اعدت لها لترتاح بقية الليل .

ومشت نجلاء مستسلمة . مشت كأنها عروسة خارجة من المعبد
بعد صلاة الزفاف . بل مشت كأنها ودعت جنونها الى الابد .

وادخلت الحجرة افادارت عينها كأنها تتفحص مسافيتها من
أثاث . وأي أثاث في مساكن تاذري الفقر ؟ . هذا فراش على
الارض . وهذا ابريق في إحدى النوافذ ، وهذا سراج من الخرف
على الرف ، وهذا صليب معلق على الجدار يسجل تأكله الصدأ
وتعاقبت عليه ملامس الأيدي منذ أكثر من مئتي عام ..

انها غرفة نسك وتقشف . بل خلوة البهائم تنفتح فيها نوافذ
النفس القانعة ، فتشرف على الوحدة الكاثرة في النفس .

وشاء الراحب ان ينهي هذه الحيرة اليسارزة من عيني نجلاء
فقال : نامي يا ابنتي وغداً ترين ان اب الرهبان يزورك ..

فقالت : يزورني ؟ ولماذا ؟ ومعنى عرفني ؟ واي دالة له علي ؟

قل له اني اكبره الرجال . ولا سيما الذين يدعون الفن نبشروا
بجمال الطبيعة الحقي ..

اخرجوا جميعاً من هنا . اني تعب و اود ان ارتاح .
فالت هذا و راحت تفحص مزلاج الباب الداخلي و تطلب
المفتاح فائلة : اعطوني مفتاح غرفتي اريد ان اقفل الباب ، و اذا
ما جاء جوزيف يسأل عني فقولوا له انها لا تقابل رجلاً . أسمعتم ؟
اعطني المفتاح .

فقال الراهب : لا حاجة الى المفتاح يا ابنتي انت المرأة الفاضلة
تحتفظ بفضيلتها ولو قامت على مفترق الطرق ..

فقهنت المجنونة ساخرة و قالت : المرأة ؟ الفضيلة ؟ الاحتفاظ !
انك مجنون يا راهبي اللطيف . ولو كنت فناناً لسمعت صوتك
سخرية نقواك . اذهبوا وناموا ! و دعوني اتم . وفي الغد اراكم
على وضع النهار . و اريكم ان في عيونكم جوعاً لا ينلاني بغير
المرأة !..

فالت هذا وصاحت بهم : اخرجوا . اخرجوا ! و دفعتهم دفعا .
و أغلقت الباب و اطفأت السراج .. على ان الراهب لم يمت . بل
ظل ساعراً على باب حجرتها ثلاثه رب او ثلث جسد . قبل
قامت فجلاء ؟ و جلس الراهب يفكر و ذهب الياقون ليناموا .

الثقاة

ما أزعج الطريق التي تؤدي إلى مكمن الذكريات . وما
أسرع الفكر يعرض هذه المشاهد ، في ومضة واصفائة . فليس
عجيباً أن تمر حوادث عقد كاف في خاطرة خاطفة . وليس غريباً
أن يسلس المرء ليكون طريقاً لمرور هذه المواقب . وهذا الأب
رفائيل ، يسند عيكله المديد إلى إحدى الزوايا ، ويغمض باصرته
ليرى ماضيه في بصيرته . أنه ماض لا يمكن أن يستقر والتبتل في
مستوى واحد . أنه جهاد نفس تريد أن ترغب عن العالم بشاهد
العالم . جهاد قلب أحب وجهل أنه أحب ، بل جهاد روح مسا
برحت مبعثرة الدوائر ، ضائعة الانجاء ، تائهة في مهمة الجسد !
ورسم الراهب إشارة الصليب على وجهه . وسأل يسوع اسعافاً ،
سأله مناعة ، بل سأله نسياناً ليستطيع أن يحتفظ بنفسه نقيّة متأثرة
بنور السماء ..

وانجفل الراهب خائفاً مذعوراً . أن صوت تحطم خسرج من
غرفة نجلاء ، وأمتد صدهاء في فجوات الوادي فعاد بحيفاً يقف له
الشعر . فماذا جرى ؟ واندفع نحو الباب بهوى لا يعرف اعتدال ،
ودفع الباب بقوة هوجاء فانفتح كأنه عاصفة اقتلعت مصراعه .
وهوى جسد المجنونة مصطدماً بالباب . فصاح الراهب : الويل لي
لقد قتلتها !

وانطرح على الجسد يرفعه ، انطرح ينثبث من حياة ضحيته .
ولكنه لم يستطع ان يثبث شيئاً فالظلام حالك في الحجرة . والخوف
مستول على حوله وقوته . . وراح يرب يده على الجسد الطريح
واذا بسائل ساخن يلتصق باصبعه . فهاهنا قلبه وبعث بحفقاته سريعة
كحفقات النزع . ونهض يبحث عن ثقاب ، ولما وجد ، اثار السراج
وعاد الى المجنونة فوجدتها فاقدة الوعي والدم يرغف من انفها .
ويطبخ وجهها وصدرها . فماذا عساه يفعل ؟ ايسقيته ؟ ايدعو
الرهبان ليشهدوا هول الجريمة . اينادي الفارس ورجله ليقول لهم
لقد قتل المرأة التي سلمتموها الي ؟ ووقف يحمدق الى اصابعه
المدماة . ان في هذه القطرات اجزاء من قلبه . وكاد يبكي على
ضعفه . لم يطل اضطرابه . بل عاد الى صواب الرجل العاقل الحكيم .
واذا طرفه يبحث عن ابريق الماء . ولما رآه محطماً . خرج
مرولة وانحدر الى الاقباء حيث مائدة الاكل . وجاء بالماء والتمر .
وبعض المناديل البيضاء . وركع بغسل الدماء عن وجه مجنونه ،
وبحاول ايقاف الرعاف . ولما وقف تدفق الدم اجلس المرأة
بهدوء واحتضنها بعطف وراح يجرعها الحمر بحفنة يده ويفرك صدغها
ويصفع خديها . وبعد محاولة طويلة تنفست نجلاء وفنحت عينيها
بدهول وغفمت : ابن انا ؟ فاجابها والفرح يعقد لسانه . انت هنا
باسيدي في كنف العجائب !

فرفعت رأسها عن ذي قبل وقالت : العجائب ؟

- نعم . نعم انت في دير فزحيا حيث تنعimen بالشفاء !

- الشفاء ؟ !

- الشفاء والبركة والعافية والعمر الطويل .
- ومن انت ؟ واي شأن لك في وحدتي ؟ وكيف جئت بي
الى هنا ؟ وما هذه الدماء التي نصيغ ثوبي وبديك ..
- لقد وجدتك على قارعة الطرق . مرماة الى الحضيض .
فحملتك . وغسلت جراحك وانعشتك بالتمر . ودعوت الله لتحيي .
- انت ؟!

- نعم انا . افي الامر غرابة ؟
- الست راهباً ؟
- لي الشرف ان اقول نعم .
- الحق الراهب ان يحمل امرأة في ظلام الليل ليدخلها غرفته ،
ويحتضنها في وحدته ؟
- الواجب يبرء ، والانسانية تعفو .
- اتعرفني ؟
- اعرفك لاني اعرف الانسانية جمعاء . الست جزءاً من
الانسانية ؟

- انتك تتكلم كرجل شريف !
- اليس الشرف ملك الجميع .
- وهل يحافظ الجميع على الشرف ؟
- هي افي من الذين يحافظون !
- افي اعرف صوتاً كصوتك !
- الاصوات البرية كلها شبيهة في اذان الابرياء .
- وارا في اعرف عينيك !

- أليست العيون كلها عيناً واحداً إذا تجردت من الشهوات ؟
- أيجرد أنت ؟
- فوق ما يستطيع الإنسان .
- من أنت وما تدعى .
- أنا راهب من رهبان هذا الدير . وادعى رفاًئيل .
- رفاًئيل ؟
- أتعرفين أحداً بهذا الاسم ؟
- لا ولكنني أكره الاسم لأنه اسم فنانة نارنجي عظيم وأنا أكره الفنانين .
- ولم تذكره بين الفنانين وهم وحدهم يحتفظون بتاريخ العالم الحقيقي .
- لأنهم يعلنون شهرتهم بذنوب العفاف . ويكتبون أسماءهم بدم القلوب ..
- والرهبان ؟ أذكره بين الرهبان عباد الله !
- أليست العبادة فناً تطلبه مواهب النفس ؟
- لا يا سيدتي . العبادة عطش في الروح لا يروى بغدير عطش الجسد
- ما الروح وما الجسد ؟
- الجسد سراج . والروح شعلته المتألفة .
- أينار السراج بدون زيت .
- أن الله هو الذي يسكب في أجيادنا الزيت ليمجد بالأنوار !
- وما الزيت الذي يسكبه الله في أجيادنا .

- عندما يدرك الانسان امر الله يصبح الهاً مثله .
- ألا تعتقد ان في هبولاك عناصر من الالهة ؟ .
- ان في جسدي ضعفاً وحقارة ، في جسدي وهماً وعموداً .
- بل في جسدي ذكريات لبتني انساها !
- عندما يحاول الانسان نسيان ماضيه . يكون سائراً في مواكب ذكرياته التي احبها . اكانت ذكرياتك عزيزة لديك .
- لا ادري ما اقول ! اأشعرين بنشاط يا سيدتي ؟ انهي !
- قلبت خائفاً بعد اليوم على اضطراب الشعور فيك .
- اكان شعوري مضطرباً ؟ اكانت في حالة جنون !
- لقد كنت كذلك !
- اشكرك يا ابنتي . لقد سجلت لك في نفسي منة لن انساها
- واصبح في نفسي منتان : لك منة . ولصديق قديم مثلها .
- أتريد ان احدثك شيئاً عن صديقي القديم ؟ . لا تحسن لبس في الحديث ما يشير الجسد ضد النفس . ان هنالك احتلاصاً وعفافاً . .
- فتنهذ الراهب طويلاً وسحب يده يده عن رأس نجلاء ووقف
- مظلاً على الوادي يخفف العرق البارد عن وجهه ، ثم قال : تكلمي .
- قالت : كان صديقي شاباً بالغ الجمال . وكان اسمه طويبا الحلبي
- وكان ناضجاً حتى الذويان . قتيماً حتى الانحطاف . عفيفاً كالزهرة
- النابتة على الشفير . بل كان خجولاً كالطفل الدارج الذي لم يذق
- حنان الام ! . .
- فتملأ الراهب ، وقال : واي شأن لي يا سيدتي بأسرارك
- الحاجة ؟ .

- اسراري ؟ أليس معشر الرهبان والكهنة معدن لاقتبال
الاسرار ؟ فما ضرك لو سمعت حكايتي كاعتراف !
وقبل ان يجيب الراهب سلباً او ايجاباً . قرع جرس الدير
داعياً الرهبان الى صلاة الفجر . فاجفل الارب وفانبل وسمع في
صوت الجرس المتأرجح في قبته تبكيتاً وتعنيفاً .
وكان بجلاء استعذبت عنده الموسيقى تناد في ذلك الهدوء .
فتمزق سكون الطبيعة الهاجمة . وتضطرم بالفجوات والمهاوي
فيعيدها الوادي لوسع انتشاراً .
فاضغت الى صوت النحاس المحرك في النفس هواجس الايمان
وتقدمت تقف قرب الراهب ، الباعث نظره في بقايا الليل المنتشرة
في غموض الابعاد ، وسأله : أنحن وحدنا هنا ؟
- لا يا ابنتي اننا كثيرون . وسترين الرهبان بعد هزيمة ،
عندما تذهبن الى الكنيسة . ألا تحبين الصلاة ؟
فجتمعت : الصلاة !؟ نعم كنت احلي . ولكن مني ؟ وابن
لا ادري . وسمع ذلك ، فالصلاة وشاح جميل يوشح ذاتنا الحقة
لتبدو جميلة امام الله .
وسر الراهب بالتشبيه . وهمس في نفسه : ساعظ يوماً عن
الصلاة لاقول ما قالت نجيلاء !.

•
كانت الفجر يفتو شيئاً فشيئاً . ونور السراج يتضاءل مع
الافتتارة الحقة النور . وكان صياح الديوك يملأ الفراغ الذي تركه
الجرس بعد سكوته . وسرت نسمة منعشة تقحم النافذة المظلة

على الوادي ، وتغلغل في شعر نجلاء المشعث ، ولحبة الراهب
الكثيفة . فتتهزّز الشعور والشواعر .

ونظر الراهب الى المجذونة نظرة جريئة دون ان يرف له جفن .
نظرة فاحصة مستهينة لا اثر لذكرات فيها .

فاذا بنجلاء انماهي تعود . ولولا الهزال المستغيث في اساريرها
لظن نفسه في المحترف .

وسأل الراهب نفسه : أفصكون ستيت لا ابي أرى نظراتها
مستسلمة لعقلها . وارى عقلها مستقراً في قبضة ارادتها . وارى
ارادتها تشي مع شعورها الجديد البالغ من الهدوء والرزانة ما
يذكرني بأول نظرة . .

والتفت عيناها عينية . فغض حياء . وسألها : من تكونين
باسيدي . ومن اي بلد انت ؟ .

فابسمت بوقار وقالت . ستعرف من انا عندما تصبح في
الكنيسة . اما الآن فليس اجد من ان نطل جاهلين .

ارتعش الراهب في انحرافه . أأكون عرفته ؟ على انه شاء ان
ينهي الحوار فخرج من الغرفة وتبعته نجلاء . .

وقابلها خارجاً الرجال الذين اتوا معها . فسألت احدهم : من
تكون ؟ واقتربوا واحداً واحداً فرحبت بهم وبدأت تناديهم كلاً
باسمه . ولما اقترب الاخير ، اندفعت الى عنقه تقبّله بذراعيها
وتقبّله ، قائلة عفيف اخي ! متى جئت ؟ وكيف امي . وكيف
جوزيف فاغرو رقت عينا اخيها بدموع الفرح . وقال : انها بخير
والخي . وانت كيف حالك ؟ قالت : انني احسن نشوة جديدة .

ولكنني اشعر بالمحطاط في قواي وارنماش في قلبي ..
- تنوي يا اخي وكوفي شديدة الايمان فائقديس انطونيوس
ابو العجائب ..

- ولكنني بحاجة الى طبيب . ان الدماء التي فاخست من انفي
اضعتني . ولولا حضرة الاب لكنت مت ..
- لماذا يا اخي لماذا ؟

- لقد حملني هذا القديس عن قارعة الطرق مهشمة مدممة .
وجاء بي الى غرفته فغسل كلومي وانعشني بالخر وباركني ، وحدثنني
كثيراً عن الله .

- وكيف وصلت الى قارعة الطرق ؟
- لا ادري يا اخي . اني ما برحت محاطة بالاسرار كأنني في
حلم طويل مزعج . او كأنني في لحظة جديدة مفرحة ..

ألم تسمعوا قرع الاجراس ؟ ألم تسمعوا دوي القراءات في
الوادي ؟ انما انشودة الصباح تنطلق من هذا الدير قشبه حتى
السكون . هنيئاً هؤلاء التساك ! انهم يحومرون نفوسهم بالوحدة
وينفون ضمايرهم بالنشف . ويبعدون بالامان .. هياؤنا الى
الكنيسة . نكون بعيدة يا ترى ؟

قالت هذا ومشت امامهم دون ان تسمع جواباً . ولكنها
اخافت المتجه ، فقادها الاب رفائيل وادار انجاءها قائلاً : من هنا
يا ابنتي ، من هنا ! ..

ليس غريباً ان يحس الراهب بوخر ضميره . ان كلمة ابنتي
ضجت في اذن نفسه فارجفت منه الجوارح والخلوع .. بل لونه

نفسه حقيراً ضعيفاً ! من هنا يا ابنتي من هنا . أنكون ابنته وفي
قلبه غير شعور الأب ؟ أنكون ابنته وإذا ما لامست يده يدها
تراجعت الذكريات اليه واستقرت في خياله كأنها الساعة ؟ من
تراه يعشق ابنته ؟ ولكن هل شعر الأب بعشق ؟! اللهم
احم جده !..

ودخلوا الكنيسة . وصعد الراهب الى حيث الرئيس فهمس
اذنه قائلاً : شفت المرأة من جنونها .. فسر الرئيس ونظر اليها
بشيء من الاعجاب . ثم أعلن الصلاة .

وليمة الموت

لقد سر الرهبان ان يحتفلوا بحدوث الاعجوبة . بل سرهم ان يكرموا ضيوفاً مؤمنين اندفعوا بقوة الايمان مسير اربعة ايام ، ليطرحوا هذه الحساء المجنونة في دير المعجزات .

وكان الاحتفال بالغاً حدود القبطة ، والافراز بحدوث الاعجوبة . فذبحوا كبشاً مسماً وفتحوا دناً من الخمر معتقاً . وضعوا الماء كل الشهية الدسمة ، وتحلف جميع القس والاخوة عن عمل الحفل للاحتفال بهذه المنحة السماوية . . وانطلقت الاجراس تتأرجع في قبابها ، كأنها تدعو الناس لينظروا نجلاء الجميلة تفضت عنها جنونها . .

وكان الاب رفائيل سعيداً متلهلاً . كان يطمئ الارض باقدام الخف من ارتسام الظل . اليس الاعاجيب تعزى الى فضيلته ؟ ونسي انه فكر كثيراً واشتهى كثيراً . نسي انه كان منذ ساعات مائتاً امام الجمال . ضعيفاً لدى الشهوة . رازحاً بنقل المعصية . انه نسي كل ذلك . وفرحه بنجلاء انساء كل شيء .

ومدت الموائد في اقبياء الدير الفسيحة . وزينت بالازهار والرياحين ، كأنها وليمة عرس . واجلس نجلاء الى بين الرئيس ، بعد ان ارتدت اجل ما في حقيبتها من ازباء وحلى . وجلس الاب رفائيل قبالتها وجهاً لوجه . .

واذبرت الخمر . فشربت نجلاء حتى اشتعلت وجنتاها . ولما
بلغت النشوة مبلغها من الجميع قدمت اما كل على اطباق نحاسية
بيضاء لماعة وراح المحتفلون يأكلون وينتدرون ..
فقال الرئيس : يحق للاب رفائيل ان يقتخر ويسر . فقد حصلت
الاعجوبة على يده .

فقال الاب رفائيل : ان الله وحده الذي يحول مصائبنا كما
يريد . والايان شرط اولي في استنقاص نظر الله لنتم الاعجوبة .
واما ان امر فسروري بهذه السيدة ان تعود سليمة معافية . واما
ان افتخر فافتخاري بالرب . اليس كذلك يا نجلاء ؟ ..
او نجفت نجلاء . كانها عرفت صوت طوبيا منطلقاً من فم الاب
رفائيل . وقالت :

ان لا ابجد الاعجوبة في ان يعيد الايمان عقلاً الى رأس امرأة .
وانما الاعجوبة كل الاعجوبة ، ان ترى هذه المرأة ماضياً كاله في
حاضرها . اليس كذلك يا ابني .

فرفع الرهبان رؤوسهم عن اطرافهم مستفهمين ، وظل الاب
رفائيل مطرفاً اذ خشي ان تكون عرقته نجلاء . وعندئذ يراح
السنار عن الفصل الاخير من رواية طوبيا الحلبي .

وظلت نجلاء سائرة في حديثها : الاعاجيب بالنسبة الى حدوثها
المفلق ، خطرات روحية تسيطر على سير الروح ، فتعيد هذا
السير الى انطلاقه ، وعندئذ يتم ما يعرف بالانجاء النفسي للكامن
في عقولنا الباطنية . ولو كانت معرفتنا اصفى خبياء ، او جهلنا
اكثر ظلاماً ، لما اعرفنا هذه الانقلابات اية اهمية مع كل عظمتها .

لان الاعجاب صراع الجهل والمعرفة .

فاجاب الاب رفائيل دون ان يرفع رأسه : قد يكون
تحديدك باسدي يشمل التغيرات الجسدية اما وان ما حصل لك
من طريق الروح ، فلا شك في ان يد الله لامست عقلك وروحك
واعادتك سليمة . لانك كنت مجنونة ! . ومع ذلك أنك تشكين في
تأثير القوى الخفية التي نعتبر عنها بالله ؟ أنك تشكين في ان الله عندما
يشاء يحول طريقنا المرسوم ؟

فاجاب : لا يا ابي ما شككت يوماً في كل هذا . وهذا
صوتك بعيد الي صوتاً سمعته ولم ادرك ابن ومني . فهلا رفعت
عينك لأؤمن أكثر بيد الله .

لقد جئنت مرة يا ابي ثم شفيت ، ولما بحثت عن الرجل الذي
كان سبباً من اسباب جنوني . قيل لي انه قتل في الجنوب لانه
اعتدى على عقاف مرام ابنة الزعيم .

لم اصدق ان طوبيا الحلبي ينهار الى هاوية الشهوة ، وروحه
الجبارة تخلق بالف جناح .

ارتعش الاب رفائيل ، فامندت هزات الارتماش الى كل
جاذبة في جسده . ثم توهج وجهه بالحجل القرمزي الحار ، وفكر :
أنكون عرفت نجلاء المجنونة ، طوبيا الحلبي في الراهب رفائيل ؟
اذن على رفائيل ان يكون جبار الجسد كما تراه نجلاء جبار الروح .
عليه ان ينفذ غبار الشبهات عن توبه الماضي وزبه الحاضر . عليه
ان يكون طوبيا المتبع لا الاب رفائيل الضعيف .

فكر في كل هذه ، ثم استجمع قواه العقلية المبعثرة في مجاهل

تفصيره ، ورفع صوته قائلاً : لقد مات طوبيا الحلبي باسديني ،
وروحه النقية تنير امامه طريق الحياة الصحيحة . وما مات طوبيا
الا لانه بريء وعفيف وشريف . ولكنه مات جسداً لا روحاً .
مات اسماً لا كياناً . مات فناً لا راهباً . مات طالباً في
مخترق نجات ، لا رسولاً من رسل المسيح في صومعة .

فانا ، انا طوبيا الحلبي الميت ، وانا الراهب رفائيل الحي ! انا
البريء في الجنوب ، الخاطيء في الشمال . ولصكني في الخاتبة
ما زلت بريئاً ، وعفيفاً ، وشريفاً ..

ثم نهض الراهب عن المائدة قائماً في اوجاء القبر !

ونهضت نجلاء وراعه تصيح : أنت طوبيا ؟ أنت رفيع وحدي
ونهاويل احلامي ؟ انت حوز اسراري ؟ اذن لم اكن واهمة
عندما رأيت عينيك تطردان شياطين الجنوب من رأسي . لم اكن
واهمة عندما شعرت بلامسة يدك تعيد القوة الى جسدي .

لقد احببت طوبيا حتى صار الحب اقوى من ثبات العقل ،
فجئنت . اما الآن فاني احترم الراهب رفائيل حتى ارى الاحترام
عبادة المرأة التي تؤمن بقوة اعاجيب الحب ، فاهتدي .

فقف يا طوبيا ! يا ايت الراهب . قف ايها الماروب من
الذكريات !

إنك اقوى من الماضي لانك سيد مستقبل نفسك . وانك ارفع
من الحاضر لانك نذل طريق عندك بما صدمك في امسك ، وهكذا
ستظل ظافراً ..

قف يا ايت ولا تنوار . افي ملهمة بركة من يديك وصلاة

خافته من شفتيك فلا تبخل علي ثوب اهب ووحك وقد منعت عني جناتي
جسدك . لقد طردت الجنون من نجلاء الماضي فهلا طردت الجهل الذي
كان يقودها الى المعصية ؟

لقد تواري الماضي يا دافئيل ولم يبق منه سوى الذكريات ،
وما كانت الذكريات سوى معالم لطريق الآتي . فقف لئلا اعتقد
ان جنوني انتقل اليك .

ووقف الراهب ! وقف بشبات وعزم وجبروت . فكأنه
صخر انهار من القمة ، وتدرج الى الوادي ، فاستقر سلباً .
واقتربت منه نجلاء وانطرحت بين قدميه خائفة العزم ، مرتجفة
الجوارح والاعصاب ، ثم رفعت صوتها بالتسحاق : باركني ايها
القدس ! وارفع يدك فوق رأسي وحل . انت مهمات شفتيك
لاطف من اهتزاز خوافي الجناح . وان اغماضة عينيك تفتح كوي
السماء ليهبط الروح القدس من الاعالي ..

وكم كانت دهشة الرهبان بالغة عندما سمعوا هذه الابتهالات
الشعرية . فوقفوا جميعاً والشده يشد بعيونهم الى نجلاء . وقفوا
ليصغوا باهتمام . فخاطبتهم قائلة : شهدوا ايها الرهبان وقيدوا في
سجلكم ! اني منذ الساعة اصبحت امرأة شفاقة الجسد والروح . ان
نفسي صارت هيكلاً جسدي . وان جسدي صار مخزناً لنفسي .
اما روحي ، فقد صارت مصباحاً يثار امام الله ، ما دام في الوجود
انسان يشعر بوجود الله ، ليؤمن بشعوره ..

قالت هذا ، وسقطت الغماة ، ولما حاول الرهبان انعاشها ،
ابتسمت ابتسامة مشعة وغاض انعاش جسدها في سكون الموت ..

مسكين داود !

وصاح الابل رفايل : ماتت !!
المجدوعا ! جرعوها الحار ! اذلكوا اطرافها وحشفيها ! ليتها
ظلت بجنونة ولم تمت .
عبياً حاول اخوها ورجاله ، ذلكما ونحرسكما . فنجلاء صارت
في عداد من لم يولدوا ، ومن امسوا في سجل القاتلين ، ومن
اندبحوا في النظام الاسمي الذي جعل الموت نقطة فجوع الحياة . .
ماتت ! ولكن بعد امت استعادت عقلها ، فكان موتها كارتة
احسبها اخوها ورجاله . ولما حملت الى الحجرة التي قضت ليلها
فيها ، كان بكاء الرجال يزيد الحالة تفجعاً وذهولاً .

•
قزع جرس الدبر ثلاثاً متقطعات ، على ثلاث دفعات متساوية
ايذاناً بالجزاوة والصلاة . ولما اجتمع سائر الرهبان والاحوان
في الكنيسة ، رفعوا الصلاة عن نفسها الى الله ، ليقبل روحها في
ملكوته السجاوي . .

اما الراهب رفايل ، فكان واحداً ذنه النظرات ، لا تهتز له
شفة ، ولا تحترق فيه نقطة نفس .
نقد شدة الحوادث المفاجيء ، وفجر في نفسه الماء صامتاً ،
فكان بكاءه دون نشيج ، وكانت حلته دون كبايات .

وارتفعت إبتهالات الرهبان في الكهف العجيب المجد معبد
لله باسم انطونيوس الكبير ، وخرجت كلمة آمين من عشرات
الافواه ، كموجة ضربت أعلى صخور الشاطئ ، بقوة الدفع ، ثم
عادت تنمزق قطرات بعامل الجذب ، حتى صاح الحمل الرهبان
صوتاً : « ارحمني يا الله كعظيم رحمتك » .

ارتجف الراهب رفائيل كأنه دفقة من الموجة الممزقة ، وأصغى
الى قول داود ينطلق من حنجرة رفاعة الصداح ، وراح يردد المزمور
كانه قائله الاول ، ولكن دون ان يحرك شفتيه ..

وتسائل الراهب : ما الرحمة ؟ مسكين داود ، لقد نهكته
الخطيئة فلجأ الى الله ، ولو انه عرف الله قبل الخطيئة لما احتاج
الى البكاء . ولكن ؟ ألبس في بكاء داود منهل لعطاش الروح ؟
ان خطيئة داود كانت بمثابة حاجز دعيم بين الله والانسان ،
ولما ازال داود الحاجز بعصيته ، تفجرت نفسه في إبتهالاته واصبح
الله لدى كل دعاء ، وكل نجوى ، وكل صلاة .

ان العالم مدين لخطيئتين اترفهما عظيمان . آدم وداود . فكما
ان الخطيئة كانت سبباً لازاحة سائر الجهل عن المعرفة ، هكذا
فان الخطيئة الثانية كانت طريقاً للوصول الى التوبة . ومع ان
التوبة الحقيقية هي المعرفة الحقيقية ، فان الرحمة كانت ضرورة
للحالتين فكان الفداء ..

فارحمني يا الله ، واقبل افكاري المضطربة كمعرفة . واقبل
طريفي البك كنوبة . واقبل نجلاء بين مختاريك لتكون رحمتك
جزاء الثائنين ..

انتهى الرهبان من صلاتهم ، ورفائيل غائص في هذه الافكار
كأنه مستقل عن اخوانه ، وكان هذه الصلاة التي ملتها الشفاء
ونبت عنها الاذان ، صارت غريبة عن معتقده ، وعن نفسه وعلمه
ولاعونه ، وقد بدت له نسخة تعاد في كل ظرف ، وتلى امام كل
جنة ، وكان الانسان المجدد ابدآ ، وقف عاجزآ لدى صلواته ،
فلا يستطيع ان يحذف منها حرفآ ، ولا ان يزيد عليها حرفآ ،
وهكذا تحجر السابقون في ما ابتكروا وسنوا واشترعوا .
وهكذا خنع اللاحقون في ما حفظوا واداعوا وعلموا ..
فبرت نجلاء في الغابة المجاورة ، ونثر على تراب القبر الزهر
ناضجآ بالدموع ، واصبح هذا القبر مزارآ لرفائيل يؤمه كل صباح
ومساء ، فيركع على ترابه وحضاه ، ويرفع صلاة عميقة الى الله ،
وفي نفسه من الألم ما يجعل صلواته جديدة ، وروحه متموجة في
كلمات الصلاة ..

حوار !

مرت السنوات ، ولا جديد في الدير ، الا اعتزال الاب رفائيل في حجراته الخاصة ، يسجل ذكرياته في كتاب خاص .
وما اكثر هذه الذكريات نشعاً في نفسه ، وما انعمها استقراراً في شعوره . انها صور تترامى له حلاًماً وبقطة . واحاسيس تلازمه روحاً وهوى . فطوبيا الماضي ما زال اياه في الراهب رفائيل .
فالتجربة تحيط به من كل جهة ، وتنسج له الدنيا بازهي الوان ، واصفى بناويل ، ولكن المشاعة كانت تتغلب على الانبياء ، فتبدد كل فكر ، وتحوّل دون كل التلاق في مهاوي المعصية .
فنفس الراهب ما برحت سليمة من الجراح البليغة . انها نفس جبهة لا عيب في نضاعتها ، ولا ندبة ظاهرة في جوعر وسامتها .
ولكن ؟ أليس صفاء النفس ونقاء الروح ، اياها الجاذبين الذين يشدان بالتجربة ، فتنعكس صور الماضي في صفحة الحاضر ؟
وما صور الماضي ؟ هل غير امرأة احبته ، وفنّاذ احبها وطوبيا كان في الحين ألياً غريباً . فتجلاء التي طبعته على فمه قبل اغتصاب ملته ، ودفعته عنها لئلا يحتقرها . كانت في نظره اشرف جداً من مرام ابنة زعيم الجنوب ، تلك التي حبلى بالاثم ، واتخذت منه ملجأ يقبها الفضيحة والعار . . .
كانت هذه الافكار تعاوده عندما يصلي على سبخته . وكانت

تردحهم عليه عندما يأخذ كتابه ليتم فرضه كراهب ملازم بالصلاة .
أما عندما يركع على فبر الجلاء ، فكانت أفكاره تسير إلى الله ،
حيث يرى الرحمة تغسل ارواح الخطاة في الأبد العلوي ..

وهكذا طال اعتزال الراهب ، وقد لازم حجراته دون أن
يشترك في عمل مع اخوانه الرهبان ، ولم يجد الرئيس بداً من
مصارحته بالحال ، ففرح باب حجراته يوماً ودخل عليه ، فوجده
راكعاً امام المذبح وخطوط الدموع ترسم على وجهه الشاحب
اللامع خرواً ، كأنها الجراح .

نائب الرئيس وقد رأى صفي رفاًئيل مرتفعين إلى السماء ،
واصابه الدهشة تبدو كأنها اغصان شجرة عراة الشتاء باعصاه
ومروءة . أما عندما عكاستها منفتحتين كتغريز في كوخ هذه الظلام
والقوت في داخل النار . وأمسأ جسده الفزيل فكان يرتعش
تداعش الكلمات التي يرسلها صلاة وانسحاقاً ، كأنه غرسة ضعيفة
في مهب عاصفة .

ونقدم الرئيس من الراهب يزه منسأشاً : أرحم نفسك يا
أبت ، أرحمها . إنها نفس تعبد الله فلا تفرط بها في سبيل العبادة ،
لتظل مثلاً للعبادة .

القبض الراهب مشدوهاً وقال : هذا انت يا رئيسي ؟ ليتك
تركتني في الخطايا ، اذن لا ليتك رؤيا ساحرة .

فقال الرئيس : رؤيا ؟ وماذا ترامي أنت ؟

فاجاب : رأيت ابا الرهبان انطونيوس الكبير ، يسير حافياً
على رمال الصعيد ، وغواه الصحراء يتلاعب بشوبه الاسود ، كأنه

علم على مدخل حصن منيع .

فاستهم الرئيس : ومن كلاك أبو الرعيان ؟

جواب : لا ، بل ابنك في هرايت في الاطراف البعيدة مكره
من نور ، وسمعت في الهراء ترانيل .

هتف الرئيس وقال : أندري يا أربك لك جهد عفت كثير ،
واني لاخشى ان تفقد هذا العنق وسواسك .

فقال : ليتني افقد ما رتبني . لان حال الخليفة في وجوهه
المجس .

فقال الرئيس : وماذا ايقنت اعتقال ؟

فضحك الراهب مسخفاً وقال : ومن هم المعتقل ؟ اليسوا
السائرون وراء المجازين البالدوم ؟ انني أجنح كجنت مجسلا
لابلغ حكمها .

فقال الرئيس - وقد ضمن سلامه بعض التائب : أندري لك
سبح المكارم ؟ أندري انت تهتك والاسحق توبك هما الخطيئة
البارزة بين خطاياك ؟

أد اعتقد يا أربك ، ان احب خطيئة الى التائب : انما هي
خطيئة بلغد من نفسه مبلغ الانسحاق . ولذلك لم أر احب اليك
من ذكر مجلاء . فعلى الراهب ان يكون عفيفاً حتى في فكه ،
ومنهياً حتى بينه وبين قلب . وحبائي بك نهمل انك - اتر الى
حيث الخشي ان نضل .

فقال الراهب : أفرعني عن الصلاة ؟

فقال الرئيس : ص ، ولكن تجهداً له فقط . فالصلاة لاجل

محاربة الفكر ، فبحسب الفكر . وتكرار التندامة على الخطايا التي
مرت عليها التندامة انما هو الحفاظ على الخطايا . وإلا ما الحاجة الى
الذكريات القلقة التي كانت سبباً لقبول المعصية ، ولو فكراً عابراً ؟
إنك تشد القداسة بآرفائيل ، ولكن القداسة ليست صلاة
ونسكاً . وليست فرع صدور وتبريق جباه . بل القداسة نفس
خلت صفحاتها من انعكاسات نهاويل محظرات الله . وانت قدس
بآرفائيل ، ولكنك لم تعرف كيف تقطع قيود الدنيا . ولم تعرف
كيف تهدي بعد الى مفتاح هيكل الروح لتسجد فيه دون سيطرة
الجسد . فمن هي نجلاء هذه لتزور قبرها كل صباح وكل مساء ؟
ومن هي مرام التي تهس اسمها همساً وانت تهذي في رفاك ؟ اسما
خطبتك المفضتان . ولولا هاتان المرأتان في حياتك لكنت يربساً
وقديساً ، وآية الجحش .

كان الراهب يصمي الى الرئيس بشوق وانتباه ، كأنه وجد
في كلامه فلسفة تلازم الناس في حياتهم ولا يسيرون بها . غير ان
كلمة « لو » الاخيرة فتحت في نفسه جواً واسعاً للكلام فقال :
ولولا هاتان المرأتان في حياتي ؟ ان كلمة « لو » بالرئيس هي تندامة
في ذاتها . ولكنها تندامة عابرة لا تستقر امام جراح النفس طويلاً .
وكلمة « لو » خرجت الساعة من فمك استغافاً عليّ ، وتعزية لي
دون ان تلتفت شقاء الجراح او تضمد نازعها . ومع ذلك فاني
وجدت فيها حقيقي وحقيقتك ، وحقيقة كل انسان .

« فلولاه شرور الناس المضطربة القلقة ، المغشاة بكل وهم
وجهل وغرور ، لما احتاج العالم الى مثل ، ولما احتاج ذوو المتل

الى ندامة . لذلك توافي في حالي هذه احوال ان الزجر كلمة دلو
من سجل ايمى ولم استطع . وهل كانت الايام مثقلة بغير لو ؟
« فلو » كل شي بارئيسي . انما خطايانا وندامتنا . شذوذ
وشواتنا . مطامعنا ومنازعنا . ولا فرق عندي انت لفظناها
باسف والى وبكاء ، او اطلاقها تخلصاً من تبعاتنا ، تنغرق في
نبعات سواها .

ودلو وحدها كانت طريق التجمعي ، فضلاي في مهمه دنياي .
« فلو » لم يث اني قبل وصولي الى درجة الكهنوت ، لما ذهبت
الى النحات الايطالي لانتقل مبادئ الفن .

ودلو لم اعرف الى النحات لما كنت رايت نجلاء . ولو لم
اعرب من نجلاء لما احببت مراما ابنة زعيم الجيوب . ولو لم تعثر
مرام لما كنت راعيا . ولو لم اصير راعيا لما سكنت معبرا
لاختيار الافكار القلقة ، وعرض الصور المعربة . فكلمة « لو » اذن
هي الحافزة الرابطة كل مصير بصاحبه . وكل صاحب مصير بالعالم .
بل هي التي تجمع العالم وتفرقه ، لاي مقاس لكل نظام ، وتفسير
لكل حلم . وحل لكل لغز . بل كلمة دلو هي التي تورت التدم
وتدفع الى الندامة . وهكذا نسير كل عدو في كل نفس قبليل
الحياة ...

لذلك بارئيسي ان انت قديماً لانت دلو تلازم افكاري
وتعرقل خطواتي . وعندما افضي على دلو في مراحل المقبلة ،
اصير ذلك القديس . فهل تجيز لي بارئيسي انت انعزل في احد
كهوف قنوبين ؟

نهت نظرات الرئيس في سكب الحجرة ، صكاه يهت عن
 جواب . اما رفايل فقد وضع رأسه بين كفيه ، واكب منتظرا
 الجواب ، وموت فترة صمت كانت بمثابة زمن في انتظار الرابع .
 أحس الرئيس أنه في لدى السؤال ، فلبا إلى القانون . فقال :
 ان للسك قانونا بامته . والقانون السك يحظر الوحدة الثامة في
 المعاور . وفي قنوين اليوم اسكان ، والقانون لا يجوز أكثر من
 اثنين في غار واحد . ولا يجوز العزال واحد منفردة الا اخطاروا .
 وان أمته مع الاثنين هكوا لالة وهذا غير جائز . وان
 لمست وحدك في غار مستقلا عن الاثنين فغير جائز ايضا ، لذلك
 يجب ان تستقر في هذا الدبر ، والفد يفتح طريق ذاته .
 فقال الرابع : استقر ! وما معنى الاستقرار اذا خفت امانا
 المر في هذه . وماذا اصنع لاستقر ؟
 فاجاب الرئيس : ان احد الناسكين أسمى في آخر اومه ، فان
 مات ، محل ثانيا مع الباقي
 فالتفص الرابع بالترجيف وقال : انن فنحن بحاجة إلى الموت
 ماذا نحن بحاجة إلى الحياة .
 الرئيس : هذا علم الله في سنة الوجوه . اما الآن فان جسدك
 بحاجة إلى الاكل ان كنت ان تحيا تنتظر .
 الرابع : أ احيا لانتظار حيا لموت ؟ فالحياة ليست اكلا
 ونوبا ، وليست وفقا على مشيئة حي . وهذا الذي يجعلك تنتظر
 موت احد السكسين بالمحافظة على حياتي .
 فقد اموت الساعة ، وقد اموت غدا بالرئيسي ، ويعيش السكك

العجوز طولياً ، لأن الله لم يعط أحداً علمه . وقد يكون علم الله
وياً من حدوث الموت في غير حينه ، لأن الناموس الأزلي سن
مرة واحدة لنظام الأبد .

الرئيس : شعور رؤوسنا كلها محمداً ، وشعرة واحدة لا تسقط
بدون إرادة الله .

الراهب : إن إرادة الله جعلت الشعرة عرضة للسقوط ، أما
أن فقد هذه العجيبة وتزعجها فهذا تخيير للعدل الاسمي . إن هذا
جهل نفسه إلى المبدع ونسبه بطابعنا الضعيف .

الرئيس : احذر الشطط يا ابن . إنك عالم وقديس ، فلا
لغاة في اجتياز حدود اللاهوت .

الراهب : اللاهوت ليس أربعة ، بل سباح للتريفة . ومع
ذلك فالقدر في لاهوتي ولاهوتك لا مكافئ له في ميزان العدل
الاسمي ، لأنه يناقض النظام الذي نحسبه شاملاً دقيقاً .

ثم ما هو الموت ؟ وما وجد ؟ أقصاها عن الخطيئة أم انقائها
لدورة الوجود ؟

الرئيس : أقصاها عن الخطيئة !

الراهب : هذه رواية موسى . ورواية موسى كانت فلسفة في
قصة التكوين ، ولكنها لم تطبق عملياً ولم تطابق عقلياً . وإلا
فأية خطيئة اقترافها الطفل نيموت ؟ ورت الخطيئة عن آدم ليس
كذلك ؟ فهب إن آدم لم يخطئ . أكان الإنسان يعيش الدهر ؟

إنما في عالم الجماد مثلاً في عالم النباتات . وفي عالم الحيوان مثلاً
في عالم الإنسان . وإذا عمل الصخر لينتفتح ؟ وإذا عملت الشجرة

لتنخر منها الجذوع ، وتبس منها الجذور . وماذا عمل وحيد
القرن لينقرض ؟ أليس لكل هذا نهاية ؟ فإين التفاحة في حياتها ؟
الرئيس : أنكر خطيئة آدم ؟
الراهب : وماذا عمل آدم ، أكل تفاحة ؟ فلماذا وجدت
التفاحة إذن ؟ اليس كنا يأكل التفاح ، فإين المعصية ؟
خرج الرئيس من حجرة الراهب ، ولكن بانتفاض الغاضب .
وفي الغد سرت الممسات بين الرهبان ، ان رفائيل صار ملحداً ،
بعد ان أصيب بمس في عقله . ومضت ابام كان الرهبان يتجاشون
التحدث مع الملحد ، خوفاً من ان يسلم عقولهم بالحادة .
وقد شعر الراهب بهذا النفور منه وهذا الابتعاد عن مكانه
فاقام في حجراته غارقاً في التفكير الصحيح ، حتى صار هيكلاً
عظاماً .

قصة توفيق

أقد عرض رئيس الدير فضبة الراهب للمقام البطريركي وكان ذلك في عهد البطريرك بوحنا الحاج الذي خلف البطريرك بولس مسعد بعد وفاته . فأرسل المقام لجنة مؤلفة من أربعة كهنة وخطيب . وكان الكهنة جميعاً من حاملي شهادات الفقه الكنسي الجامع العلوم الروحية كلها . ولما وصلت اللجنة عقدت محكمة واستدعت الملحد ذا المس ، فاذا بالراهب يقف امام المحكمة ، وقد برزت عيناه من الغزال ، وارتمت حولها الخطوط الزرق المظلمة بالبقع النفسية . اما يده فقد تشنجت فيها العروق كلها جردت من الجلد او كسخت من خلافا اللحم ، فوقف يترنج كالمنجور ، والجنة تحرق اليه بشده يستدر الاسف والاستفاق . . . ولما ثابك ، ثألق وجهه بابتسامة بريئة وقال : من يريدني ؟ اطباء الروح ام اطباء الجسد ؟ ان روحي ناشي جسدي ، ولكن ليس في هزاله . وان جسدي يحمل روحي ، ولكن ليس بقوته . وهذا رفاثيل مائل امامكم جسداً وروحاً . فلا نضلوا الطريق الى نفسه ، فليس في كيانه مجاهل ومناجات .

فقال الطيب : كم ساعة تنام في الليل ؟

فاجاب : ان الشيء الذي لا ثمن له لا يحصى . وساعات حباتي كالهباء الذي تذره الريح ، لذلك لم افكر يوماً في ان افرق بقطتي

عن هجوعى ، ولا ابامي عن سني ، لان الساعة من الدهر هي كل
الدهر ، وليس من جديد في الاستمرار ..
فقال رئيس الجنة : ان لكل شيء قسماً بايت ، فانه لم يخلق
شيئاً رخيصة

فقال الراهب : ولم يخلق شيئاً غالياً . فالبشر هم الذين وضعوا
القائلاً للاشياء . ولولا مطامع البشر ، لرأيت كل شيء عبة ومنحة .
فقال الطيب : ان الزوائد في حجرتك مضر ومميت ، فالأفضل
ان تقابل الشمس ان شئت ان تحيا ..

ابتسم الراهب ، وكلم رئيس الجنة : رأيت كيف نضع
ثناً للاشياء ؟ ان حضرة الطيب يشير الى بالانتحاء الى الشمس ،
ليقبض عن اشعتها مائلاً ، ومع ان الشمس هي الهبة الصخرية ،
والمنحة العليا ، فان العلم يريد حصرها في فهاقم العقافير ، ومخازن
الادوية .

وضحكت الجنة ، وقد تكون وجدت جديداً في حديث
الملحد المزبل . ولما عدأت موجة الضحك ، قال رئيس الجنة :
لقد اتصل بصاحب القبطنة انك لا تقدر بكل ما تعلمه الكنيسة ،
ومثل هذا الشذوذ بحسب عليك بدعاً واحطاب البدع ملحدون
في نظر الكنيسة .

فقال : أتريد ان تذكر لي بدعة واحدة مما صدر عني ؟
رئيس الجنة : لقد جاهررت باعتراضك على مشيئة الله ، وقلت :
ان في عالم الحيوان مثلاً في عالم الانسان . وتعني بذلك ان الحيوان
يتو ، ولم يخطي ، فما هو التفسير ؟

الراهب : التفسير كما قلت يا أبت ، أنت الحيوان يموت ولم
يخطئ ، وهذا ما ينبغي أن الموت ليس قصاصاً عن الخطيئة . ومع
ذلك ، ألم تفكر يوماً فيما نحسونه على مجاهرة ؟

رئيس اللجنة : الافتكار غير القول .

الراهب : اني افضل ألف مرة القول على الفكر في مثل هذه
البعوث ، ألم نسمع المثال التالي ، إن من خطئ علمه قتلته ؟

لقد تحدثت يوماً الى رئيسي لاني احترمته واعتبرته فاضلاً فاهماً
عن علم واختبار ، فاية بدعة في مثل هذا الاستفهام !

رئيس اللجنة : الاعتراض على مشيئة الله كفر .

الراهب : ومن منكم عرف مشيئة الله ؟ ان ذريعة الرمل لا
يمكنها ان تصير كتيباً لانها هبسة لا تستقر ، وجزء لا يكتمل
إلا بانحداده بالكتيب . فهو في ملحد ، فاكون ذريعة رمل منقردة
عن كتيبها . فهل رأيتم كتيباً ينهار ليضم اليه رمة ، منفرطة ؟
توافقت نظرات اعضاء اللجنة استفهاماً ، وساد الصمت هنيئاً ،
كان الراهب في خلافا بحسب نفسه فائزاً وقد افجع المرافعة .

اما رئيس اللجنة فقد اعطى الراهب كتاباً من غبطة البطريرك
الى رئيس الدير ، وقال : اقرأ . فقرأ الراهب النص التالي :

البركة الرسولية تشمل ولدنا رئيس دير قزحيا المحترم .

لا مانع من ان نسمحوا مولد القس وفائيل بالانعزال في
قنوبين بعد ان تقرر اللجنة سلامة ايمانه ، ونحن نرى ان في الوحدة
شفاء لمرض النفوس ، ونعزبه للكتابة التي نستولي على ارواح
المفكرين . وقد استدلنا من عريضة ان وفائيل كثير التفكير ،

بالغ التقوى ، وفي جوهره فداية تبحث عن مخرج من ظلام
الأفكار القلقة ، والذكريات المغربة ..

هذا ، وأنا أسأل الله أن يرعاها بعنايته ليسكون مثلاً للناسك
الصحيح ، لنشع أنوار طهره في مقدس الاجيال .. والبركة
تكراراً الحبيب البطريرك
يوحنا بطرس الحاج

طوى الرابع الأمر ، واعاده لرئيس اللجنة وقال : قد نكون
اجرب بالنسبة الى سلامة اخواني الرهبان ، والراعي الحكم يفصل
الشاة الجرباء عن القطيع

وقد نكون سليماً في نظر سيد لبنان الروحي ، فاراد ان
تكون هذه السلامة في مأمن من الاخطار ، فأمر بإبعادي . وفي
الحالين نست مريضاً ، ولا منعداً ما دام هزال جسدي يهب
المناعة لروحي . ههنا يأذن لي موقد الرئيس الاعلى بالانصراف ؟
فاجاب رئيس اللجنة : كما نشاء يا رب . ووقف رئيس اللجنة
احتراماً فوقف الجميع ، وخرج الرابع وخطاه المثقلة بالامات
نضع نظاماً سير ذوي الفضيلة .

اما ماذا نكلم المجتمعون بعد خروجه ، فلم يدري ، لان الناس
لم يتعودوا تبليغ الكلام البري الى من يوجه اليهم ..

الورد ١

في صباح جميل ، تجمع رهبان الدير حول الاب رفاثيل
ينبركون يرداعه ، وفي عيونهم من دموع الصدق والاحترام ما
يبرهن له عن منزلته الرفيعة بينهم .

ووقف الراهب المتأهب للرحيل الى المسك يودع اخوانه
قائلاً : وداعاً يا ابائي . وداعاً يا اخواني . وداعاً يا رفقاء انامي
التي مهدت حياتي لتوحد مع الله .

دخلت عليكم غريباً ، وغريباً سأخرج . ولكنني لم احرم
التعزية التي كانت باسماً لجراح نفسي في كنف هذا الدير العجيب .
اعا وأني منسلخ الساعة عنكم ، فلا بد لي من كلمة لوجهها
اليكم ، ولعلها كلمة اخلاص ، واخلاصها في صراحتها .

ان الفضيلة فيكم توازي المقاصد التي ترمي اليها نفوسكم . ولكنني
لم اجد سباجاً لهذه الفضيلة . مع اني لا اجد فرقا بين الفضيلة
والقربان في الهيكل . كما اني لا اجد فرقا بين طلاب المعجزات ،
والخاضعين الى خبز السماء .

فكل معجزة تحدث في حينها المعد لها ، انما هي فضيلة تردها
في نفس كل منكم فيستمتع براحتها اللاجئون الى الشفاء .

وكل مهزلة يراد تصويرها معجزة في نظر البسطاء ، انما هي

ضعته في صدر الالباب ، وقضاء على ما بقي في نفوس طلاب
المعجزات من التقوى .

كثيرون يدخلون ادبركم خاشعين ، ثم يخرجون متذمرين .
وكثيرون يدخلون مرأين ويخرجون مؤمنين . واكثر من هؤلاء
واولئك ، هم الذين يدخلون ويخرجون ولا يدرون ما اعطوا ،
ولا يشعرون بما اخذوا ، لان القضية في دنياكم ، كرامة مباحة
للجميع ، ولكنها دون سباح ، ودون فاحلف يوزع عناقيدها
على الجالعين .

ان النظام في ادبركم اخواني ، ليس نظاماً في معناه الصحيح
لانه البحث عن عدم النظام . وماذا يمكننا ان نقول عن يبحث
عن عدمه في اشراق وجوده ؟ ألم تروا كما أرى ان مستودع
الالباب خاوي فارغ في نفسه ؟ ألم تروا كما أرى ان الشكوك لا تملأ
فراغاً في نفس ، ولا نشبع جوعاً في انسان ؟ ألم تروا كما أرى ،
ان الفراغ لا يملأ بالفراغ ، والعدم لا يتجسد بالعدم ؟ .

ان لكل حدث ذكرى ، ولكل ذكرى مكاناً في الرأس
الذي يحتفظ برسوم الاحداث . فهلا تذكرون الحاكم وفائيل
الحاطي الذي كنتم وما برحت محسبونه قديماً ؟

اما أنا فأنذركم لان ارواح الاحبار والنسك ستغير زوايا
افكاركم ، فاراكم صوراً واضحة ، ولكم اشكالكم التي حفظتها
وأنه معكم .

جبهة عبي الذكريات . واجمل منها ، المناعة التي توافي الاخطار
في مرورها .

ان الذكريات عالم ثان وراء العالم . بل هما عالمان متصقان
لا يتفصلان . وسيظل عالمي وعالمكم واحداً ، وليس من فارق
سوى الطريق . وليس من طريق سوى حجة الايمان التي اقصد .
وداعاً يا اخواني . وداعاً يا مشاعدي ايامي وما رافقها من
اضطراب وعدوه . ومن جموح واستسلام .
وداعاً ا وليكن ابو الرهبان الاكبر شاهداً هذا الوداع ،
حتى نلتقي وراء زرقة الامل ، ونجتمع في الملكوت المعد للابرار .
كان صوت الراهب ينطلق من حنجرة كالدليل ، وقد فوج
ببحة من البكاء ، وبنبهة من الموعظة ، وبهمسة من الصلاة ، بل
فوج بالالم الذي يخرج من النفس ، كأنه الاستغاثة الملحة .
وفي هذا الموقف العاطفي المتجرد من الانانية المتصلبة . علا
نشيع الرهبان ، ووقف الرئيس محمداً الى الارض ، يعبت بلحيته
المسبة على صدره بجلال .

طريق قنوبين

خرج الارب رفائيل من الدير ، ومشى امامه اخ يحمل له ما يحتاج اليه في عزلة نسكه . وما كاد ينتعد بضع عشرة خطوة ، حتى سمع الجرس يدعو الرهبان للصلاة عن اخيهم الراحل ، كأنهم يقيمون عن نفسه جنازاً ، وعوحي .

وفكر الراهب : ترى لماذا يخشى الرهبان على الراهب منفرداً ، في العزلة خطر لا في الوحدة جنوح ؟ أن تكون حجرات الكهوف غير حجرات الدير ؟ البس السماء سقفاً واحداً لبيت الوجود ، متى كانت الغاية من الوجود طريقاً الابد ؟

كانت العقبات والمنحدرات تقطع على الراهب تسليلاً افكاره ، وكان عجزه عن اللحاق بالاخ السائر امامه يزيد افكاره تشعباً ونبعثراً .

فكان لا يكاد يشرف على ناحية جديدة من تصوراته ، حتى يصطدم بسواها ، الامر الذي حول هدوءه اضطراباً . وشجاعته خرقاً ، وحكمته حيرة وجحلاً .

وسأل الاخ السائر امامه : ألا تزال بعيدين يا اخي جبرائيل ؟ فوقف جبرائيل ، ومسح عرقه بكفه ، ثم تنفس لمسانه دفعة واحدة وقال : المسافة في الأقدام اكثر منها في الأقدام يا أبانا . لم يجب رفائيل على الخلفة في جناس الاخ ، لانه وجد فيها

حقيقة وجبة . وكان الاخ وجده في سكوت الرابع مدخلا
للكلام فراح يثرثر : الحياة غريبة يا ابانا . وقد يكون الانسان
هو الغريب في الحياة . ومع ذلك فالغربة لا بد منها ، لانها وطن
الجميع ..

فقال الرابع : اين نحن من فنوبين ؟ ومتى نصل ؟ اني ضعيف ،
ونكاد قواي تتلاشى . فبلا اقتدت في مسيرك امامي ؟

فقال الاخ : سنصل يا ابانا سنصل . فهل تريد ان نقف عن المسير ؟
انت تطلب فنوبين ، ولو كنت تريد سواه . لا يمكنني ان اجد
لك كثيراً من الكهوف والمغاور ، ولكنني افضل الغبار الذي
يكون قرب عين ماء .

فقال الرابع : لا بأس إمش . فاني هذا وراح يفكر : عين
ماء ؟ هذه ناحية جديدة من الحرب . وغداً ، يبدأ الصراع بين
مطالب الجسد واماني النفس . بين حب البقاء ، والانتصار على
ما في العمر من مغريات الدنيا .

الماء ، الحبز ، الصلاة ، التأمل ، النوم في جنبه ، واليقظة في
المراقبة . الان فهمت خشية الرهبان على طلاب الزهد والاعتزال .
ان الحقائق مغطاة بسكامة . وان الكلمات مجوزة وراء سؤال .
والولا سؤالي للاخ ، لما خرجت السكامة التي ازاحت الستار عن
حقيقة نفسك .

وطال السكوت ، وطال السير ، حتى اشرف السائران على
منحدر سحيق ، فقال الاخ : الى تحت يا ابانا يجب ان تنحدر ،
ولكن المنحدر انما سيكون صعوداً لنفسك البريئة ، فهيناً لك ،

فهلأ نذكرك في يوماً في صلاتك ؟

فقال الراهب : ان الصلاة نفسها ذكرى يا اخي ، فعندما اقول
ارحمي يا الله ، فكأنني اقول : اللهم ارحم سائر البشر . فالرحمة
ليست فطرة مطر تصيب انساناً دون آخر . بل الرحمة كالشمس ،
تشرق على الواحة والصحرَاء معاً . وعلى المرجة المزدهرة ، والمزبلة
التفتة . ولولا الرحمة لهلك تسعة اعشار الناس في معصياتهم ..
فقال الاخ : والمطر ينهمر على الارض كلها . فاجاب الراهب :
والمطر رحمة يا اخي . ولكنني عندما اقول الفطرة ، فانما اقصد
السحابة التي توشح عابرة ..

امام الموت

انتهى المنحدر ، والآن جبرائيل ينتظر وصول الراهب اليه .
ولما وصل الراهب قال الاخ : اتود زيارة الكهف الذي يقيم فيه
تلك من منذ امد طويل ؟ فاجدهما شيخ عزم والثاني في مستهل
الشيخوخة . ولا شك في انك تستأنس بهما لانها وديعان وحكيهان .
فقال الراهب : خطي اليها لعلها يزوداني بارتادانها . ودفع
جبرائيل المسير بعد استراحة قصيرة . ثم وقف امام غار في السفح ،
وقال : انيها هنا .

تسبب الراهب ، ونسارت نبضات قلبه ، وقد اصغى الى عري
الفرانج في الوادي السحيق . ثم جرد الى الفجوة المظلمة التي رآها
باراً في الكهف ، ومشى نحوها قائلاً : يجب ان ندخل .
لقد جبرائيل حمله خارجاً ، ورسم الصليب على صدره وقال :
اتبعني ! .

وما كاد يتوسطان الكهف ، حتى فاحت رائحة البخور تحتاج
رائحة العفن في الانحماق المظلمة . ولما تبع الراهب الحسنة معها
روح القداسة ، دخل حجرة منسارة بالزيت والشموع ، واذا بها
امام مشهد مروع ، فاجفل الراهب مثلما اجفل الاخ ! .
وماذا هناك ؟ فلما بلغ منه الهرم مبلغ الجفاف ، وقف امام
جثة تلك في بداية شيخوخته ينظر صلاة الجفارة . وقد ارتفع

دخان البخور من بحرة متوعة بالذار ، مثلما ارتفع صوت الهرم
مرتجفاً : يا رحمني يا الله كعظيم رحمتك .

ووقف الراهب والايخ معا وانه بصلاة الجنازة حتى النهاية .
ولما تمت الصلاة نكس الهرم : تباركت السماء ! وتباركت
ارادتها . لقد اوحى اليكما بالحي . اليّ وقد رأتني عاجزاً عن اعادة
التواب الى التراب . فهيا تفتح حفرة للميت ..

بعد ساعة ، كان الميت في احشاء الارض . وكنت الناسك
الهرم يتحدث الى الراهب قائلاً :

رايتك أمس في الحلم ، وفي هذا الصباح مات رفيقي . ألسنت
الآتي لتكون لي رفيقاً ؟

فقال الراهب : إني آت لأكون رفيقاً الذي مات . أما
وارادة الله هي الكلمة الفاصلة ، فإني رفيقك ان شئت ان تتركني
لاكون اقوى من الدنيا .

فقال الناسك : ان الدنيا في جوابك لها يا اخي . فقال له
الراهب ثلاث مرات « لا ، فتتوارى ، وعندئذ قل : نعم ، ما تشاء لانك
تصير اقوى من الدنيا .

الراهب : وماذا حدث لرفيقك المسكين ، وانت الذي كنت
مزماً ان تسبقه ؟

الناسك : كنت رفيقي يستخلص السم من رؤوس الافاعي
ليقتل به الشيطان . وقد عثر في هذا الصباح على افعى رهيبة .
ولما اقترب منها اشدخ رأسها ، افرغت في قدمه غصارتها
فصرعته .

الراهب : أما كان رفيقك يقول : لا ، لندياه ؟
الناسك : كان رفيقي أقوى من الدنيا . لأنه كان يقتل
الشياطين بسم الإفاعي .

الراهب : مسكين رفيقك ، لقد قتل أباه وولديه ،
حتى تحول وهمه صوراً براه ، واشباحاً بحسها ، وأرواحاً بكلمها .
ولو أنه رأى في الحية ما يراه في الحمامة ، لما قضى عمره في التذوق
وراء الإفاعي .

الناسك : لقد كان لرفيقي سرب من الحمام ، ولكن سربه
نبت ، وقد قضى الصيادون على معظمه .

الراهب : هنا المثل بأيت القديس ! لقد ساء رفيقك أن
يعيش ودعماً ، ناسباً أن الوداعة يجب أن تختفي بالحكمة . ولما
قضى على الحكمة بقتله الإفاعي ، نبتت وداعته فبات في جهل .
الناسك : الناسك لا يحتاج إلى الفلسفة يا أخي . فهلا عمدت إلى
البساطة والتجرد في التعبير ؟

الراهب : الناسك لب الفلسفة بأيت ، لأنه التصوف المشرق .
وإشراق الصوفية في النفس ، برهان على ثمر الفلسفة في العقل .
الناسك : من نكون ؟ ومن أين أنت آت ؟

الراهب : أنا راهب من دير قزحيا ، أبيت الدير منذ بضعة
عشرة سنة هارباً من الدنيا . ومع أني قلت للدنياي أكثر من
الف مرة ولا ، إلا أنها كانت تصارعني ، وكادت تصرعني . على
أنني ظفرت أخيراً ، ورأيت أن أرفع راية ظفري في ظلام كهف
مقدس لتخفق فوق نفسي . .

الناسك : أحييت لتكون ناسكاً !

الراهب : جئت لأحيي الله ..

الناسك : الحياة فانية في دنيا الله يا أخي . فالغذاء الامانة
والتقشف . والفراش قش من هشم الوادي . والغطاء مسح شائك
من الشعر . والوسادة فرمة من الخطب ، محددة بقشرها ..
الراهب : والصلاة ؟ أتدع عن الناسك ان يصلي ؟ ان
مناجاة الله الذ من كل غذاء ، وانعم من كل مه ..

الناسك : ان الأم الجسد والروح في صراعهما تفوق الاحزان .
واني أرى في غضون جبينك نعمة غابرة ، وغنى مسدوداً ، فهل
كنت ابن وجهه ؟

الراهب : ان من يفخر فليفتخر بالرب يا قديس الله ! فانا
ابن خروفي ، وخروفي كانت سلسلة من الآلام ، وكل حلقة منها
منصلة بالعالم .

الناسك : من يصل حياته بالعالم ، عليه ان يظل في العالم .
الراهب : هذا أثبت اني عالمك ليصير عالمي ، وفيد قطعت
سلسلتي ، وثبرت حلقاتها في كل مكان ، فامسيت طليقاً لاوربط
نفسي بالوحدة ، مع الله ..

الناسك : الله في كل مكان يا أخي .

الراهب : ولكن ليس كل مكان في الله ، يا قديسي ..
الناسك : اني لواجد في امرك غرابية يا أخي . ففي منطقك
من العلم ، بقدر ما في علمك من الاختبار . وفي تفلسك من الترفع
بقدر ما في ترفعك من التكبرياء . ومسع ذلك فالناسك يستهويك

كأنك جاهل ما نفسك ، وما في سفيه من جهود واجتهاد . فهلا
قربتني الى نفسك ، قبل ان تندخل الشكوك الى نفسي ؟
الراهب : نفسي ؟ انها مكشوفة دون غطاء ومباحة لكل
باحث . ومثل لكل صديق مخلص . وفي هذه الحالات الثلاث ،
ترى جسدي ليس غريباً عن روحي يا فديسي . ومن قضايت
روحه وجسده كان شأنك وشأني ، وشأن كل من عرف
العالم غريباً ..

الناسك : نحن الغرباء وليس العالم .

الراهب : ان غربة العالم تبدو جليلة في قباين أجزاء العالم
وقساويها . فاذا ما رأيت الانسان واحداً فكأنك ترى حرق
مراميد متساوية . ولو أنك رجعت الى ماضيك وما تشابك فيه
من متاعات وعدايات ، لوجدت نفسك ابدي ، ولمست حقيقتي في
حقيقتك . ولكن ألا ترى مثلي ، ان الرجوع الى الماضي انما هو
عدم بناء الحاضر ؟ ألسنت في منسكك القاسي ، وحياتك المائتة ،
ذلك الذي يحاول ان يرفع السدود بينه وبين ماضيه ؟ لذلك يا
فديسي ، لا حاجة الى حفر القبور للتثبت من وجود الرفات . ولا
حاجة الى فحص الرفات للعثور على خواتم الذهب في سلاميات
الاصابع . فالموت واحد والحياة واحدة ، ومرامي الانسان
واحدة . وما دامت بهارج الحياة معدة لاجداد الموت ، وما
دام الموت طريقاً للوصول الى الله ، فلتستريح يريسة الله ان
تكون ..

انطلاق

وسكت الراهب فجأة ، لأن السعال الجاف ، إلتاب الناسك
القديس ، فحفظت عيناه في وقبها الضامرين ، واحتفن وجهه
بأحمرار أزرق الخواشي ، وبدأ جسده ينتفض مشغوطاً كالطائر
المذبذب ، وإذا بالرغوة المدماة تدفق من فيه ونخضب لحينه البقاء ،
المترسلة على صدره بدون نظام ..

وحصر الراهب يدعو الأخ جبرائيل بذعر وخوف ، وعميلاً
سكران الصراخ ، فلم يسمع جواباً ، فاحتضن الناسك الفارق في
خفقان نزعه ، وحمله إلى سريره ، وأي سرير هناك ؟!

وسقط الجسد الخائر في البدة من الحشائش اليابسة ، ووقف
الراهب منهولاً مشدوهاً مردداً : ما أصعب طريق السماء ..
وترأى يريق الماء للراهب ، فوثب إليه ونوباً ، وانتزعه
انتزاعاً هوج ، وعاد يجرع الناسك قطرة قطرة ، وبعد كل قطرة
يلفظ الناسك بحبة من الدماء قرمزية الرغوة .

وكان الجسد ثلاثي شيئاً فشيئاً ، حتى إذا ما مرت بضع عشرة
دقيقة في هذه المحاولات ، كان الناسك جسداً لا حياة فيه ...
ونمت الراهب : أرحم يا الله . إن سخافة الحياة في عظمة
الموت . وإن الصراع المستمر ، انتهى إلى حبة من الدماء ، فهدوء
إلى الأبد ..

فأين توارت حركة هذا الجسد ؟ وكيف خرجت الروح منه ؟
إني لم أره ، فما معنى الابصار إذا كانت لا تنفذ إلى جواهر
الاشياء ؟ أوجدت العيون لقوى القافي والذي سيفنى ؟
فما لذتها إذن في ملك ليس لها ، ما قيمة الشيء الذي لا يدوم ؟
ما معنى النور ؟ وأي شيء هو الظلام ؟ صدق الذي قال :
كل شيء باطل ! ولكن ، ألم تتلشّ الأحلام باليقظة ؟
فلم لا نحسب الحياة حلم الموت ؟ ولم لا نحسب الموت يقظة
الابد الذي لن ينتهي ؟ جميلة هي الأحلام ! وجمالها في ان نعرف
كيف ننام هائنين ..

قال الرابع هذا ، وخرج يبحث عن الاخ جبرائيل ليعاونه
في دفن الناسك القديس . ولما ابتعد قليلاً عن الناسك ، رأى
جبرائيل نائماً في ظل دفلى ، يتنفس تعب الطريق في شجرة .
فحدث الرابع الى الاخ طويلاً ، صكّنه يقرأ في اساريه امرار
الوجود ، وفكر : ما الفرق بين الرقادين ؟ هذا يحلم ، وذاك يحلم ،
فأي الحلين احل ؟ ان احلام جبرائيل طريق لحلم الناسك . وأنا
ما عر موقفي أنا ؟ لقد كنت مثل جبرائيل ، وسبب جبرائيل
مثلي يوم أصبح مثل الناسك ، فأي فرق بين الانسان والانسان
إذا كانت النهاية واحدة هي الموت ؟

الفرق في الطريق . في الأحلام . في الوصول الى النهاية .
وامتدت يد الرابع نهز جبرائيل : انفض يا جبرائيل ، لقد
انطلق نور الكهف ، وزالت دنيا من العالم !
فانفض جبرائيل ذعراً ، وثقلت مشدوهاً ، وقال : ماذا

جري ، هل قررت مصيرك ؟ انت الياء هنا كثيرة ، فاختر اي
كهدف تريد .

فقال الراهب : لقد مات الناسك ، فهيا تدفنه .

فصلى الاخ في وجه الراهب وقال : احذر ان تكون قتله
قتلاً لتظل وحيداً وعندئذ نسي بحرماً ، ويصبح كهفك مغارة
اصوص !

فقال الراهب : لا تكن زوراً ! فالتشكوك تقود الى الويل ،
والويل يقود الى الهلاك . فالتاسك كان مسلولاً ، وعندما انتابته
رعدة السعال ، تغيرت رثاه وقضى !

الاخ : كان مسلولاً ؟ ومن ادخل عليه وباء المجازفين ؟ انت
السل مرض انذين لا يعرفون قيمة نظام الحياة .

الراهب : ان الضعف توأم النمو . وان الرقة كالنوب ، فان
استعمل النوب كثيراً يبلى . وان العمل كثيراً ، يتهراً وينحل .
ومع ذلك ، هي شأن لي ولك في بحث ما هو معد ليكون ؟ ان
جسد الناسك بلغ نهايته ، وان التوى والاثير ، تقاسمها الفجعة
والبنظة . وهذا هو نظام الوجود ..

الاخ : ما لي اراك لا تقم وزناً للحياة والموت ؟

الراهب : وأي وزن تريد ان يقام لجسم يصل الضفة بالضفة
والناس يتلافون ذهاباً وجيئة ؟ أليست الطريق كالحياة ؟ أليس
الموت كالجسر ؟ أليس الجسر كالعالم ؟ أليس العالم متفرجاً بين
جبلين ؟ لقد انتهى العالم بالنسبة الى الناسك . وغداً ينتهي عالمي
وعالمك . فكل شيء نسي في نظام المنظم . وفي هذه النسبة يجب

ان تستقر ، وعلى هذه النسبة يجب ان نوحى النفس ، فعدل الله
غير محدود ، وكم من طفل مات شبيهاً ، وكم من شيخ مات طفلاً ،
وكم من فكرة خاطئة تمت في نفسي وأرتني نظام الله نفصاً . اما
الآن ، فقد علمت ان النفس في لا في نظام الله ، وكل رذاذ ينفصل
عن مجرى الجدول يجهل انسياب الجدول ، ويجهل اتجاه البناء ...
الاخ : أنت رذاذ منفصل عن جدول العالم ، وقد انقردت
للك ؟ فلماذا انفصلت ؟

الراعي : لا تبخر بالشمس واصل الى البحر بدون هدج .
لا ترك الوصول في المسبل وامتزج بالافقيانوس الاكبر
بدون رغبة .

الاخ : وما قيسة القطرة في الاوفيانوس ؟
الراعي : قيمتها ؟ انها جزء من عظيم ! ..

صهرة !

في المساء كانت الاب وفائيل وحده في المنسك . فقد مات
الناسكان ، وتركه جبرائيل ، وسقطت العنة على الوادي فحمل
في رهبنتها تعاب اليوم ، وعواء التعالب .

انما الوحدة اشد هولاً من ازحام المدينة ، واكثر رعباً من
السجن الذي يعقبه الاعدام .

وفد تكون الليلة الاولى الطف مروراً بما سيعقبها من ليالٍ ،
لان نفس الراهب ما برحت في فوران حنينها الى الوحدة .

لقد اخاه الناسك الجديد سمعته ، ورنب المهد الذي سينام
عليه ، ثم تناول عشاءه ، من الخبز والزيتون والبصل ، ومن الخل
الممزوج بالزيت . وما شبع ، شكر الله وركع ليصلي . .

انه يتلو الصلاة التي علمها الناضري لتلاميذه . فجذبته معانيها
الى التفكير في الصلاة . ولما انطلق فكره بين الارض والسماء ،
احس ان وراء كل كلمة الب صلاة ، ووراء كل صلاة الف مدخل
للموصول الى الله . . واستمر في فكره في الانطلاق حتى بلغ
الانحطاف في استخلاص المعاني السامية من هذه النجوى الالهية .
ولما عاد الى نفسه ، تسائل قائلاً . ما هذا الجديد في صلاة قديرة ؟
لقد طالما رددت هذه الصلاة ، وطالما ملت بها معتقداً ان تكرارها
يضيء الله . اما الآن ، فقد ثبت لي ان المصلين كثيرون ، ولكن

لبس كاهن يصلي . ولو ان واحداً يصلي لاجل عذوبة الصلاة ،
ومناجاة النفس اليها ، لما احتاج الباقيون الى صلاة .

ان الصلاة الصاعدة من اعماق الروح ، هي نداء ترفعه الارض
الى السماء ، فاذا هذا النداء فرعة ملحة على باب الملكوت . وهنا
أنا ارفع هذا النداء : أبانا الذي في السموات !

اعتز الكهف بصوت الناسك ، وخيل اليه أنه يسمع صرير
باب الله يفتح . ثم تراه في النور يتفجر في حنايا الكهف ، وسمع
صوتاً يجيب : انت أبانا في السماء وفي الارض . إنه وراء كل
فكر سليم ، وامام كل نظرة بريئة . فاذا ما ذكرتم اسمي ، كان
إسمي رفيقاً لكم . واذا ما علمتم مشيئتي ، كانت مشيئتي مستورا
لاعمالكم . ولكم لم تفعلوا الا مقلدين ، لانكم ورتتم الايمان عن
آبائكم كما ورتتم الدار والعقار ، والثور والخمار .

فقال الناسك : ليتقدس اسمك ، وانك من مشيئتك .

الصوت : باسم من نتكلم ؟

الناسك : باسم جميع الالم .

الصوت : وماذا نطلب ؟

الناسك : اعطنا الخبز كل يوم ليومنا ، لانك قد الجميع .

الصوت : الخبز غذاء الجسد ، والارض تدارك الارض ، فماذا

نطلب للنفس ؟

الناسك : اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا .

الصوت : المغفرة لا تطرح لغير سبب ، إنما جزاء كل عمل

صالح ، وصالح الاعمال ، يجب ان يصكون اسمي من الخطيئة .
فكيف أغفر لكم ؟

الناسك : كما يغفر الانسان للانسان بعد الاساءة .

الصوت : انكم لم تغفروا اساءة ، ولم تناموا على ضمير . فمن
يغفر اساءة أخيه ، عليه ان يستفيد من غفرانه ، لان الغافر
لا يسيء !

الناسك : نحن ضعفاء يا أبانا ، فلا تدخلنا في التجارب .

الصوت : انكم اقوياء ، ولكن في طريق الشر فقط . والتجارب
من الشيطان الذي يزرع الشر . وانتم خائفاء الشيطان ومن يحالف
الشرير يتحول شريراً ..

الناسك : اذن نجنا من الشرير !

الصوت : النجاة قيد في عنق ، وليست جناحاً في منكب .
فاذا ما وضعت لكم قبود النجاة في اعناقكم ، صرتم من ذوي
الدب ، لا من ذوي الاجنحة . ومع ذلك ، فاني أحطت دنياءكم
بسبب النجاة ، فلم تسلكوا على سوي مهاوس الاخطار .

الناسك : وكيف ننجو يا أبانا ؟ اليس الصلاة سبيلاً من سبل
النجاة ؟ أما مجتمعنا نصلي ؟ أما ارتفعت اليك صلاة الشعوب والامم .

الصوت : ما كانت صلاتكم يوماً إلا غنمات حفظتموها للوضوء
آباءكم ومعلميكم .

الناسك : وكيف نصلي ؟

الصوت : لتجعلن صلاتكم عبير نفوسكم . بل لتجعلن صلاتكم
نداء ترفعه ارواحكم . وعندئذ تروني مقبلاً عليكم ، دون مكان

وزمان . ان ملكوتي كمهد الطفل . لا علم ولا عمق . لا بُعد
ولا قرب . لا أمس ولا غد . لا قبل ولا بعد . وما الازمنة
التي تحسبونها اجيالاً ، واحقاباً ، ودهوراً ، واباداً ، الا مقاييس
للارض فقط . اما السماء ، فانها غبطة لن تزول ، ودوام لن ينتهي .

الناسك : اني اسمع صوتك ولا اراك ، فمني اراك ؟

الصوت : انك توافي كلما شئت انت توافي . فاغض بصرك
بالشوق . وافتح بصيرتك بالايمان فتجدني في نفسك قبساً ، وفي
روحك أنفثاً واسعاً يفجر الاقباس . امسا الآن ، فاني تارك
فكرك ، لاعود اليه كلما دعوتني .

واجفل الناسك ، فسمع هديرآ في الوادي كاصداء الترابيل ،
فنهض خائفاً ، فاذا به منسلخ من غفوة وحلم ، فكان الصلاة
خدرت حواسه ، فكانت هذه الحواس تسمعه هذا الحوار الذي
اعتقده صوت الله ..

وتسائل الناسك : امدا هو الانحطاف يفرق فيه المنعزلون
زهداً وتقشفاً ؟ لقد سمعت صوت الله في غفوة عابرة . وسأراه غداً
في انماضة طارئة . ان الله ليس بعيداً عن يطلبه بشوق وایمان ..
ونام الناسك في ذلك الليل ، نوماً عميقاً ، فكان هذا الفراش
المهد بالمشمس ، سرير وثير من الفطن المندوف .

المنسك الجبار ١

ونفض في الصباح غريباً في وحدته ، ضائعاً في مسكنه ، حائراً
في ما يصنع ، متسائلاً كيف يتصرف . أقيم في هذا الكهف ام
يبحث عن سواه ؟ وانطلق في اعماق الكهف يستهدي الممرات
والدهاليز ، تفوده شجرة ترسم على طريقه ظل جسده ، فيستأنس
بهذا الظل ، ويراه رفيقه الصامت .

ان الكهف عميق ، ولكن دون منافذ للهواء والشمس ،
ودون نغرات للتور المتسافط من النجوم ، فماذا يصنع ؟ لقد غمر
في هذا الكهف على معاول ورفوش ، وغتلات ومهدات . فضلاً
عما جاء به معه من آلات النحت . فهل يستطيع ان يعدل في وضع
هذه القجوة السحيقة في احشاء الجبل ؟ وراح يلقي نظرة هندسية
على المكان . ولما لم يجد حيلة خرقه ، انتقل يبحث عن سواه .
ان وادي قنوبين غامر بهذه الكهوف ، فاي داع يجبر رفايل
ليقيم في مأوى تنقش به جرائم السل ؟

وراح يتوغل في الوادي صعوداً وانحداراً ، فاشدأ حكمة
الاخ جبرائيل الذي جاء به . فعين الماء ضرورة للمنسك . فالمنسك
ليس انتحاراً ، بل هو امانة العنقوان ، لجم الحيوان ، ومطالب
الجسد ضرورة بضرورة بقاء الروح في الجسد حتى ينتهي الاجل .
والا لكان الموت اقرب طريق للتخلص من جهاد الدنيا .

كانت هذه الافكار تمر في رأس وقائيل ، فكانت بمثابة هاد
الى حقيقة النيك وحكمة الوحدة . ألم يقل البطريرك في رسالته :
الوحدة شفاء لمرض النفوس ، وتعزية للمكآبة التي تستولي على
ارواح المفكرين ؟

وتساءل عما اذا كان مريضاً في نفسه . وراح يسترجع ايامه
مذ دخل المدرسة الاكليريكية ، حتى دعاه أبوه ، وحظر عليه
الكهنوت ، فالى دخوله على النحات ، فالى كلف زوج النحات به ،
فالى سفره الى الجنوب وتدريبه مراماً ابنة الزعيم . فكان يرى
هذه المراحل مخوفة بالاضطراب والصراع وفي مثل هذه المصارعة لا
بد من مرض النفس . والا لماذا تذهب ؟ وما معنى مجيئه الى
قنوبين ناشداً الوحدة ، طارحاً جسده في مجاهل شظف العيش ،
ونفسه في مجاهل التأملات ؟

كانت عيناه تبحث عن المنسك الجديد ، وفكره يبحث في
مرض نفسه ، واخيراً عثر على المكان المنشود ، وقد وقف امام
نبع يتدفق من قلب الصخر ، ورأى عوسجة كبرى تحبم على
فجوة كبيرة في صدر الجبل . ولما ازاح العوسجة ، ظهرت له
مغارة كبرى قسمت حجرات ، ولكل حجرة نفرة ينسكب
منها النور ، ويدخل منها الهواء ، وتبدو منها النجوم ، ولما
ارتفعت نفسه الى سكتائها ، نقل اليها امنعته ، ولفام فيها ..

أمر بار ١

خمس سنوات طواها الناسك في منسكه ، أياشر سواها .
 وخمس سنوات كافية لتشعب منه الأفكار ، ونحوها جادات
 وترجمات . فالناسك لبس صخراً محتملي برد الشتاء وحرارة
 الصيف ، بل إنسان يشعر بما يشعر كل من ضجت أوردة جسده
 بالدم الحار ..

انه يحس الألم كما يستروح النشاط . ويشعر بالكآبة ، كما يهزه
 المرح . فالجسد هو الجسد ، ان سكن القفر ، او اقام في مرابع
 الغناء ، والناسك ذو ذكريات طالما مهد لها الطريق في نفسه
 للوصول اليها ، او للبعي اليه . ولولا هذه الذكريات المنتصبة
 أمامه كالخيلة وأطراف ، لتبور جسده بصفاء روحه ، وتأثت عيناه
 بنور إيمانه ، وكان قدسياً عجيباً ، لو شاء لجعل التراب نبواً ..

وابناء القرى المجاورة أطلقوا عليه اسم القديس ، وأحاطوه
 بالخشوع ، وتحدثوا كثيراً الى زائريه عن عجائبه ، ولكنه كل
 يوم يثل هذه المبالغات تسجل الأوهام فتصير إيماناً .

قد يكون ازال البرداء بطلانه عن بعض المؤمنين . وقد
 يكون ابعاد عن الزرع حشرات التلف ، وعن الشجر فواحم
 الجذور . وقد يكون صنع اكثر من هذه وأهم ، ولكن هذه
 الظواهر ما كانت في نظره الا مشيئة الله تكافي المؤمنين ، لان

الاعاجيب في ظالبيها اكثر منها بوجدنيها ..

ومن هو محدث الاعاجيب ؟ ووقف الناسك لدى سؤاله
وقوف المعجب بحدوث الاعجوبة . وقف غريباً عن دنياه كأنه
جديد في هذه الدنيا ، أقدس هو ؟ أم الله لم يظهر له الامرة
واحدة . وذلك في حال صلته . وانكته منذ ذاك الحين ، لم
يستطع ان يصلي كسنتك الصلاة ، فكيف يرى الله ، أو يسمع
صوته ؟

أيستطيع ان يرى الله ، من كانت صلته محفوفة بالذكريات
والتحسر على ما فات من منع الجسد ؟

ليتة بادل تجلاء حباً بحب . ليتة احتضنها ولو مرة واحدة
وافرغ ما في قلبه من كبت العاطفة ، ودخان الشوق ..

بل ليتة ماشى ابنة زعيم الجنوب في رعوتها واتهاجها مسلك
الطيش ! ولكن ما معنى التحسر به وليتة بعد فوات الاوان ؟
ان اضطراب الشوق جرثومة الطهارة . فلم لم يقض على هذه

الجرثومة باطلاقها مع النظام الذي يسلك الانسان من الانسان ؟
قد يكون العالم نفياً في نفس من دخل العالم وعرف ملأه .
اما والله حرم نفسه من هذه الملافة فكيف يمكنه ان ينقي متعة
العالم التي جعلها الله ناموساً لاستمرار الوجود ؟

ان انظمة العالم وشرائعه ، وما يرافقه من مهي وتحظير ، انا
هي مولدة تبعات اكثر منها مصلحة نفوس . ولو ان التبتل يقود
الى السماء وحده ، لفتي العالم . واية حاجة الى السماء بدون العالم ؟
ليست السماء في عرف المذاهب ، جزء المستحقين في الارض ؟

كان الناسك قائماً في مهمة افكاره ، والنار تفر امامه بحدة
والنهاب ، وجذوع الشجر تتلانى في هذا الالهيب الاكثال فتسجبل
وماذا . وكانت حليكة الليل تسولي على الارحاء ، والامطار
نهطل بفزارة الطوفان . والافاق مكفهرة بالغيوم الدكن المولدة
الصواعق . واصداء الرعد تترجع في الوادي وتدخل كهفه بخيفة
رابعة ، كأنها تهدده بالموت ، قصاصاً عن افكاره الخاطئة ..

كل هذا ، وافكار الناسك متلاحمة ، متلاحقة ، وفي هذا
الانيار المسترسل الرؤى ، نلتصب نجلاء امام رفائيل ، باغراء
يخدر فيه المناعة ، ويشل منه الدفاع ، فتستيقظ غرائزه ، وتعمل
الشهوة في جسده العفيف ..

وانساب الزمهرير من التفورات الى حجرة الناسك ، حاملاً
معه البرد والرداذ ، ولكن ابن قوة غناصر الطبيعة من عناصر
الطباع ؟ ان البرد اضعف من ان يزعزع الناسك عن مكانه . ان
عينيه محدقتان الى النار ، وفكره متوغل في صميم الدنيا ، واية
قوة تطفىء النار ، وتوارى وجه الدنيا عن علق رجلاه في
ورقة الذكريات ؟

ليت للناسك ديكاً يصبح في منسكه . اذن لعرف كم هزيعاً
مر من الليل . ولكن لماذا نسي الناسك ديكاً في مثل هذه الازمنة
النفسية ؟ اليؤانس وحدته ، ام لينبهه الى انكاره سيده ، بوجوعه
بعد المشيب الى الشباب ؟

وانتفض الناسك عندما التقت كلمتا المشيب بالشباب في عرض
واحد . وهذه الانتفاضة انقطع بحرى افكاره ، فاحس البرد في

فقرات ظهره ، فادار ظهره للنار ، وصدره لجري الريح ، ولبت
هنبه دون حراك ، ودون تكبير .. وما هي دقائق قر على
هدوته حتى قصف رعد بحيف في كل اقلق ، وعاد دوي الرعد الهائل
انياراً ، زلزل الكهف من جهاته الاربع ، فاستولى الرعب على
الناسك الضعيف ، فانتصب واقفاً كالجنون ، ورفع يديه الى العلاء
مستغنياً : الهي ! ألم تفل لي يوماً ، من يغفر الاساءة لا يسي ؟
فارحمي يا الله ، ولا تجعل قبري في انقاض هذا الكهف . وإلا ما
معنى التوبة ، ولمن اعدتها اذا لم تكن مثلي ؟ وما معنى المغفرة
اذا لم تكن جزاء عن التوبة ؟ فانا تائب يا الهي فارحمي ولا تنسك
عني المغفرة ..

ولكن ما معنى هذا الاهتيال وقد ضاع صوت الناسك في
الهدير الخفيف ، فهل سقط الجبل ؟

ومرت عاصفة من الغبار في الحجرة فحملت النار من موقدها .
ونثرتها رماداً وحرراً ومصاصاً . وانصابت الشرارات بفراش الناسك
فالتهب القش ، ولما اندلعت السنة اللهب ، هرب الناسك نهباً في
اعماق الكهف ، ظاناً ان خطبته تطارده .

كان بر كض خائفاً ، وخياه بر على الجدران كبيراً ، وقد
انعكست اشعة اللهب الحمراء على كل زاوية من زوايا الكهف .
كان اللهب من الداخل ، والانيار من الخارج . والناسك
حائر في خوفه . مرعوب في هربه ، حتى خارت منه القوى فسقط
إعباء يلهث كالطريدة التي ادرستها الكلاب . وظلت حاله على
عده الحال ، حتى افتر الفجر عن جوانب الهدوء . لما تبلى الصباح ،

كانت العاصفة انتهت ، وعندئذ ظهر جليلاً ان قسماً من الكهف
انفتح سقفه ، وندحرج من فتحة صخر كبير فاستقر داخل
كقطعة من الجبل ..

ووقف الناسك ضائعاً مشدوهاً ، خائفاً حزيباً ، وقد رأى
ثلاث مآواذ اصبحت خراباً وركاماً . ايها السيول الطاغية جرفت
السفح ، وزلزلت اركان بناء الدهور . ايها الخطيئة فادت السيول ،
وفجرت الصواعق لتندره بالويل اذا لم يرعمر عن فيه في صحراء
افكاره الدنيوية ..

وخرج مطلقاً على الوادي ، فراه جليلاً : ان تجمع فيه من سيول
الجبال التي تحيط به ، وكانت مياه الوادي كالدماء ، وجندوع
الاشجار تتخبط بين انوارها المزعجة .

ووقف امام هذا المشهد ، والرعب يشد بعينه وقته اندهالاً .
والبرد يهجع جسده خفياً فيلوث وجهه ويده بالازرق المموة
بصفرة الموت .

أهي ثورة العناصر ام غضب الله ؟ خرج السؤال من فم الناسك
كالخشعة . فثبت اذناه عن صوته ، وظن ان احداً سواه يشكك
فصاح : ويلاه ! ان الخطيئة تجعل الانسان غريباً عن نفسه . وسمع
صوته غريباً ايضاً ، فراح يبلع ريقه الجاف لعل حلقه يلبث ، وقد
احس شوكاً يرافق الصوت عند الخروج .

وعاد يعيد السؤال الاول : أهي ثورة العناصر ، ام غضب
الله ؟ ثم ارنجف مستدركاً : تعالى اسم الله ، انه لا يغضب .
فالغضب من صفات البشر لانهم يخافون ، ويكذبون ، ويظلمون .

الغضب نتيجة الضعف ، وكل ظالم ضعيف . والبشر كلهم ظالم ! .
إن الله لا يغضب ، لأنه جعل لكل شيء نظاماً .

ولكن لماذا رأينا داود الشاعر ! داود المرحم ، يتحدث

كثيراً عن الغضب ؟

أكان داود جاهلاً ؟ أم أن ثقل المعصية أراه وجه ربه متجهماً

منتقماً ؟

ومضى ذلك النهار ، والناسك حائر لا يدري ما يصنع ، ولا
يقر أمراً فيه الخلاص من حيوته . ولما جاء الليل ، كانت السماء
صافية الصفحة ، ونجومها تتلألأ كأنها اغسلت بطوفان الليل الماضي .
ورفع عينيه بحرق إلى النجوم ويتساءل : أليس مضطرب هي ،
أم تغرات تنساب منها أنوار السماء ؟ أعيون نخرج الخطاة ، أم
مصابيح تنير طرق الأبرار ؟ ولما أغلق عليه الجواب ، رفع ذراعيه
إلى العلى وصاح : رب ! لكن نجومك قريباً يظهر أدران نفسي ،
ومصابيح تنير طريق نوبي . لأنك رؤوف لا تغضب ، ورحوم
لا تهلك الناصين .

ثم دخل إلى كهفه ، فاضرم النار ، وجعل من زنده محدة
لرأسه ونام حتى الصباح ..

أمام النمل

من يفرق الأيام يوماً عن يوم ؟ انها متشابهة لكأنها يوم واحد .
أو هكذا يراها الناسك في نظره ، وشعوره ، وتفكيره . ولم
بعض زيارات يقوم بها طلاب العجائب لهذا القديس ، لوأى الأيام
كلها يوماً واحداً . ومتى تشابهت الأيام ، كانت السنين متشابهة
ايضاً . ومع ذلك فالناسك لم يتدمر ، ولم يفكر في حياة ارفع .
فالحياة في عقيدته هي الحياة ، ان طويث في القصور ، او طويث
في الاكواخ . ان عبرت في الشارع ، او سجت في الصوامع ،
فكل يتذوق طعم اللذة التي في فمه ، وما دام الموت نهاية المطاف ،
فليكن اقوى من الاعواء التي يشعب طرقها الجسد !.

ان الحيز موفور لديه ، وان البقول والثمار تنامي الفصول في
جوار منسكه ، وماذا يطلب المتقشفون ، وهم في منزل ايامهم ؟
ان رقائق الرعب ، الناسك ، التائب ، سعيد في روحه ، ولم
هذه الافكار القلقة التي تعاوده في اوقات صلاته ، تبلغ من سعاده
منزلة تحسده عليها الملائكة .

وفكر يوماً في القضاء على هذه الافكار . فصنع سبعة من
حجارة الوادي لتلوي عنقه بثقلها عندما يصلي . لقد جعل حبات
سبعته من الشكل الكروي الاملس ، فتقب احجاره - ا حجاراً
حجاراً ، وجعل اسبابها خيوطاً من الشعر ، يشدها عقداً كالزرد .

ولما انتهت هذه السبعة الغربية ، وضعها قلادة في عنقه ،
وركع يصلي :

لقد أحس ثقل الجسارة يزيد عن احتمال عنقه ، ورأى ذلك
العنق يتنوي إلى صدوه ، ومع ذلك فإن هذا الالتواء لم يخفف من
جنوح افكاره ، لماذا يصنع ؟ وفكر في العمل ! في تلك الجسد .
في الجهاد القوي ! في قتل الوقت . فراح ينقب الأرض . ويغرس
الكرومة . ويسد الفجوات التي فتحها الزلزال في كهفه ، ويبني
الفواصل بين الحجيرة والحجيرة ، حتى وصل إلى هذا الصخر الضخم
الجاثم بهوله بلا حيزاً كبيراً من الحجيرة الكبيرة .

وعادت افكاره إلى النحت وقد تذكر الصخور في مختلف
الفنان الايطالي ، فإذا منع ان يعمل من هذا الصخر مثلاً للعدواء ؟
وعملت المطارق الكبرى تهيه الصخر للوسم . ورأى ان
يباشر عمله بدون مثال من الطين كما كانت يشتغل معه غالباً .
وامتدت الازاميل تكون اعضاء الجسد ، فكانت التوابل الروحية
ترافق ضربات المطرقة . وكانت ضربات المطرقة غاشي إيقاع
التوابل ، فاذا بالموسيقى تخرج من الصوت والقرقة ..

لم يدبر الناسك كم مر من الشهور على اهتمامه بهذا المثال .
وكل ما يدري ان افشاده كان يخفت أحياناً حتى ينهي ، ثم يسير
المطرقة على هواها لأن فكره يسترجع موقف الايطالي يوم كان
ينحت مثال حواء قبل الخطيئة نسيخاً عن جسد نجلاء زوجته ..
وكانت تتراعى له نجلاء بجسدها المنساق مع كمال الجمال ،
فبئس أنه عاكف على إخراج مثال العدواء ، وبئس أنه يشتغل

ويصلي ، ثم يرنل لينسى ذكرها . وينسى انه يكون جسداً
مقدساً مجللاً بالوشاح الطويل ، متلفعاً بغلالة بيضاء . فاذا بالمطرقة
تعبت بهذه التماثيل المفضنة برفيراً وارجواناً ، فتزيع هذا الكساء
الجميل ليبدو جسد عار ، تنكاد عضلاته تخرج ، وتنكاد دماؤه تنفصد .
ووقف الناسك مشدوهاً ! ماذا يصنع ؟ فهل تجسدت خطيئته
وكل ذي جسد مصيره الموت ؟ هل حان لشيطانه أن ينتحر ؟ أم
هي الشهوة تصرخ داعية الغفاف الى وليمة الخجيم ؟

ان الجسد ينادي الجسد ، وبين حنجرة المعصية واذن العاثر ،
حاجز من غبار الصخر ، فهل يستطيع هذا الغشاء المنحل من غاسك
الاجبال ، ان يحمي رجل الكهوف من اشباح القصور ؟

وعاد الناسك يكمل عمله ، فكان يزيل النوافي . عن مواضع
الجمال ، ويلطف الحواشي في معالم الفتنة ، جاعداً عقله وفنه ليجعل
من الصخر روحاً لامرأة . ولما استكمل احساسه بما رأى وصنع ،
وقف ساخراً بهذا الجسد ، وراح يكلمه :

ايه تعبان فرعون !

ايها الضالة المضللة !

ايها الافعى التي تنفث السم في الحناجر لتضع فيها انشاد
الخطيئة .

ان تشبداً لهاته السم ، لوباء يعذب الاحياء بالهذة ، ويبطل
الحياة بالآلثم ، وبوزع الامل للبكا . .

ايه تعبان فرعون ! من علمك قيادة القلوب ؟ ومن وضع في
نقرك شراً لاصطياد المتكبرين ؟ ومن اطبق كفك على

صولجان العالم ؟

تكلمي ! إنني أفهم لغة الصمت . ولو كنت إلهاً لأبيت أن
أضع فيك روحاً !

تكلمي ! ما بالك تسخرين بي بدون قهقهة ؟
لستك نظمين هكذا ، ساكنة كالذلة ، باردة كالعدم ، منتصبة
كالنجوبة .

ظلي هكذا حتى انقضاء الدهر . فعيناً تحاولين إغرائي .
إن حرارة الحياة لن تدنو منك ، لأن طريق الفراغ لم يمر في
أحشائك ، وستظلين هكذا دون حياة ، لأن نفسي لا تعبد صنماً ،
ولأنني لست إلهاً لأوقد فيك الشوق المحرق ، والموى المذيب ..
تكلمي ! وإلا فلست وحي وحدتي .

تكلمي ! إن في سكونك ضجة فلا حباتي حيرة ونسيماً .
تكلمي ! والا ، متى كان الرجل متكلاً والمرأة مصغية إليه ؟
أوهبتني الثرثرة لتصمتي ؟

أذن ظلي ساكنة لئلا العنك ، وأطرده باسم ربي ..
ماذا أرى ؟ أنها افتقارة بعيدة تكاد تشرق بين شفتيك ،
أوامهم أن ؟ أيسكون الفن إلهاً ينطق الحجارة ؟

أنا لم أجعلك من تراب ، وإنما فددتك من صخر ليكون
جسدك وقلبك متساويين ..

تكلمي ! لقد كنت صخرة غنية قذف بك الزلزال إلى هنا .
فإن ذلك الخدير الذي كنت تحوذيته في طريقك إلي ؟
ولما انتهى الناسك من هذه النجوى المحنومة بالهذيان ، وقف

ينظر بعين الواقع ، وقد انجلي غشاء الخيال عن عينيه ، فرأى امامه
تمثال نجلاء . نجلاء التي كانت حجر عثرة في سبيل طوبىها . نجلاء
العاقرة التي كانت تلهو ولداً في حبكل فن زوجها . نجلاء التي لم
تضم عبقرة المستشرق فلجات الى ثلبيته تحتمى بلطفه ووداعه ..
واحد مثل الهدوء يستولي على اضطرابه ، فقال : لقد
افرغت ماضي في هذا الصخر ، فانتصرت العفة على جموح الجسد ..
وقيته الناسك ، والهبث نورة نفسه هدوءه . فتقاربت خطوط
جبهته ، ونكشت اساريه ، فابتعد قليلاً عن التمثال ، وامسك
بالمطرقة الكبرى ، وصاح كالمجنون :

ملعونة أنت يا نجلاء ! لقد هربت منك فصنعتك ! ..

قال هذا واهوى على التمثال بمطرقة تخطبها ، فاذا اعضاء
التمثال تنهار عضواً عضواً ، وهو مندفع اندفاعاً اهوج حتى حول
جهود الشهور ركاماً من حجارة ..

ومسح الناسك عرقه بكم قفطانة ، ثم افرغ صدره تنهيداً طويلاً
واسند جسده الى الحائط لاهناً مكدوداً ..

ثم اجفل الناسك وقد جمع طلق وصاح خارج الكهف ،
فوثب مستقيماً والخيرة تشد بعينيه ليكون كله بصراً . ولما صار
خارجاً ، رأى صياداً يلنقط الحدى حماميه ، وقد مزق جسدها
برصاصه .

وصاح الناسك : ماذا جنت هذه الحمامة الاليفة يا هذا ؟

فقال الصياد : لقد ظلمتها غراباً ، ألم ترها سوداء كالغراب ؟

ومع ذلك فقد ابقيت على اختيارها البيضاء فيجب ان تشكرني .

فقال الناسك : الشكر لله وحده يا هذا ، غابة معجزة فعلت
لتال شكري ؟

الصيد : لقد اقتنصت الخطيئة التي نهكت جسدك ، لتظن
الفضيلة وحدها تجوهر نفسك .

الناسك : ومن انت لتكون سيد النفس والجسد ؟ إن القلة
لا يمكنهم ان يصلحوا ، وانت القائل الساعة ، فمن تكون ؟
الصيد : قد اكون الروح التي استمدتها داود من إلهه لتكون
إرثاً للخطاة ، فمن يدري ؟ فقد الى حقيقتك يا ناسك الله ، واحرص
على نهاية ايامك ، ان في نفسك كنزاً من البرارة ، فحذار ان تدفن
هذا الكنز في بجة الفكر الخائر ..

ولما شاء الناسك ان ينكلم ، رأى الصيد يتوارى في الغابة ،
ورأى الحمامة السوداء المزرقة ، تحترق في ريده ، وتستحيل دخاناً
بعشي الطريق التي ساكنها الصيد . وتجدد اجفال الناسك ، أيكون
امام رؤيا ؟

انتهى الصراع !. واستقر الاضطراب !. فالتاسك الهزيل
الجسد ، الضعيف الارادة ، أصبح شديداً في عزله ، منيعاً
في ضعفه .

وشعر بالبرادة تير قلبه ونفسه ، بل شعر بأنه جديد في عزله ،
والأما هذا الفراغ في تفكيره الجديد ؟ وما هذه الحشبة الرائعة
تستوي عليه إذا ما زاره الناس وحدونه ؟

أما السبعة الثقيلة ، فقد علقها فوق مهبه ، إذ ليس بحاجة اليها
بعد أن استقرت منازعه كلها في تشال محطم . وأما كرمته ،
وبقولها ، فقد صارت أكثر جنباً ، لأنه حصر اهتمامه بها ، وصار
لا يترك المعول ، حتى يحين وقت الصلاة .

أن الوقت صار قصيراً لديه ، فكيف تغير مرور الزمن ؟ ولما
شاء أن يعرف السبب ، رأى أن ساعات صراعه قد سلخت من
أمامه ، ولم يبق سوى العمل والصلاة .

وهمس الناسك في نفسه : ما لئن الأيام التي تتجسد عملاً مفيداً .
وما أكبر جريرة من يحول أمامه لامبت والخطيئة .

وتذكر حماميه ، متأسفاً على السوداء منها . أما البيضاء ،
فقد لازمته بعد رفيقها ولكن بدون هديل .

وتفكر أن هذه الحمامة يوماً . قرأها كتيبة حتى الانكماش .

ورأى لمعان ريشها ، يكاد يكون جافاً كالتراب ، فماذا دهانها ؟
أليكون الفراق أغرق زهرها في هذه الكتابة ؟ أم هي الالفه
الزوجية انقطعت اسبابها بين الطائرين ؟ أنكون الوحدة القاسية
عكست ظل الموت على وداعة هذا الطائر الجليل ، أم هو العنور
على الحقيقة رسم الوزانة في سمات الحياة بعد الفراق ؟

ومشى الناسك رجوعاً في موكب افكاره . فاذا به في اليوم
الذي دخلت هاتان الحمامتان كهفه فاجتمعا به من صفع الزمهرير .
وتذكر كيف استدرجها اليه ، بان فرك رغيها باصبع بين كفيه ،
ولثوه على التراب ونواصي . ولما عباد ، وجد الفئات امسى في
جوف الطائرين ، فكانت الالفه .

ونسأل حائراً : ما بالها لم يبنيا عشاً ؟ أليكونان غير زوجين ؟
أم انها مبتلان شأن سكان هذه الكهوف ؟ وتذكر كلمة الصياد
في رؤياه : « لقد اقتنصت الخطيئة التي تهتك جسدك ، لنظا
الفضيلة وحدها تجوهر نفسك » ، فهل تكون تلك السوداء ، خطيئته
التي لازمت صلواته واعماله وافكاره ؟ أم هي رؤيا تراءت له من
نقل الوسواس ؟

وراح يستجني مواقع السوداء من الحمامتين . انها كانت اكثر
الفه من البيضاء . كانت تخط على كتفه وتاكل من يده ، كانت
تعبث بلحيته البيضاء نقداً بنقارها . كانت تنام قرب فراشه وتهدل
مبكرة لتوقظه . بل كانت تلازمه كأنها جزء من نفسه .
وتراءت له كأنها لم تمت ، انها سوداء بالغة الخلقة . ولمعان
ريشها بنألق كالنجوم . انها مطوقة بالوان الشمس المشكورة على

الرضا . إنها اسمى من الخيام فما اجملها ! .

وهذات نفس الناسك بعد هذه التصورات ، واضطراب الى خلاص هذه النفس ، فزالت افكاره القلقة بزوال السوداء من حواسه ، واذا ما طرأ عليه فكر غابر ، فيمر كاللهات على الزجاج ، ولا يلبث ان يضحك ..

وصاح الناسك بغبطة وثقة واثقان : كل شيء باطل الا الله . ومن شاء ان يبلغ الله ، فليتجرد من الجسد ..

الجسد نفق النفس ، وما اكثر من يضلون في انفاقهم ويضلون . هذه هي الافكار التي كانت تمر في هدوء وفائيل .

فالنظام استتب في كفه ، والهدوء اشرق في نفسه ، حتى ترامت له حياة البشر كطرفهم ، فحيثما اندفعت اقدامهم كانت لهم الطريق . ولصكن هناك فرقاً بين ارت يسلك البشر على الترهات ، او ان تقودهم خطاهم الى الجادات الفساح . ورفائيل كان يسير بين المعبرين . اما وقد وجد طريقه الارحب والاسع ، فقد ارتاح الى ما بقي له من الحياة .

وارتجت في نفسه كلمة ما بقي . فهل تكون الحياة معدودة على البشر ؟ لا ! ليس هناك من عد او حساب . ان عمر الانسان كخيط الحرير في فم الدودة . فقد ينقطع هذا الخيط في بداية انسلاله ، الى الشرفة ، وقد يستمر حتى نصفها ، وقد ينتهي كراً بجمعه ليكون كفناً للدودة .. وليس من سبب لتحولات الخيط ، الا الملائمة التي ترافق الزمان والمكان ، في حياة الدودة ونموها .. وراقه هذا التشبيه . فاقبض في اعماقه مكانه عثر على سر

الوجود . ولما تألفت هذه الفكرة في نفسه ، تنهد وقال : مسكين
الإنسان إذا كان هذا شأنه . انه يقيم الدنيا ويقعدها لينسج كفته .
ولكن هيئات ان يوفق بالسلال خيط امانيه . والاغرب ، ان
نلثي الناس يموتون دون اكفان ، لان خيوطهم تنقطع قبل بلوغها
نكوبن الشرقة ..

وتساءل : ما الفرق بين من يقضي وشرقة في نفسه ، ومن
يخرج مجتهداً من عمله ؟ . فكانت الجواب : جمال التحول وبلوغ
الطيران ..

امرأة في المنك ١

لعرف الناسك بأنه لا يستقبل الزائرين . فكثيراً ما كانت
تهرب منهم ويختفي في اعماق الكهف . أما النساء ، فكان يحظر
عليهن مرآه . ولما سئل مرة عن هربه من الزائرين ، قال : لقد
اعتدت ان افول «للدنيا» لا ، فلا حاجة الى تغيير عادي .

وجاءته يوماً امرأة . وقبل ان يزجرها او يهرب منها ، رأها
تجثو لديه ضارعة : أشفق علي يا قديس الله ! أنا امرأة لوت الخطيئة
عنفها ، فهرب منها الموت ، لئلا تستند اليه .

فلا تهرب مني انت ! ارفع يدك فوق رأسي ، فتخرج مني
شياطين الماضي .

فاشاح الناسك بوجهه عنها ، وتكلم مُلبساً صوته رغبة اخذ
والتبكي : لم تقعي على منجذك ! ان الذي كان يقتل الشياطين
بسم الافاعي مات بسلاحه . فقولي لشياطينك انت بسم النساء
افتك من سم الافاعي ، فتهرب منك الشياطين . انوار من
امامي ! اغربي ! لقد هدمت السور مستودع الخطايا في نفسي ،
فلا مكان لك في عزاتي . أنكونين الجماع السوداء التي قتلها الصياد ،
وقد عدت ابي بحسد امرأة ؟

فاجابت وهي تحبو اليه زحفاً على ركبتيها : أنا مؤمنة يا

أبت . وانت ادري بالايان الخوف بالخطايا . أبت الخطايا
مقباس الايمان ؟

فالمؤمنون وحدهم يشعرون بشقل المعاصي . أما كنت
ملي يوماً ؟

لقد اخبرني ابناء جوارك ، انك صنعت سبعة من حجارة
الوادى فما هي حاجتك الى هذه السبعة لولا الايمان ؟

ان الخطيئة واحدة في النفوس كلها يا ابنت . والمؤمنون واحد
ايضاً . فحيث يكون الايمان خصباً بخلاً ، هناك تنبت بذور
الخطيئة . وامري ليس هناك مقباس للتقوى كالشعور بالخطيئة .
وهذه هي قاعدة معرفة النفس المعدة للسماء ..

فارتجف الناسك وقال : أجبني تكرزين باسم الخطيئة ؟ أجبني
تقوين ان الخطيئة تجذب الايمان ؟

قالت : جئت لاقول ، انت الادوان لا تبدو على الاواب
الوسخة .

قال : تواري قبل ان العنك باسم ربي !
قالت : اللعنة لا تخرج من الفم الذي نعتت الصلاة حواشي .

والا متى كان العطر يتحول فذارة في فارورته ؟
قال : يبدو لي انك الدنيا ، وقد تجسدت لاني اكرهك !

قالت : لسنا نجبرين في ما نحب وما نكره .
قال : ولسنا نجبرين على قبول ما نرفض . فاغربي ! تواري !

لئلا تلعن الارض !
كانت المرأة لم تزل جاثية ، ولمسا زجرها بثل هذه القضية

العاصفة ، نهضت من جثوثها بالجبال ، فالتفت سافهاها سافاً يساق ،
فسقطت على الارض تتمرغ عجزاً واعياء ، دون ان تطلب نجدة
الناسك اغارب الى الكهف ..

في الغد ، جاء الناسك زائر ، واخبره ، ان امرأة قتيلاً وجدت
في الغابة المجاورة قنوبين . وقد اهتمت السلطة بان يثبت الجنود
في القرى لتقبض على القاتل .

فقال الناسك : لقد هربت من القتل والقاتلين ، فلا تحملوا
الي اخبار الشر .

فقال المحبر : أنت قديس يا ابي ، ولا شك في انك تعرف
القاتل اذا ما نظرت بصفاء نفسك .

فقال الناسك : قد اكون انا القاتل ، وقد تكون انت ،
من يدري ؟ ان الشر هات الخير . فحيث ينهب الخير من البحث
عن الفضائل الضائعة ، فهناك يكثف الهلاك ويصير ضباباً اسود .
فعلى المصلحين ان يتركوا الصالحين في دنياهم . عليهم ان
يتركوا الفضائل طلبتة في مناهاتها . فالفضائل ككل شيء يكافحه
الناس ، فلا بد من انقراض الفضيلة اذا ظهر البشر على الملأ
وراءها .. اقول هذا وقد ترامت لي المرأة القاتل فضيلة منتشرة ،
لانها لم تترك طليقة ..

فقال المحبر : ولكنها بالغة الجراح ، فكأنها سقطت من اعلى
مرتفع .

الناسك : ألم أقل لك انها منتشرة ؟ وما معنى الانتعاش اذا لم
يكن سقوطاً من اعلى الى ادنى ؟ لقد كانت هذه المرأة خاطئة ،

وقد ندمت على خطاياها ، ولما لم تجد من يبارك فيها الفداية ،
ندمت على ندامتها فانتحرت .
وقال المخبر : اذن ، فهي هالكة لا محالة ..
الناسك : لا يهلك النادمون مرتين . . فكفاهم هلاكاً ، انها
هلكت في حياتها ..

من هي ؟

بعد اسبوع ، اقبل جندي يرجو . مقابلة الناسك . فاستقبله
رفائيل مستقبلاً بدون كلام ، فقال الجندي : لقد عثرنا على امرأة
ماتة في جوارك بابت ، ولما نحرينا امرها ، عرفنا انها وهويتها ،
الناسك : واي شأن لي بالحادث ؟

الجندي : لك في طيات ثوبها رسالة مخومة الظرف فاليكها .
اخذ الناسك الرسالة ، فاحس فشعريرة نشي في اوصاله ،
ولكنه لم يتصكلم . ولما ذهب الجندي ، جلس الناسك في ظل
معشاته وقرأ على الظرف : « الى الناسك القديس اراغب ورفائيل .
الذي كان طوبيا الحلبي . »

وفض الرسالة بهدوء وخشوع ، كأنه يفتح دفتي كتاب مقدس ،
وقرأ التوقيع : مرام .

وتساءل : مرام غروسة طوبيا الحلبي ؟ ابنة ظافر بك درويش ؟
العائرة في نعيم حياتها ؟ فمن دفا على طوبيا وقد انسحق تنكراً
عن دهره وحياته ؟ من قال لها ان هذا الشبح الاسود الخزيل كان
يوماً ملاك احلامها ؟

وناهت نظراته في الرسالة ، فاحس غشاوة في بصره تربه الكلمات
مطموسة . بل تربه الكلمات متوافضة كأنها تحاول التووب اليه
دون ان يقرأها .

وبعد ان فرك عينيه بكفه مراراً ، استشارت عبادة ، وقرأت :
ابن القديس .

ان حساً وعشرين سنة لم نستطع ان نسيني ذلك العرس
الكبير ، الذي كان طوبيا الحلبي سيداً الموكب فيه . وكيف
أنسى ان التي أعلنت مداني بين الوف الناس ؟

نعم ، كنت حبلى ، وكنت زانية ، وكنت مخادعة .
والكني لم اكن كاذبة وقد رأيت جسدي متفلاً بوشاح الظهور . وما
كنت اصحو من اغوائي ، وأرى اسارى والذي تحفر للووب ،
حتى صحت به بجرأة وعنف بانسين : اقلني ! مزق جسدي !
اطرح اشلافي للكلاب ! ولكن تق بأن طوبيا بريء من دنسي .
وهذر الوالد الجريح في غفوانه ، هذر حامي الاعراض من
التعرض ، وقال : من يكون الثعلب المدنس رعية العرب ؟

فقلت : دانيال ، ذلك الذي اطلقت له الحرية في دارك يا
زعيم اوجي . بدنيال ! وكان يرتجف كالغصن الوحيد في شجرة
اجناحتها العاصفة وكان لا يرتجفه صوت الحشب المتقلقل في كوخ
مهجور . .

وصاح به الزعيم ! ماذا فعلت ؟ فتعلم الثعلب ، وتسايفطت
الكلمات من فمه ، كالتراب المنهار من سقف بدا فيه التصدع ! ولما
نظرت اليه ، وجدته فيسحاً كالقرد . فوقفت متبادلة ، وصغته بيد
مashedة ، وسقطت على الارض لعياء .

وكان صفعتي بثت فيه الجراءة ، وصقلت فيه الكلام ، فقال :
فعلت كما يجب ان يفعل . كل جائع تراءت له مرة مباحة

للقاطنين . وانت يا زعيم الجنوب ، لم تعرف ان تحافظ على ثمرتك
الوحيدة فقطفها الجائع ..

وكان الشهيد المرواح . وكانت قبضة ظافر بك درويش الحديدية
تشد الى حناق دانيال ، وتعضر حياته ، فتخرج هذه الحياة من
بروز عينيه ، ومباغنوناً .

وسقط الجائع يتلظى مرة الاثم . ولما مددت عنقي لقبضة الذي
المحتاج ، تجاهلني وتوارى . وبعد عشر دقائق ، دوى الرصاص في
غرفة الزعيم القاتل . ولما تراكمض الناس ، كان الدم يتزف من
صدغه اليسر ، وعيناه غائتان في غيبوبة الموت ..

ان الجماعير التي احتفلت بالعرس ، هي نفسها الجماعير التي
احتفلت بالدفن . اما انا ، فقد سبحت نفسي في غرفة مظلمة ، هرباً
من نظرات الشامتين ، وقساة القلوب ..

وبدت المأساة يا ابنت . فابناء الجنوب تنكروا لي . والسلطة
احباطني بالاستنكار ، وبين العنفيين الاجتماعي والقانوني ، ذابت
الثروة التي رفعت الزعيم ، ووسعت نطاق الزعامة ..

في هذا الوقت ، أصبحت أمماً لطفل فقير . ولكن ما معنى
الغنى والفقر تجاه بسمة طفل عذبة ؟ لقد سميت ' ولدي طوبيا
ليكون بريئاً . وتزحنت عن منطقتي لاطرق ابواب المحسنين .
و كنت دائماً افكر في طوبيا الخالي . وافكر في عنوفي التي افقدتني
القدوس في غربه ..

لقد بحثت كثيراً عن طوبيا . فقبل لي صار راهباً . فرحت
احوف حول الاديرة لاراه ولكنني لم اراه . ومضى الزمن

واصبحت مرام في كهولة خائرة . فخصرت جماعها ، كما خصرت
مر كثيرها وجوهرها ، ولكنها رجحت شاباً اسمه طوبيا .
وتركت طوبيا الشاب لايبحث عن طوبيا الشيخ ، فعرفت انه
هو القديس الذي نوتر مغاور قنويين بقداسته ، فجئت اليه ، لأنفض
خطاياي بين يديه ، ولما وجدته يخشى على جراح نفسه من سم
الافاعي ، الخفيت عنه نفسي لئلا يحسني افعى ، وفكرت في
الانتحار ...

قد تستعبد بالله من كلمة الانتحار . وقد أتواى لك هالكة
خاتمة الحياتين . ولكن ليس كل انتحار هلاكاً يا قديس الله ،
وقد عجزت نفسي عن مواصلة طريق الندامة ..
فوداعاً يا قديس الله ! وداعاً ايها الجسد المتجوهر روحاً ، على
ان تصلي لاجل مرام

سقطت الرسالة من يد الناسك ، وقد تراخت اصابعه عنها ،
وشعر بان جسده يتراخي كأنه ينحل . فنهض جاهدآ نفسه لئلا
ينهار . واتخذ معولاً وراح يشكش بقوله .
كان المعول في يدي الناسك يرتفع مرتجفاً . ويبسط كاهباً ،
وهيأت ان يحدث في الارض جرحاً . ان في زندي رفائيل ضعفاً
لم يشعر به قبل ، فماذا دهاه ؟ ووقف لاعثاً . وقف يحفف عرق
الاجهاد عن وجهه ، ويستعيد انشاهد التي صورتها الرسالة ، فيذعر .
مسكين دانيال ، لقد ظن ان حرب طوبيا من الجنوب يخني
له الخو . لقد ضحى بنوبه الرهباني في سبيل امياله الدنسة ، ولكنه

لم يسلم ، لقد خرجت حياته من بروز عينيه وعياً فموتاً . مسا
أصدق تعبيراً . انه تعبير الاسفاق على القاتل والمقتول معاً .
ولكن من يعرف القاتل ويفرقه عن المقتول ؟

قال هذا ورمى بالمعول ، وراح يبحث عن الرسالة حيث وماها
من يده . ولما التقطها ، عركها بين اصابعه يهدوه ، كأنه يتردد
بين ان يعيد قراءتها ، أو يرقها . ولما تلاشت الرسالة عركاً ،
مزقها وطرح اجزائها في الهواء .

ونظارت هذه الاجزاء كالقراشات البيضاء ، تنهادي فوق
الارض لتسقط حيث تنتهي نهائياً ، والناسك فأنحأ فاه بوجود
وذهول ورعب . .

لم لم يحتفظ بالرسالة ؟ وماذا يقول للسلطة اذا ما سأله عن
محتوياتها ؟ أيقول لها انتحرت ؟ وكيف يشهد قوله ؟ ان الصدق
ما كان يوماً من مستندات السلطة لاقرار الحكم . ان بهلوان
التحقيق يرفض على مئة حبل قبل ان تستقر قدماه على الارض .
ولا سيما في التحري عن الجرائم . فهل يأتي البهلوان الى الوادي
المقدس بدون حبال للرقص ؟ .

وانطلقت عيناه تبحث عن الاجزاء . فتراءت له قطعة عالققة
بأذيال غوسجة . فجذبها بشوق ولفقة . وقرأ ما اصابها من كلمات ،
فاذا هناك : أصبحت أمّاً لطفل فقير . .

وفكر في مرام أمّ . فكر فيها تذيب حنانها بذل الفقر ،
وتخفي دها بعبطة الامومة ! وتراءت له مرام حبيبة لعوباً ، بريئة
الحركات ، مدالة في دار ظافر بك درويش . وتراءت له ينيمة نجر

وراءها المعصية كأنها أنان ربطت الى عجلة . وترامت له تلتقط دماء
نفسها من عينيها في ساعات الندامة ونسيجي . فقال : لا ! لست
هالكة ! ان من يغتسل بدموعه ، اكثر طهراً ممن يغتسل بالعطر .
فأرحمها يا الله ..

وارتاحت نفس الناسك الى هذه النهاية . وهكذا طمست
الطباعات ماضيه في نفسه ، كما طمست رؤاه . وهكذا امسى خلباً
ناعم الضمير ، هادي التفكير ، كثير التأمل ..

ومضت ايام لم يجد جديداً في حياته ، لبيف هذا الجديد الى
مذكراته . ولولا هذا التحول الجديد الذي يشعر به في نفسه ،
لظن أنه جديد في الوجود .. فقد انقطع عن ماضيه . ولها عن
حاضره . وزهد بمستقبله . ولم يبق لديه سوى هذا التحول الذي
يراه جديداً .

لقد صار يشعر بشمية للأكل ، وبشاط في السير . وبسعادة
في التأمل . وبغبطة في الصلاة . وهكذا فقد اتحد بوحده اتحاداً
كاملاً حتى الامتزاج بالارض والافق وما بينهما من اثر .

انه يحس نفسه هيمنة في كل غصن ، وصدى في كل فجوة ،
ونورا على كل دوحة ، وحنناً في كل جماد . حتى صار يتمنى لو
يستطيع ترويض الوحوش لتألف منسكه ، واستدراج الطيور
لتحط على كتفيه ..

فالرجل بلغ الصفاء حتى صار شفافاً . وعبثاً حرك هذه الحياة
الجديدة بحثاً وذكرى . فلم يجد في بحريتها سوى الضياء ينعكس
على صفتها . وينفذ الى اعماقها . ان النهر الجارف الهادر قد استقر

في نهايته ، فماذا يعنيه من الطريق ؟ إذن فليطبق الكتاب . وليؤمن
بان الكمال ليس انعم من هذه الحياة النحلة من قيود الفكر الحاربة
من سجن العالم .

اللهم امسح بيسينك لوح ماضيه . وان شئت فامسحود النعمة
التي خرجت من فيك ، فقد عادت ثقة كما تفختها .

اللهم اقبل توبته ، واحسب آلام ايامه مطهراً لنفسه ، فقد
كان جسده محرقاً ندامته ، حتى لم يبقَ حول نفسه رماذ .

اللهم اغفر لنجلا ، واصفح عن مرام ، فالابدية مصدر
الارواح ومرجعها ، وانت ابو الارواح وامها ، منذ الازل ،
والى الابد ، وليس من نهاية لمن لا بداية له .

انتهت هذه الذكريات ، عام ١٩١٤ في العاشر من نيسان ،
بقلم الفقير الى مغفرة الله ، الاب طوبيا الحابي ..

مجموع :

في الثلاثين من ايلول عام ١٩٣٩ ، كنت في طريقي الى
قنوبين ، احمل الكتاب الذي اخذته من الناسك القديس ، وقد
عاهدته على ارجاعه بعد شهر .

كانت رحلتي شاقة ، لاني اردتها مشياً . لقد اوصلتني السيارة
الى قرية ابطو ، ومن هنالك استدلت على الطريق المؤدي الى
قزحيا ، وقد شئت ان ازور القبر الذي دفنت فيه نجلاء .

كنت وحيداً من ابطو الى قزحيا . وكان الوقت فجراً ،
والصبح يفتو عن غشاء الابدنة السحيقة ، فارى الاشجار كالاشباح ،
واحس هذه الاشباح ارواحاً تنهذى ، كأنها توحب بكل زائر
دير « كنز الحياة »

الطريق يعلو ثم ينقيم . ثم ينحدر ليعلو . وافكاري منصرفه
الى حياة الرهبان المرهقة ، مرافقة الصراخ الرهيب الذي قطع
مراحل الاب وفائيل ، بقوة وثبات ، وايمان وصلابة . وقد بدا
لي ان كل راهب هو وفائيل ، فاكبرت الجهاد في كل راهب ،
وغبطت ذوي الثبات .

احللت على الدير والشمس تذهب الغمم وافنائيل الاشجار ،
فظننت نفسي ضائعاً عن المزار المقدس ، وقد بدا امامي صرح

شامخ في ذلك المنفرج الخاشع ، مزخرف بالاطراف والافاريز ،
موتة النوافذ والشرفات بالالوان الزاهية .

وقبل ان ادخل بوابة الدير الكبرى ، التقيت راهباً متين
المبكل ، عامر البنية ، عريض الكتفين . يقود يسراه كبشاً ،
ويحمل في يماه خنجرأ عريض الشفرة سنين الحد . فالتقيت عليه
السلام ، فرد بفتور وعيناه الى الكبش المستسلم ، كأنه يحترق
بنورهما هذا الصوف الملبد ، ليصل الى اللحم والشحم ، والشهي
بما احتوى عليه حشاه من قلب وطحال ، وكليتين مغلفتين بالدهن
وكاد الراهب يبتازني ، وكأنني لست غريباً قادماً ليزور
هذه المقدس . ولستوقفته برجاء : ايت ؟ أيسكاني مقابلة رئيس
الدير ؟ فاجاب وقد اولاني ظهره : الرئيس مشغول في حجرته ،
فانتظر خروجه .

قلت : وابن انتظر ، أليس من مكان جلوس الغرباء ؟

فقال دون ان يقف : كل مكان معد لجنوس الغرباء ، فتفضل .

قال هذا وأشار بيده الى صخر قريب من البوابة .

وقفت حائراً امسح عرقي وارقب ما اشرف عليه من اعماق .

وقبل ان اخرج من حيرتي ، افبل راهباً قن وبيده كتاب يناو

فيه صلاة الصباح . وأشار آني ، اطبق كتابه ، ورسم الصليب على

صدره ، وتقدم مني برحب بي ، وصدق لهجته ، ينوار وجهه الجميل :

وكرر الترحاب : اهلاً وسهلاً ، مما بالك متورداً لا تدخل ، ان

الدير بيت كل زائر . فتفضل .

قال هذا وأشار بيده ، ولكن ليس إلى الصخر ، بل إلى المدخل لادخل قبله .

دخلت ، فإذا بي أمام نافورة مياه ، تحيط بها أحواض الزهر من كل جهة ، وقد صفت الكراسي بجانب الأحواض ، أمام النافورة اثدفةقة بعذب المياه ..

وكان الراهب لحظ عليّ بعض الاستغراب فقال : الحياة للجميع يا ابني ، وليس كثيراً على الراهب أن يرفه عن نفسه بزيينة الحقول ..

لم أحب ، وأنا تأملت نظراتي في ارتفاع البناء ، فرحت لحسب طوابقه سائداً رأسي من وراء ، بكفي ..

وفيما كنت أرقب دقة البناء ، وسهو الارتفاع ، همس الراهب في أذني قائلاً : جاء الرئيس . والتفت فإذا بي أمام راهب وقور ، وخط الشيب لحينه ، وشرعت السنون تغضن وجهه ، ولولا هذه العلامات التي تجلّل الكهولة ، لظننته شاباً في مشهّل غصونه ..

رحب بي الرئيس باهتمام ، ومد لي يده مصافحاً بلهفة ، ثم تكلم : أراك ندقق كثيراً في هندسة الدير ، وأراك تحديق كثيراً إلى كل ما حولك ، فأرجو أن تكون معجباً لا ناقد ، وقد طامنا رددنا على التقدير مبررات الحال .

فقلت : وما دام الحال مبررات فلا حاجة إلى البحث ، على أي الشمس أمراً هاماً ، فهل أزال هذا الأمر ؟

فاجاب الرئيس : إن شئت إن قطاع فسل ما يستطيع .

قلت : أنت طبعوت أورشادي الى قبر نجلاء ؟ نجلاء تلك التي ماتت في هذا الدير يوم كان الناسك رفائيل راهباً شاباً ..

ضغط الرئيس جبهته بكفه ، وتكلمت اصابعه على صدغيه ، كأنه اراد ان يعصر رأسه ليتذكر ، ثم قال : إنك تحدثني عن نصف قرن تقريباً ، يومئذ كنت غلاماً في ازمة قريتي . ولكن تاريخ الدير والرواة من الرهبان الشيوخ ، يحفظون هذه القصة ويروونها في كل مناسبة . ولعل الاخ جيروانييل ، لم يهذه الحوادث لانه كان معاصراً العهد ..

قال هذا وكلم الراهب الذي استقباني : اين الاخ جيروانييل ؟ فاده ! ..

قلت : الاخ جيروانييل ذاك الذي قاد الناسك الى قنوبين ؟ فانبطت اساور الرئيس استغراباً ، وقال : انه لمو ، وكيف عرفت ذلك ؟

ثم جلس الرئيس ودعاني للجلوس امام نافورة المياه ، الموزعة رشاشاً على الازهار وذاداً شفافاً . ثم مد يده يعيث بزهرة « دوار الشمس » وقال : انعرف خصائص هذه الزهرة ؟

قلت : وهل لها من خصائص غير انها تتبع وجه الشمس ؟ قال : اني اراها عابدة تصلي ، امام معبودها . ألا تحب الصلاة ؟

قلت : الصلاة تهيدة الروح يا ابي ، بيد انت المصلين كثيرين ، ولكن ليس كلهم يصلي .

قال : انت في كلامك عمقاً ، أسلام الساعة هذا ، ام نتيجة تفكير سابق ؟

قلت : هذا كلام مأثور عن ناسك قنوبين الذي نحن بصدده ، وقد جئت اليوم لازور قبر المرأة التي جوهرت نفسه ، وغربت أيامه ، ففصلت حنطته عن زوائنه .

قال : واي شأن لك بالقبر ؟

قلت : لأخذ حنطة تراب من ترابه ، وأهديها إلى الناسك .

قال : ومنى عرفت الناسك ؟

قلت : عرفته منذ أربعين يوماً ، وقد اعطاني مذكراته لأطاعها ، واني مرجعها الساعة .

قال : وما عساها تحمل هذه المذكرات ؟ هل غير تأملات منهجدة ، تعرضها الوحدة في افكار كل حبيس ؟ فهذا شأن من يترك دنيا الناس ، ويتخذ العزلة دنياه .

قلت : قد تكون هكذا يا ابن ، ولكن مجاهد الحياة لا يلبسها إلا الذين تحترق بفضلتهم في ظلام آلامهم ، فتتوهج طرقهم . وناسك قنوبين من أولئك الذين يسرون على وجه البقعة المحترقة . ناسك قنوبين إناء شفاف لمن يرد رأي اعمال الأبرار .

وصل الشيخ جبرائيل مستنداً إلى عصاه ، وقد بلغت منه الشيخوخة مبلغاً بعيد الخزال ، فاندفع رأسه إلى امامه بدافع ظهره المنقوس . إمام حينه الشامية المسترسلة بعيدة عن صدره ، فتكأ قائمي عداة ، وقد حافظها التهاقفاً .

وتكلم هذا الشيخ وهو يحسول تهدة رجفات جسده : من

يريدني ؟ اني عجوز ليس لارادة الآمرة يد في تسخير ما بقي لي
من الأيام . ولو اني ارغب في اتباع الاوامر ، لكنت الآن
راهباً ..

فانتهره الرئيس بخشونة المهين : كفى ثروة ! انك امام زائر
كريم يود ان يتحدث اليك فاجلس ، ونكلم كشيوخ انجيته
السنون .

جلس الانيق متفخفاً على نفسه ، وصدق اليه بعينين مظللتين ،
بكثافة حاجبيه ، ثم قال : أنت الزائر الكريم ؟ فهاذا تريد ؟
قلت : ماذا تعرف عن امرأة ماتت في هذا الدبر ، ثم دفنت
في غابته ؟

فضحك العجوز وقال : إنك تكلمني بالالغاز بأسبدي ، فهاذا
تعرف انت عن نساء كثيرات متن في كل مكان ، ودفن في
الأرض ؟ فهاذا كنت من رجال التحري ، فابحث عن سواي
ونحدث اليه لا في شيخ هرم كما ترى ..

قلت : عذراً ، لقد أسأت استفهاماً ، ألا تذكر نجلاء ؟ عمة
خمسین عاماً الى النوراء . نجلاء المرأة التي جيء بها في موكب من
الفرسان ، لتشفى في كنك هذا المزار المقدس من جنوبها . ولما
شفيت ، ماتت . ثم الا تذكر الراهب وفابيل ؟ ذلك الراهب
الذي رافقته الى قنوبين ، وحملت له زاده ومعدات نسكه ؟
تذكر يا حضرة الانيق ، تذكر ! ..

صق الشيخ حنيئة ، ثم اجعل صانحة : بلى ! بلى ! تذكرت .
نجلاء هاتيك المرأة التي شملت رأس الراهب وفابيل . تذكرتها .

كانت عزيزة مكفهرة ، وكانت ذكية لينة موزونة التعبير . إلى ما زلت اعرف قبرها . انه تحت المقصة الكبرى في الغابة ولكن قبرها خال من العظام ، لان شقيقها نقل رفاتنا بعد مرور عام على موتها .

مسكنة نجلاء ، لقد كانت سبعة الميعان ككل امرأة تحترق بلهب عواطفها ، لذلك فانها جنت وماتت في سبيل غرامها . وما اكثر الضحايا في النساء باسبدي . انهن اكثر ممن الفراشات المحترقات حول المصابيح . والحقيقة باسبدي ، ان رفايل كانت مصباحاً منافقاً بالغة والفضيلة . ولو لم يقتل الجيس العجوز في انكساف ليجل محله ، لكان باراً وفديساً .

ملجينة : ما كان قاتلاً با حضرة الاخ . انيت للسب ؟ انيت انه مريض الذين لا يعرفون قيمة لنظام الحياة ؟ .

وقبل ان يجيب الاخ ، وصل فرحيا ، خادم الناسك ، وهو ياهت نعباً واجهاداً . وبشكل متلعججاً مرعوباً ، قال : يا ابائي . ان القديس في نزاع الموت ، وهو يطلب كاعسب الاعتراف . والسرعة السرعة . .

لم يبد على الرئيس اي اهتمام ، وانما سأل فرحيا : انك مريضاً يا فرحيا ؟ فاجاب فرحيا : لم ادر يا ابائي لم ادر . لقد جئت في هذا الصباح شافي في كل اسبوع ، فوجدته ثقلاً وصدوره يعلو وينخفض ، وعيناه ضالعتان تمودان الى كل شيء ولا تستقران على شيء . ولما رآني ، رفع رأسه قليلاً وقال : البركة توافق خطواتك يا فرحيا ، فلان ما انيت السادة إلا بطام الله ، فادع لي راعياً من الصمد

الاديرة ، فقد حارت نهاية حياتي في بداية موافى ..

لم امسح عرقى بالاناء ، بل صعدت فوراً الى دير مارى البشاع ،
واخبرت الرئيس ، فسخر بي قائلاً : خير لك ان تذهب الى
فرحيا يا فرحيا ، لان ديرنا لا مكان فيه للمجانين ..

وما كاد فرحيا ينهي حديثه ، حتى نحس الرئيس ، ونهض
قائلاً لي : انا رفيقك الى قنوبين ، فهيا بنا . ثم دعا قبطم الدير ،
وحلب منه بقلين قنوبين ، فركبنا ، ومشى فرحيا المضطرب في
ركابنا ، وقد اتسا في الثبا المقاجي ، قبر نجلاء . فلم ازره ، ولم
احمل عن جنبااته حفنة تراب .

ما أحقر التراب !

ها نحن في قنوبين ! في هيكل الازمنة ! في التلم البدئي الذي
بذرت فيه بذور الايمان ، فانبت الفضائل .

منذ اربعين يوماً ، كنت هنا ، وكانت الناسك القديس ذا
بشاط وقوة قان هو الآن ؟

ودخلنا الكهف ، ومشيت امام الرئيس اشق طريق الظلام .
ولما اطلعنا على الناسك ، كانت رغبة بيضاء تحقق بين شفتيه ، فونبت
اليه ونبوا ، ومسحت هذه الرغبة بنديلي ، وجروته الماء شيئاً
فتيحاً .

انفتحت عيناه بانساع ، وظهرت فيها مسافات الصراع العنيف ،
والكنه لم يتكلم .

كانت الحمامة البيضاء رابضة على وفد في الحائط ، ورشها
منتش كأنها خائفة هالعة . ولما ارتفعت يد رئيس قزحيا فوق
رأس الناسك تبارك القواب الخاضع الروح ، لتخرج الروح بسلام ،
أجفلت الحمامة وكادت تطير ، فصاح قزحيا : حنه يا انا حنه ..

وتحرك رأس القديس مستنهماً ، ثم ارتفع عن وسادته بالتحفاف
والهتوت شفتاه ، فاصغيت . فادابه بهمس : وانتهت المعركة !
وانت الى كذاوك ، ان الخطيئة القل من الجبل . انتهت المعركة ،

والكن الروح بلغت خلفها ، فلما احقر التراب !
قال هذا ، وانخفض عليه ، ثم عادت الرغبة تضطرب بين
شفتيه ، وبعد عنيفة صمت وحالة ، اهتز الجسد الحائر الهزيل ، في
المهد الخبير ، فالتفتت الحمامة عن وئدها ، وصفت بجناحيها
باجفان وخرجت من كوة في اعلى الكهف .
وشهق فزعجا باكباً . اما أنا ، فقد طويت المنديل ، محتفظاً
برغبة الموت المقدسة ، وخرجت ، فاركاً الرئيس يكمل صلاته .

— ثبث —

كتب المؤلف مطبوعة

اشباح وارواح	مواضيع
انا مكتوبة	قصة
بقطة الدم	مسرحة
الساعة الثالثة	•
مسيحة الراهب	قصة

المهيا للطبع

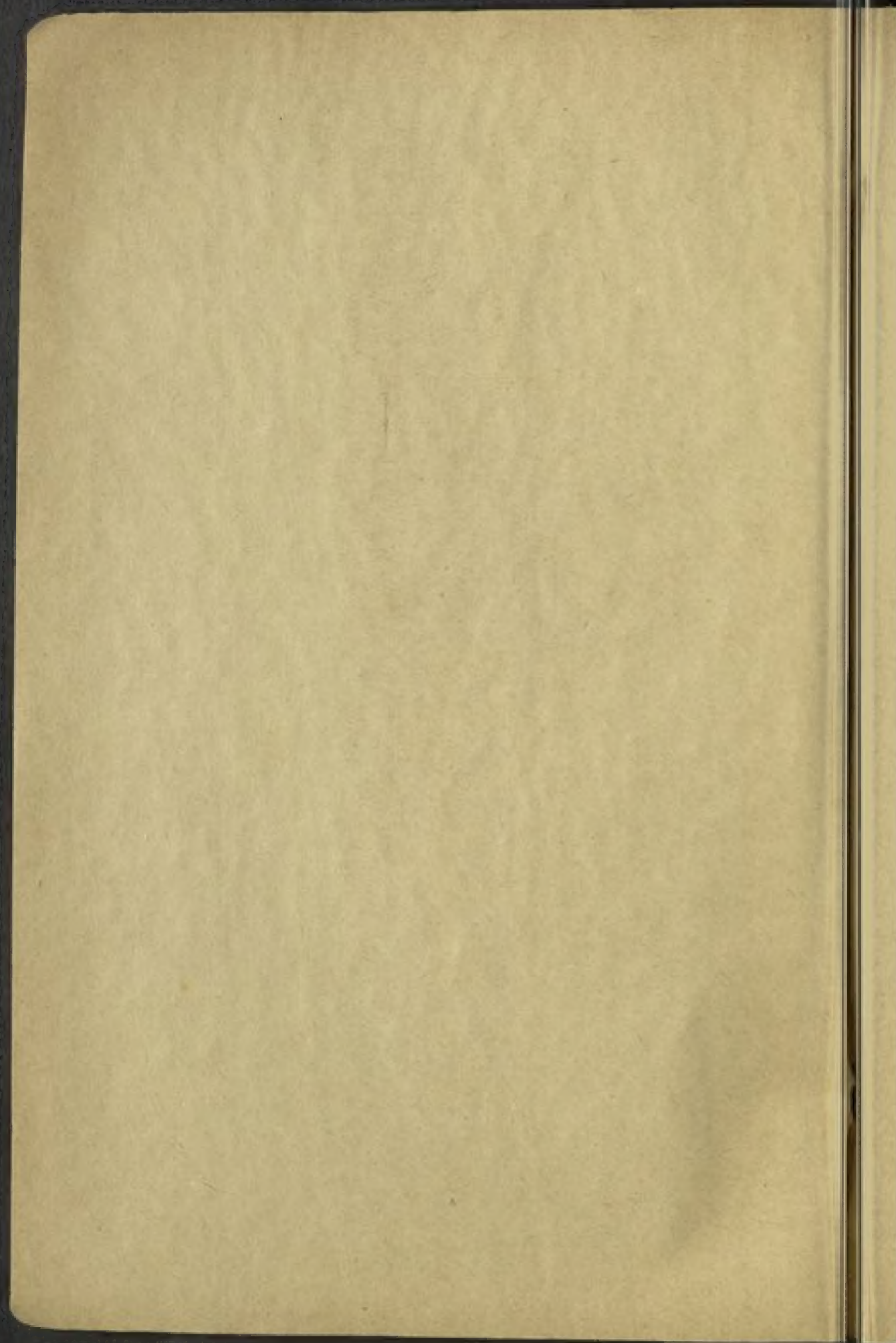
الزاهد	قصة
يسوع الغلام	•
هذا الغريب	•
انا زوجك	•
ليرة ذهب	•
عاشقة نفسها	•
الادب في السياسة	
حدود من الشارع	
اناجورعال	مسرحة
الذكاري	مواضيع

تصحيح بعض الاغلاط المطبعية الهامة

سطر	صفحة	حواب	غلط
٧	٢٨	وشياناً تشوفهم	شياناً وتشوفهم
١٩	٢٩	مويو	المويو
٠٤	٣٢	خويو	ضويو
٠٨	٤٢	جبالاً	جبالاً
١٦	٤٣	من فضيلتك	فضيلتك
٠٩	٤٤	با كمدا	با كمدا
١٠	٥٢	لسوي	يسوي
٠٥	٥٣	شغاف	شغاف
١٦	٥٧	جوكاتواه	جوكاتواه
٠١	٥٨	والها	والها
٠٢	٥٨	بالطباشير	بالطباشير
١٨	٦٠	تعرف	يعرف
١١	٦٢	تربته	تربية
٠٨	٦٤	خالق	خالق
١٩	٦٤	ولم يبق	ولم يبد
٠٣	٦٦	لساعات	يساعات
٢١	٦٨	فالخذون	فالخذان

سطر	صفحة	صواب	غلط
٥٤	٦٩	النفس	النفس
٥٣	٧١	وقبلها	واخذ يدها وقبلها
١١	٧٣	خجلاً إذ	خجلاً ان
١٥	٧٤	مقيداً	مقيداً
١٣	٧٦	واحد	واحداً
١٥	٧٧	دعائك	دعاءك
٢١	٨٩	نعرفه عنه	نعرف اكثر
١٦	٩٠	ووقف	وددق
١٦	٩٤	كانها	كانه
١٥	١٠٦	كائن واحد	كائناً واحداً
١٤	١١١	اليها	اليها
١٦	١١١	الوطاة	الوطاة
٥٤	١٥٤	الذين	الذي
٥٧	١٥٤	يرابط	يرابط
٥٢	١٥٥	قنهض عن	قنهض على
٥٨	١٦١	كان	كانه
٥٣	١٦٤	الفاتين	الثنائين
١٧	٢٠٤	مفيد	مفيد
١٧	٢٠٥	النصافي	النصافي
٥١	٢٠٦	الاقبية	الاقبية

مقطع	حواص	صفحة	مقطع
تجدد	تجدد	٢٠٨	٠٤
شفاف	شفاف	٢١٤	١٤
المنفعة	المنفعة	٢١٧	٠٤
هفاف	هفاف	٢٢١	١٣
بالجمال	للجمال	٢٢٤	٠٥
يهوى	يهوى	٢٢٨	١٥
اعتدال	اعتدالاً	٢٢٨	١٥
رجاله	رجاله	٢٢٩	٠٨
اذنه	في اذنه	٢٣٦	٠٧
الجنوب	الجنون	٢٤٠	١٢
الخطبة	الخطبة الاولى	٢٤٣	١٧
انما في	ان في	٢٥١	٢١
هذا نهاية	هذه نهاية	٢٥٢	٠٢
كتيباً	كتيباً	٢٥٥	١١



A.U.B. LIBRARY

دعوت الی اللہ
بہ نیکو انداز

مطابع سمنیا - بیروت
شارع عبد الوہاب الانکیزی

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00507881

